الإعجاز الجدلي

في القرآن

بقلم

الشيخ خميس جابر صقر

موجه عام علوم القرآن بالأزهر الشريف

وعضو لجنة مراجعة المصاحف (سابقاً)

الناشر

الصحابة للدراسات القرآنية والعربية بطنطا

الصحابة للدراسات القرآنية والعربية بطنطا

للنشر والتحقيق والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ : ٢٠١٠م

رقم الإيداع

٢٠١٠/١٦٤٧١

الترقيم الدولي

978-977-272-592-3



دار الكتب والوثائق القومية

صقر، خميس جابر
الإعجاز الجدلي في القرآن
بقلم خميس جابر صقر . . ط١ . .
طنطا : دار الصحابة للدراسات القرآنية
والعربية 2010
ص ٣٦٨ - ٢٤ سم
تدمك : ٣-٥٩٢-٢٧٢-٩٧٧-٩٧٨
١ - القرآن ، إعجاز
أ - العنوان
٢٢٩ ر٧

دار الصحابة بطنطا

للنشر والتحقيق والتوزيع

المراسلات
طنطا - شارع المديرية
أمام محطة بنزين التعاون
تليفاكس: 3331587
محمول : 0123780573
ص . ب: 477
الرمز البريدي: 31599
موقعنا على الإنترنت
www.dsahaba.net


قَالَ تَعَالَىٰ:
﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ
تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ ﴾
[سورة غافر: ٤]

مقدمة

الحمد لله.. أمر ألا نعبد إلا إياه.. خلق الكون بعلمه وبقدرته احتواه.. إليه المصائر والتصرفات من بدء الأمر إلى منتهاه .. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بلا تناه.. و﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أسراره وخفاياه .. شهد له كل من فى السموات والأرض بأنه الإله.. عظم نفسه لأنه لا عظيم سواه.. وعظم القرآن لسان الحق وفحواه.. وعظم رسوله الهادى واصطفاه.. وجعلنا خير أمة أخرجت للناس ما أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر وآمنا بالله.. والصلاة والسلام على خير رسله ومن والاه.

وبعد ...

فإنى أقدم هذا الكتاب (الإعجاز الجدلى فى القرآن) لخاصة أهل العلم وعامتهم فى زمن نضب فيه معين الخير.. وعز فيه عطاء أهل الفضل.. واجتمعت فيه شراذم الكفر والإلحاد للطعن فى القرآن والنيل من السنة.

ولا غرو: فإننا نعلم ذلك يقينا.. ونعلم أن السكوت عجز وأن الخضوع يقوِّى شهود الإلحاد.. ويشعل أوار الضلال.. ولا أدَّعى لنفسى الغيرة على القرآن وحدى.. ولكنى أعلم أن هناك مخلصين وعلماء ذبُّوا عن القرآن ونافحوا عن السنة.. ولكن كان الدافع لدىَّ أقوى مما يسطره اليراع.. ويعبر عنه اللسان والبيان والانطباع.. فلقد عكفت على تأليف هذا الكتاب لسنوات أربع لم يهدأ فيها الفكر والبحث والاطلاع.. أرجو به رحمة ربى وأنا فى جوف التراب.. كما حاولت فى هذا المؤلف أن أرصد - جُلَّ - ما عرضه وقاله الطاعنون فى القرآن وقمت بالرد على الملحدين والمجادلين من خصوم القرآن وذلك من خلال أبواب

عدة تقع فى أحد عشر بابًا صُنِّفَ كل باب منها لِيُعْرَضَ من خلاله إعجاز القرآن فى عرض آياته وأحكامه لإفحام خصومه فى كافة مواقف المعارضة وتفنيد الآراء والتدليل عليها ودفع الهجوم الضارى من خلال عرض قرآنى لآفاق الجدال والحوار فى القرآن ، وبيان معنى الإعجاز فى كافة نواحيه ووجوهه قصصًا وأمثالًا وأحكامًا وغير ذلك من سَوْق العبر وترسيخ قواعد المحاجة وتوثيقها من خلال منظومة بحثية تَقْوى بها الحجة بالغة فى ذلك مداها ، وتتحقق بها النصرة ماحقة لنوايا عِداها ، وتُطْوَى بها صفحة الإلحاد فى سكونها وصداها ، إنصافًا لهذا الدين الحنيف .

وقد تتبعت فى ذلك أصول البحث فى ترتيب الأبواب ذهنيا وعلميا وصولا بالفكرة إلى الهدف المنشود .

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

فيدرك ثأر الله أنصار دينه ولله أوس آخرون وخزرج

الراجى عفو ربه

الشَّيخ خميس جابر صقر

موجه عام علوم القرآن بالأزهر الشريف

وعضو لجنة مُراجعة المصاحف (سابقاً)


الباب الأول
حول القرآن الكريم

حول القرآن الكريم

تعريف القرآن :

للعلماء فى تعريف القرآن الكريم أقوال منها:

أولاً: ما جاء فى مقدمة ابن خلدون :

القـرآن : هـو كـلام الله المنـزل عـلى نبيـه المكتـوب بـين دفتـى المـصحف.. وهو متواتر بين الأمة.

ثانيًا: الكتاب أو القرآن:

هو كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ بلسان عربى مبين تبيانًا لما به صلاح للناس فى دنياهم وأخراهم. «كتاب التشريع للشيخ على حسب الله».

ثالثًا: القرآن:

هو الوحى المنزل للإعجاز والبيان. «كتاب إعجاز القراءات القرآنية للأستاذ صبرى الأشوح».

رابعًا: القرآن:

هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ المعجز بلفظه ومعناه والمتحدَّى بأقصر سورة منه «كتاب علوم القرآن للشيخ عبد الفتاح القاضى».

هذا ما وقع عليه اختياري من تعريفات تكاد تكون متفقة وتدور حول التنزيل والتواتر والإعجاز والتحدى وغيره.

الفصل الأول

أهداف القرآن

من المعلوم أن للقرآن الكريم أهدافاً عظيمة وكثيرة ويمكن إجمالها فيما يأتى:

الهدف الأول :

تعريف الخلق بالخالق الواحد الفرد.. المتفرد بالجلال والكمال والقادر على الإنشاء والإعدام.. المتقرب إليه بالعبادة والموصوف بكل كمال يليق بذاته تعالى المقدسة والآخذ بالنواصى والأقدام.. والمهيمن على كل شيء.. والبصير بأمور العباد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

الهدف الثانى :

إعلان أن هذا الكون يسير وفق مراد الله تعالى ويدار بإرادة عليا لا تنافس ولا تزاحم ولا يغلبها غالب ولا تختلط عليها الجواهر ولا الأعراض ولا الوسائل ولا الأغراض بيّد أنها إرادة الله تعالى.

الهدف الثالث :

بيان أن القرآن إنما أنزل لإصلاح أحوال الناس ؛ ولذلك وردت الأوامر والنواهى بتشريع دقيق يثيب على المعروف ويعاقب على المنكر ، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

الهدف الرابع :

الإخبار عن الأمم السابقة وأحوالهم مع أنبيائهم ورسلهم مع استخلاص العبر والدروس النافعة.. والتسليم بالقوانين التى تنظم السلوك والمعاملات.. وإظهار المغيب والمجهول عن البشر.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

الهدف الخامس :

لفت الأنظار إلى أهمية العمل الصالح وكونه مقرونًا بالإيمان وترك الحماقات، والبغى والعدوان، والإنذار بإهلاك أهل الضلال، والوعيد الشديد للظالمين والمنحرفين والمقترفين للمعاصى.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس: ٩].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر: ٣٧].

الهدف السادس :

حث الناس على طلب العلم والأخذ بأسباب التقدم والرقىّ والتفكر فى ملكوت السماوات والأرض وحفز الهمم وتفجير كل الطاقات البشرية للوصول إلى المراتب العالية والمقاصد السامية والغايات النبيلة والصفات الكريمة والخصال الحميدة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وقال أيضًا: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[الأعراف: ١٨٥].

الهدف السابع :

التعريف بالحدود والقصاص وحق النفس والمال والعرض وتحديد المسئولية.. والجنايات والتعزير والفدية والمعاملات.

الهدف الثامن :

بيان قدرة الله تعالى فى الكون: الفضاء والبحار والأجنة ، والحديث عن الإنس والجن وسائر الكائنات والمعادن والطبائع.

الهدف التاسع :

الدفاع عن الدين والإعداد للحرب ، والجنوح للسلام ،والتفقه فى الدين، وأحكام القضاء والردة والنسب والعدة والأحوال الشخصية.. والعهود والمواثيق.. والمواريث.

الهدف العاشر :

بيان التدرج فى التشريع ، ورفع الحرج ، وتقليل التكليف ، والسمو بالروح ،والعفو والصفح ، والتربية ، وتنمية وتغذية المجتمعات بالفضائل ، وغرس الأخلاق ، وإصلاح العقائد.



الفصل الثانى

إعجاز القرآن

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

يرجع إعجاز القرآن إلى فصاحة ألفاظه[1].. وبلاغة أساليبه وخفته على اللسان.. وحسن وقعه فى السمع. وأخذه بمجامع القلوب.. وإخباره بالمغيبات ماضية كانت أو مستقبلة.. كما أنه يشتمل على الأخلاق السامية الفاضلة.. والشريعة العادلة الكاملة.. الصالحة لكل الناس فى جميع البقاع والأصقاع والأجيال وسلامة القرآن – فوق كل هذا – من التعارض أو التناقض. كما قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

ولقد تناصرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز فمن قائل: إن إعجازه فى شرف غرضه، وتنوع مقاصده، وإخباره وبيانه، ومن قائل: إن إعجازه فى فصاحته الرائعة ومذهبه الواضح.. وأسلوبه الموثوق به فإن الذين تحدوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة، إنما كانوا بلغاء مصادع وخطباء مصاقع، وشعراء فحولاً وفى القرآن من دقة التمثيل والتشبيه، وبلاغة الإجمال والتفصيل وروعة الأسلوب وقوة الحجاج ما يعجز طوق البشر، ويرمى المعارضين بالسكات والحصر.

---

(١) أصول التشريع الإسلامى – على حسب الله – الطبعة الخامسة – دار المعارف بمصر ١٩٧٦م ص ٢٧.

وقد خص الله تعالى هذه الأمة فى كتابهم هذا المنزل على نبيهم ﷺ بما لم يكن لأمة من الأمم فى كتبها المنزلة ، فإنه تعالى تكفل بحفظه دون سائر الكتب ولم يَكِلْ حفظه إلينا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

وذلك إعظام لأعظم معجزات النبى ﷺ ؛ لأن الله تعالى تحدى بسورة منه أفصح العرب لسانًا وأعظمهم عنادًا وعتوًّا وإنكارًا فلم يقدروا على أن يأتوا بآية مثله ثم لم يزل يتلى آناء الليل والنهار من ألف وأربعمائة سنة مع كثرة الملحدين وأعداء الدين ولم يستطع أحد منهم معارضة شيء منه. وأى دلالة أعظم على صدق نبوته ﷺ من هذا ؟.

وأيضًا فإن علماء هذه الأمة لم تزل من الصدر الأول وإلى آخر وقت يستنبطون منه من الأدلة والحجج والبراهين والحكم وغيرها ما لم يطلع عليه متقدم ولا ينحصر لمتأخر بل هو البحر العظيم الذى لا قرار له ينتهى إليه ، ولا غاية لآخره يوقف عليه، ومن ثم لم تحتج هذه الأمة إلى نبى بعد نبيها ﷺ كما كانت الأمم قبل ذلك لم يخل زمان من أزمنتهم عن أنبياء يحكمون أحكام كتابهم ويهدونهم إلى ما ينفعهم فى عاجلهم ومآبهم . قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة : ٤٤].

فوكل حفظ التوراة إليهم فلهذا دخلها بعد أنبيائهم التحريف والتبديل.

ومن إعجاز القرآن أنه أدخل ألفاظًا (معربة)(١) لم تكن معروفة عند العرب ففى كتاب

---

(١) ترجمات معانى القرآن الكريم ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية (الندوة العالمية ليبيا)ص ١٠٨.

(المُوَلَّد فى العربية) قام الدكتور حلمى خليل بتقسيم الألفاظ (المعربة) التى وقعت فى القرآن الكريم حسب رأى السيوطى فى مؤلفه (المهذب) إلى العائلات اللغوية الحديثة مستفيدًا من الدكتور حسن ظاظا فى كتاب (اللسان والإنسان) وكذلك من الدكتور عبد الصبور شاهين فى مؤلفه (القراءات القرآنية) فكان التفريع الآتى :

العائلة السامية :

وتحتوى على أربع مجموعات:

أ- اللغة العبرية ب- اللغة السريانية.

ج- اللغة الحبشية د- اللغة النبطية .

أولاً: اللغة العبرية :

وأمثلتها: أخلد: أى ركن[1] ، الأواه: أى الدعّاء..عير: أى حمار ، درست: أى قرأت ، كَفَّر: أى محا عنهم ، اليم: أى البحر.

ومثل لفظ: جهنم: وأصلها: كهنام ، ولفظ: الربانيون ، وهى تعنى: الرمز ، ولفظ صلوات: أى كنائس اليهود ، ولفظ طوى: أى ليلاً ، وقيل: اسم لرجل.

ثانيًا: اللغة السريانية:

وأمثلتها:[أسفار: أى كتب].. [رهوًا: أى ساكنًا].. [سريًا: أى نهرًا].. [الطور: أى الجبل].. [عدن: أى جنات الكروم].. [القيوم: الذى لا ينام] وألفاظ أخرى مثل: ربانيون.. هونًا.. أليمًا.. هيت لك.

ثالثًا: اللغة الحبشية:

وأمثلتها: [ابلعى: أى ازدردى].. [الأفنان: أى السرر].. [الأواه: أى الرحيم]..

---

(١) الندوة العالمية – حول ترجمات معانى القرآن الكريم – جمعية الدعوة الإسلامية العالمية (الندوة العالمية – ليبيا) الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٠٨.

[الأوَّاب: أى المسبح].. [الجبت: أى الطاغوت].. [ورى: أى مضئ].. [السكر: أى الخل].. [شطر: أى تلقاء].. [طه: يا محمد].. [طوىٰ: أى الجنة].. [مشكاة: أى الكوة].. [منسأة : أى عصا].. [الأرائك: أى السرر].

رابعًا: اللغة النبطية :

وأمثلتها: [الأسفار: أى الكتب].. [أكواب: أى الأكواز أو الجراير].. [تتبيرًا: أى تدميرًا]، [الحواريون : الغسالون أو مبيضو الثياب](1).. [حوب: أى إثم].. [رهوًا: أى سهلاً دمثًا].. [سفرة: أى كتبة].. [طه: أى يا رجل].. [فردوس: أى الكرم].. [كفّر: امح عنا].. [ملكوت: أى الملك].. [وَزَرَ: أى الجبل والملجأ].

ولا جدال فإن هذه الألفاظ التى أوردها السيوطى ورتبها الدكتور حلمى خليل باعتبارها (سامية) تكون (عربية) أو (عروبية) والدليل على ذلك أن اللفظ الواحد نجده فى الحبشية مرة.. وفى السريانية مرة أخرى.. وفى النبطية ثالثة ؛ لأن المصدر واحد واللغة واحدة.

وفى كتاب (فصول فى فقه اللغة) أورد الدكتور رمضان عبد التواب خلاصة خلص بها إلى القول بأن لغة الكتاب العزيز (المعجز) ليست هى لغة قريش وحدها كما يتردد أحيانًا فى بعض الكتب والروايات.

وإنما هى ما أسماه (اللغة المشتركة) بين العرب جميعًا ، وإن كانت اللهجة القريشية من أقوى اللهجات أثرًا فى تكوين هذه اللغة المعروفة بالفصحى شأنها فى ذلك شأن كل لغة مشتركة ، وذلك راجع إلى عوامل دينية واقتصادية متعددة ، ولا نغالى إذا قلنا: إن أسلوب القرآن الكريم وهو يمثل قمة اللغة العربية المشتركة كان فوق مستوى العامة من العرب كما كان فى بعض الأحيان فوق مستوى الخاصة.

---

(١) المرجع السابق.

ويروى الباقلانى فى (إعجاز القرآن) قصصًا وحوادث توضح بجلاء كيف كان فصحاء العرب ينظرون إلى عظمة أسلوب القرآن.

. ففى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ قول الله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس: ٣١]، وقال: ما الأبُّ؟[١]، ثم قال: ما كلفنا أو ما أمرنا بذلك.. وهذه الرواية لم يكن يعرفها عمر رضي الله عنه مع أنها لفظة عربية أصيلة دون شك بمعنى «الكلأ: أى العشب» ومثال عمر بن الخطاب[٢] الذى لم يكن يعرف معنى كلمة (أبَّ) فى لفظ ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قد ينطبق على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذى رأيناه أول من قال بسريانية أو حورانية بعض ألفاظ القرآن الكريم وتبعه آخرون فالأمر إذن هنا لا يعود إلى عدم عروبية هذه الألفاظ ولكنه يعود إلى أن من قالوا بذلك لا يعرفونها.

ومن الممكن بالطبع تتبع كل كلمة قرآنية قيل أنها حبشية أو عبرية أو نبطية أو سريانية ونحوها فى المعاجم والقواميس الحديثة بعد أن انكشف سر هذه اللغات وتأصيلها ومقارنتها بما فى العربية ولنكتف بقبول مبدأ أن هذه الألفاظ جميعها عربية بمقياس العلم اللغوى التاريخى المقارن.

ولقد خطّأ بعض العلماء الآراء القائلة بأن العربية وهى لغة القرآن كانت بحاجة إلى أن تأخذ عن اللغات الأخرى ما لم يكن فيها من ألفاظ ولم يكن الدافع ما ذهب إليه هؤلاء العلماء من نفى العجمة عن الكتاب العزيز من باب التعصب للغة الشريفة ولكن هذا ما يثبته التحقيق والتنقيب والبحث العلمى النزيه.

وقد كانت الأمة العربية فى جزيرة العرب التى كانت مصدر الأفواج البشرية وخزانها

---

(١) الندوة العالمية ص ١١٥.

(٢) المرجع السابق ص ١١٦.

الهائل على مر التاريخ وفى الأقطار العربية من الرافدين والشام ومصر وشمال أفريقيا كانت على مدى التاريخ منذ أقدم عصوره تمثل كتلة بشرية واحدة ذات لغة واحدة ، وإن تعددت لهجاتها وتطورت دلالة ألفاظها ، وحين نزل القرآن الكريم على خاتم النبيين ﷺ كانت تلك (اللغة المشتركة) فى قمة اكتمالها وذروة نموها فعبرت تعبيرًا كاملاً ودقيقًا عن محتويات الأحكام والعبادات بلغة معجزة وأسلوب لا يجاريه أسلوب قط ، ولم تكن بحاجة إلى الاستعارة أو الأخذ والنقل فقد كانت هى النبع الذى صدرت عنه بقية الألسن واللغات المحيطة بها على مر الزمان ، وبذا كان هذا الكمال المعجز فى القرآن الكريم الذى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت:٤٢]. وهذا ما تميزت به لغة الكتاب العزيز.

يقول الدكتور لبيب السعيد فى كتابه « الجمع الصوتى الأول للقرآن»[(١)].

وقد قيل: فى الهجوم على القرآن وفى محاولة صرف أتباعه عنه.. إنه مكتوب بلغة ميتة لا يستطيع المسلم أن يفهمها إلا بدراسة خاصة ولكن الواقع الذى يلمسه كل ذى بصر بالتاريخ أن الدنيا لم تشهد كتابًا يدانى القرآن فى إقبال أتباعه عليه واستهدائهم به وتقريرهم فى صدق أنهم دائمًا يقرؤونه ويكتبونه ويسمعونه ، وهم مع ذلك لا يملُّونه والمشاهد: أنهم عرب وغير عرب ، سواء فى تعلقهم بالقرآن برغم الجهود المعادية المختلفة الألوان التى كانت وما برحت تبذل لصرفهم عنه ، ومن المؤثر حقًا: أن نرى المسلمين غير العرب يرددون آيات القرآن مغالبين لكنتهم فى محاولات غير هينة حتى إذا سمعوه من عربى أصغوا إليه بملء قلوبهم وأسماعهم وعدوها فرصة ثمينة يستديمونها ويستزيدون منها.

---

(١) المصحف المرتل. د/ لبيب السعيد. دار المعارف بإيداع ١٨١٤ / ١٩٧٨.

يقول الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ فى القرآن: « ألا إن فيه علم ما يأتى والحديث عن الماضى ودواء دائكم.. ونظم ما بينكم».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتلُ القرآن».

والمعانى القرآنية بمقاصدها المتنوعة تتغيا (١) حفز الإنسان والأخذ بيده ليتسامى إلى مستوى الجدارة بخلافة خالقه سبحانه وتعالى له فى الأرض وتتخذ هذه المعانى لذلك أساليب متعددة وموجهة لكل الأزمنة تتكشف منها روائع من دروب الهداية والإرشاد وحقائق تتجلى لعقول الأجيال، إذ يترقى الجنس الإنسانى فى معلوماته وأدواته فيدركها. لقد بذل العلماء منذ القرون الأولى غاية الجهد فى بيان وجوه إعجاز القرآن وخصائص أسلوبه، وتتابعت المؤلفات فى مجاز القرآن ومعانيه، حتى ليحصى ابن النديم نحوًا من أربعين تفسيرًا للقرآن ومشكله ومجازه، وأربعة عشر كتابًا من غريب القرآن وسننه فى لغات القرآن وواحدًا وعشرين من القراءات وخمسة فى النقط والشكل وأحد عشر فى الوقف والابتداء وخمسة فى وقف التمام، وكتابين فيما اتفقت ألفاظه ومعانيه وثمانية فى متشابه القرآن وثلاثة فى هجاء المصاحف وثلاثة فى مقطوع القرآن وموصوله وستة فى أجزاء القرآن واثنا عشر فى فضائل القرآن وستة فى عدد آى القرآن وثلاثة لأهل مكة وأربعة لأهل الكوفة وثلاثة لأهل البصرة وثلاثة لأهل الشام، كما أحصى ثمانية عشر كتابًا فى ناسخ القرآن ومنسوخه وكتابين فى نزول القرآن وأحد عشر فى أحكام القرآن، وواحدًا وعشرين مؤلفًا فى معانٍ شتى من القرآن «غير ما تتابع بعد ذلك مما لا يحصى عدده ولا عدد مؤلفيه ولا يكاد يمر وقت طويل حتى نأتى من القرآن ببرهان جديد وعلم جديد وفتح جديد».



(١) تتغيًا بالغين : من الغاية .

الفصل الثالث

تأثر العرب به

مما لا ريب فيه أن للقرآن الكريم بما احتوى عليه من بلاغة وإعجاز وبيان قد أثر فى العرب تأثيرًا كبيرًا حتى إنهم وقفوا أمام القرآن وقفة المتأمل المسلّم بل والعاجز عن الإتيان بمثله أو بعشر سور مثله أو حتى سورة واحدة مثله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود: ١٣].

فالقرآن الكريم أصدق بيان وأدق وثيقة تناقلتها البشرية فى شتى أبعاد الحياة زمانًا ومكانًا فقد تعانقت بإذن الله كل أسباب الحفظ وكل وسائل الصيانة على الإبقاء عليه بعيدًا عن أى زيف وفوق كل اشتباه سواء أكان ذلك بالكتابة فى المصحف أم بالحفظ فى الصدور أم بالتلاوة الدائمة ليلاً ونهارًا فى الصلاة وشتى ضروب العبادة، أو بمراجعة آياته وتمحيصها والبحث فيها عن أحكام الشريعة وسنن الحياة أم كان ذلك عن ترداد النظر فيه من أهل الديانات الأخرى وغيرهم بحثًا عن سقطة أو جريًا وراء عثرة يشنون بها الحرب عليه؛ لذا عرف العرب أن القرآن غالب وجامع فهو يسير فى تلاوته لا حوائل فيه ولا موانع هو قريب من كل نفس وكل عقل كما أنه للإنس والجن والخاص والعام.

كما أنه ليس فيه من قضايا وأحكام كما فى العلوم الأخرى من أمور مستغلقة أو لف ودوران وإقدام وإحجام وتحليق فوق الحقائق وتشتيت للأذهان؛ لذلك ورغم أنف المكابر

وعتاة الكفر فقد كانوا يخافون من وعيد القرآن وإنذاره لهم وتشهد بذلك روايات كثيرة فعندما نادى رسول الله ﷺ على قريش من أعالى مكة قائلاً: يا معشر قريش، فبادروا إليه مسرعين متزاحمين حتى وقفوا جميعًا بين يديه ﷺ فحدثهم وعرفهم بوحدانية الله تعالى فصرخ أبو لهب فى وجهه ﷺ وقال له متحديًا: تبًا لك، ألهذا جمعتنا؟.

فأنزل الله تعالى الرد السريع فى سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ [المسد: ١ – ٥].

قال الحميدي: لما سمعت أم جميل زوجة أبى لهب بما نزل فيها وفى زوجها من القرآن.. أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه وفى يدها فهر (أى: حجر) ملء الكف من حجارة فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: إن صاحبك قد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، ثم قالت والله إنى شاعرة، وأخذت تقول:

مذممًا عصينا.. وأمره أبينا.. ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ قال: « ما رأتنى لقد أخذ الله ببصرها عنى» وتحقيق هذا الأمر أنه كان من الطبيعى أن لا تدخل امرأة فى هذه المعركة لأن التحدى موجه للرجال – المعارضين من زعماء قريش – فكون القرآن أتى بالطعن فى امرأة أبى لهب دليل على أن هناك حدثًا هامًا أدى إلى هذا الموقف وهو أنها قالت: مذممًا عصينا.. وأمره أبينا.

وهذا ذم صريح ومعلن للرسول ﷺ فأدخلت بذلك نفسها فى أتون تلك المعركة فِعليًا، فأنزل الله تعالى ما يؤكد به مساندته لرسوله ومعاداة من يعتدى عليه، فلما سمعت

هذه الآيات وأنها نزلت فى حقها وحق زوجها ذهبت إلى الكعبة وكان أبو بكر جالسًا فقالت: أين صاحبك؟ وكان النبى ﷺ بجواره فمال أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال له: ما أرى أنها أتت إلا للإيذاء فقال له رسول الله ﷺ: « إن الله عصمنى منها ».

ثم عادت لتسأل: أين صاحبك يا أبا بكر؟ فلم يرد عليها ، فهل أصابها عمى لم تر معه النبى ﷺ وهو أمامها، فى الحقيقة لا ولكن السبب هو أن الله جعل بينها وبينه حجابًا مستورًا مع أن كل أسباب الإيذاء موجودة ولم يتحقق أصل هذا الحجاب أكان مرئيًا أم لم يكن مرئيًا فالحجاب موجود ولكنه مستور ومن طبيعة الحجاب أن يستر ما خلفه فلماذا وُصِفَ هذه المرة بأنه مستور.

والجواب على ذلك: بأن الحجاب نفسه كان مستورًا فلم تره امرأة أبى لهب وهذا هو الأبلغ ولو أعماها الله تعالى لادعت أن العجز ليس بسببها ولكنه أمر خارج عن إرادتها فتركها على حالتها ليثبت عجزها وضعفها مع القدرة على التحدى.

كما ذكر القرآن كذلك نوعًا من التحدى الكونى والذى عجز العرب عن فهم حقيقته ليجدوا أنفسهم أمام سبق علمى لم يصل إليه أحد – هذا إذا جاز التعبير وإلا فهو علم إلهى وقدرة إلهية – كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢] فكون السماء مرفوعة فهذا شيء طبيعى ، أما كونها ترفع بعمد والعمد لا ترى فهذا مكمن الإعجاز وبيان أثر القرآن فى النفوس المؤمنة بتحويل الأفراد من جحودهم ، وكفرهم إلى كونهم قادة وزعماء فى الإسلام ، وإذا كان الإعجاز فى حقيقته هو كون أسباب القدرة موجودة بالفعل ثم تسلب هذه القدرة – ليس هذا عبثًا وإنما هو تحقيق لمراد الخالق.

وفى موقف آخر حينما أخذ المشركون يتشاورون فيما بينهم عمن يرسلونه إلى الرسول ﷺ ليحدثه فى الأمر الذى يدعو إليه ووقع اختيارهم فى إرسال (الوليد بن المغيرة) عظيم مكة وكان يلقب بالوحيد وهو القائل أنا الوحيد ابن الوحيد ليس لى فى العرب نظير

ولا لأبي المغيرة نظير، فلما ذهب إليه عرض عليه زخرف الدنيا ومتاعها مقابل أن يرجع عما يدعو إليه ولكن الرسول ﷺ أعرض عنه وتلا هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠].

فيعود المغيرة إلى قومه ليقول: «والله إني لأعلم منكم بالشعر ورجزه، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من ذلك والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته».

وفي رواية أخرى أنه لما ذهب إلى رسول الله ﷺ وعرض عليه ما عرض، تلا عليه رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [غافر ١: ٣].

سمعه الوليد يقرؤها فقال: والله لقد سمعت منه كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن.. وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة إلخ الرواية.

وفي رواية ثالثة أن رسول الله ﷺ تلا على عتبة بن ربيعة سورة فصلت:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت الآيات من ١: ١٣]

فقام عتبة من فوره وناشد رسول الله ﷺ أن يكف، وقيل: أمسك بيده أو وضع يده على فم رسول الله ﷺ مناشدًا إياه أن يكف وخاف أن يحق العذاب بأهل مكة وزاد القرطبي: أن الوليد قال مقالته وزاد عليها: وما يقول هذا بشر ثم عاد إلى داره وأغلق عليه بابه فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبونَّ قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى

إليه حزينًا؟ فقال له الوليد : مالى أراك حزينًا؟ فقال له: ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة لتنال من فضل طعامه فغضب الوليد وتكبر وقال: أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه وانتم تعرفون قدر مالى واللات والعزى ما بى حاجة إلى ذلك.

وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون ، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا لا والله.. قال: وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا لا والله قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبًا قط؟ قالوا: لا والله ، قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ، والله لقد رأينا للكهنة أسجاعًا وتخالجًا فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا لا والله.

فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر فى نفسه ثم نظر ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟! فنزل فيه قول الله تعالى:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ حتى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر ١١: ٣٠]

فهذه الآيات المكية عليها طابعها الخاص من الجزالة وقصر الفقرات وخشونة الخطاب.. وكلمات الزجر والتخويف ؛ لذلك كان جل اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم البحث فى آياته وحفظه وأسباب نزوله وشرح قضاياه وأماكن نزوله حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه : «والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت.. ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فى أى شيء نزلت ولو أعلم أن أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

وقال أيوب: « سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال: نزلت فى سفح ذلك الجبل.. وأشار إلى (سَلْع) » كذلك كانت عنايتهم بكتاب الله حتى عدّوا آياته وحروفه ، بل عدّوا كل حرف فيه ، واتفقوا على أن بالقرآن تسعًا وعشرين سورة مدنية ، وإحدى وسبعين سورة مكية ، وأربع عشرة سورة مختلفًا فيها بين مكية ومدنية ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جدَّ شأنه فينا أى عظم شأنه فينا.

وقد ذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤].

فسجد الأعرابى ، وقال: سجدت لفصاحته وسمع رجلاً آخر يقرأ :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف:٨٠].

فقال الرجل: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى الأصمعى أنه سمع جارية فقال لها: ما أفصحك ، فردت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص:٧].

فجمع فى آيةٍ واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين وحكى يحيى الغزال: أنه رام شيئًا من معارضة القرآن فنظر فى واحدة من ثلاث هن أقصر السور فى القرآن عدد آياتها ثلاث وحاول أن ينسخ على منوالها فرجع قائلاً: اعترتنى منه خشية ورقة حملتنى على التوبة والإنابة.

وروى أن نصرانيًا مر بقارئ فوقف يبكى فقيل له: لم بكيت؟ قال: للشجاء والنظم.

وسئل الإمام جعفر الصادق :

(لم صار الشعر والخطب يمل منها والقرآن لا يمل؟)

فأجاب: لأن القرآن حجة على أهل العصر الثانى كما هو حجة على أهل العصر الأول، فكل طائفة تراه عصرًا جديدًا ؛ ولأن كل امرئ فى نفسه متى أعاده وفكر فيه تلقّى منه فى كل مرة علومًا غضة ، وليس هذا كله فى الشعر والخطب.

وسمع أحد اللصوص قارئ الفجر يقرأ:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد:١٦]، فعاد عما كان قد نواه من السرقة، وقال: قد آن يا رب قد آن يا رب.

ولكن لماذا كان القرآن معجزًا..؟

كلمة إعجاز مصدر: أعجز إعجازًا فهى اسم مصدر وكلمة «أعجاز» بفتح الهمزة جمع «عَجُزَ» بضم الجيم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾ [الحاقة: ٧] مادتها اللغوية من عجز أما عجْز الشيء بإسكان الجيم فهو مؤخرته.

وعجَز بفتح الجيم: أى ضعف والعلاقة بينهما أن المؤخرة فيها معنى الضعف –وسميت المرأة بالعجوز لضعفها عن أداء مهمتها أو عن القيام بمهمتها، ومنها دعاء النبى ﷺ «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل...».

إذًا فمادة «عجز» تدور حول الضعف وهى إما عجز أو أعجز - أى ضعف أو أضعف يضعف أو يضعّف أو يعجز أو يعجّز غيره –، ومعنى هذا فإن إعجاز القرآن هو إضعافه لغيره بإضافة المصدر إلى المفعول بإظهار ضعف الذين نزل عليهم، وهذا من معجزات النبى ﷺ.

والمعجزة: هى أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مدعى النبوة.

والقرآن: هو كلام الله المنزل على قلب نبينا محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدَّىٰ بأقصر سورة منه، وبعضهم قال: هو كلام الله من الفاتحة إلى الناس.

وقال بعضهم:

اللفظ المنزل لأن التوراة والإنجيل كلام الله، فالقرآن مُعجزٌ أعجز غيره بدليل أن من حاول إعجاز القرآن أعجزه الله.

مراحل التحدى : مرَّ القرآن الكريم بعدَّة مراحل على ما يأتى :

الأول: تحدَّاهم بالإتيان بمثله فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور٣٣: ٣٤] فهذا أول إعلان عن التحدى فى سورة الطور وهى سورة مكية.

الثانى: تحدى بعشر سور منه فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود:١٣].

الثالث: تحدى بسورة من مثله قال الله تعالى:﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس:٣٨].

الرابع: تحدى بسورة من مثله قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة : ٢٣].

وقوله: ﴿ وَإِن ﴾ تفيد الشك ولم يقل (إذا) لأنهم ليسوا صادقين -أى إن كنتم صادقين وجواب الشرط ﴿ فَأْتُوا۟ ﴾ و﴿ فَلْيَأْتُوا۟ ﴾ دليل.

الجواب : ولم يقل الله تعالى ﴿ فَأْتُوا۟ ﴾ بقرآن لأن التقوُّل جمع أقاويل أى : أساطير وأكاذيب الأولين – كما أن التقول أيضًا معناه الحديث والحديث محل التقول والقيل أما القرآن فليس محل التقول ولا القيل.

وما يقولون يأبى الله تعالى أن يكون قرآنًا ؛ لأنه ليس محلاً للتقول ، ومعنى التقول: هو كلام ليس له حقيقة وهو الأساطير والأكاذيب عندما عجزوا عن التحدى الكلي ومعلوم أن سورة هود مثلاً مكية قبلها تسع سور وهى العاشرة ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ

مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم ﴾ [هود :١٣] .

وقلتم إن الجن يساعده وإن السحرة تعاونه فاجعلوهم يعاونوكم كما كانوا يعاونوه واستعينوا بهم ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ أى كله - ليس هذا فقط - إنما ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ واستعينوا بهم على الإتيان بمثله - لذا سجل التحدى عليهم فقال:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨].

الفرق بين المثل والشبيه فى القرآن :

أتى القرآن بالمثل ولم يأت بالشبيه ، قال فى شأن الجنة : ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة: ٢٥] وفى شأن البقرة ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة : ٧٠] .

والمثلية : هى التطابق بين أفراد الجنس جميعها فى كل مراحل التحدى.. أما التشبيه فهو إلحاق المشبه بالمشبه به لوجهٍ جامع بينهما فتقول: قص القرآن ولا تقول: حكى القرآن لأن الحكاية معناها: التشابه بعد أكثر من استفهام.

أما المشاكلة: فهى اشتقاق شىء من مثله فمادة الإتيان استعملت دون غيرها فلم يقل: احضروا أو تعالوا - والإتيان لا يكون إلا عن ملك تام - والعطاء يكون من بعض الملك.. ونرى من إعجاز القرآن الفرق فى العرض القرآنى بين الزوجة والمرأة فعندما يتدخل عامل العقيدة فى حالة الانفصال العقيدى يأتى لفظ (المرأة) كقول الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ [التحريم:١٠] .

وكقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١] وهو ظاهر فى كونه مثلاً مضروبًا للقرابة ثم يأتى نفس اللفظ (المرأة) فى مقام الاتفاق

العقيدى بشكل وعرض مغاير يفهم من السياق دون لبس كما هو واضح فى قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ [مريم:٥]، وكقوله أيضًا: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران: ٣٥].

وأيضًا: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وهو أسلوب مناسب للبداوة والسمة العامة لحياة المتحدث عنهم - ثم يأتى لفظ: الزوجة والزواج ليتغير مفهوم الخطاب دالاً على الرابط والواقعية والميثاق الغليظ وما يترتب عليه من آثار.

كما فى قول الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله: ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ وأيضًا: ﴿ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ [التحريم: ١: ٣]، و﴿ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم:٥].

وكقوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة:١].

أسباب تكذيب العرب:

كذب العرب القرآن الكريم لأنه سفه أحلامهم وعقائدهم وأصنامهم، ولم يحاولوا الرضوخ فى الإنصات لندائه وتوجيهاته النافعة - وكان أن بذلوا قصارى جهدهم للقضاء على هذا الدين وعلى كل ما يؤيده ويرسخه فادَّعوا تلك الادعاءات:

أولاً: أن الرسالة لم تأت على يد زعيم من قريش وإنما جاءت بدعوى فقير يتيم.. وكان هذا - على زعمهم - مدعاةً للسخرية والاستهزاء بصاحب هذه الرسالة.

ثانيًا: أن صاحب هذه الرسالة إما شاعرًا أو ساحرًا أو كاهنًا وبالأحرى فهو صاحب

مصلحة.. وبما أنه كذلك فى فهمهم واعتقادهم فلا مانع من عرض المصالح عليه فأرسلوا (الوليد بن المغيرة) إليه لهذا الغرض ولم يفلح الوليد ؛ لأن محمدًا ﷺ أثبت لهم بالفعل أنه لم يكن طالب دنيا ولا صاحب مصلحة وإنما هو رسول من عند الله.

ثالثًا: ادعاؤهم بأن هذا القرآن إنما يتلقاه الرسول ﷺ من عند بشر وكذب القرآن هذا الادعاء قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال كذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[فصلت: ٤١، ٤٢].

ولو كانوا صادقين لأتوا بمثله واستراحوا ؛ ولكن هيهات هيهات !!.

وإذا كان البعض يقول: إن التاريخ ذكر الذين آمنوا ولم يذكر الذين عارضوا؟.

فإن الرد عليهم : هو أن التاريخ شاهد عدل فإن عمرو بن العاص لما قابل مسيلمة الكذاب قال له بجلاء: « إنى أعلم أنك تكذب» لأن عمرًا علم بأن القرآن ليس من ملكة العرب أو ليس من المملكة العربية ، وهذا حق فلقد وصف الله ﷻ القرآن بأوصاف ذاتية فقال: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى

بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يوسف: ٩٣].

فالسياق كما فى الآية الأخيرة يدل على معنى الرجوع فكأنه قال: ارجعوا ولكنه عدل عن السياق بقوله: اذهبوا ؛ لأن الرجوع لا تصحبه عودة أما الذهاب فلابد بعده من الرجوع وعليه جرت الأحداث وإذن: فدعاوى العرب – تلك – ليست منطقية ولا عقلية وإنما خاطروا بهذا الكلام حقدًا على الدين – كما سبق – وإلا فلماذا صدقوا أشياء لم يروها بالمعاينة كوصف الرياح مثلاً بأن منها ذكرًا والتى كما قال تعالى واصفًا لها :

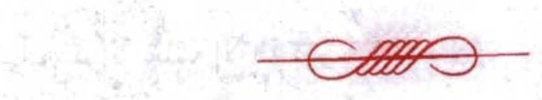
﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢].

واللقاح لا يكون إلا بين جنس مذكر وجنس مؤنث – كما صدقوا بنزول المائدة على بنى إسرائيل مع أنهم لم يروها كما قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٥٧].

وغير ذلك مما رأوه من سنن كونية وتاريخية وطبيعية.

وهكذا تأثر العرب بعظمة القرآن وترك كثير منهم الشعر بعدما تجلت لهم تلك العظمة وضعف شعر حسان بن ثابت بعد أن تمكن القرآن من وجدانه وملك عليه مشاعره ، وهذا هو السر المكنون فى كتاب الله.



الفصل الرابع

روايات منصفة قيلت فى القرآن

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

(جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة ، وجميع السنة شرح للقرآن وجميع القرآن شرح لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا).

وقال سفيان الثورى رحمه الله :

(لا يجتمع فهم القرآن والاشتغال بالحكام فى قلب مؤمن أبدًا).

وقال عبد العزيز بن يحيى رحمه الله :

(مثل القرآن مثل الأسد لا يمكن من غيله سواه).

وقال ذو النون المصرى رحمه الله :

(أبى الله عز وجل إلا أن يحرم قلوب البطالين مكنون حكمة القرآن).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فى قوله تعالى:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] قال: القرآن.. يقول أرشدنا إلى علمه.

وقال الحسن البصرى رحمه الله :

(القرآن ذكر لا يعلمه إلا الذكور من الرجال).

وقال ابن مسعود أيضًا:

(من أراد العلم فليثور القرآن – أى لينقر عنه – فإن فيه علم الأولين والآخرين).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

(لو أردت أن أملي وقر بعير على الفاتحة لفعلت).

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله :

(لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله فى آية من كتابه لأنه كلام الله.. وكلامه صفته وكما أنه ليس لله تعالى نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه.. وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهومٌ مُحدَثةٌ مخلوقة).

وقال أبو هلال العسكرى رحمه الله :

(عجز الخلق عن فهم محاسن القرآن.. وتحيرت عقولهم فيها).

وقال السكاكى رحمه الله :

(إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت ولا يمكن توصيله لغير ذوى الفطرة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والحذق فيهما).

وقال الرمانى رحمه الله :

(إن إعجاز القرآن فى بلاغته التى يتوصل بها إلى المعانى ومنها إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ).

وقال الخطابى رحمه الله :

(لا نرى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا نرى نظمًا أحسن تأليفًا.. وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها.. والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.. وقد توجد هذه الفضائل

متفرقة فى أنواع الكلام.. فإما أن توجد مجموعة فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير الذى أحاط بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددًا).

وقال الأستاذ / مصطفى صادق الرافعى رحمه الله :

(آيات منزلة من حول العرش[1])، فالأرض بها سماء هى منها كواكب، بل هى الجند الإلهى قد نشر له من الفضيلة علم، وانضوت إليه من الأرواح مواكب، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها، وامتنعت عليه أعراف الضمائر فابتز أنفالها، وكم صدوا عن سبيله صدًّا؟ ومن ذا يدفع السيل إذا هدر؟.

واعترضوه بالألسنة ردًّا! ولعمرى: من يرد على الله القدر؟ وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب، وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب، فما كان إلا نور الشمس لا يزال الجاهل يطمع فى سرابه، ثم لا يضع منه قطرة فى سقائه، ويلقى الصبى غطاءه ليخيفه بحجابه ثم لا يزال النور ينبسط على غطائه، وهو القرآن -كما ظنوا- مما انطوى تحت ألسنتهم وانتشر، كل ظن فى الحقيقة آثم، بل كل ظن بالحقيقة كافر، وحسبوه أمرًا هينًا لأنه أنزل فى الأرض على بشر، كما يحسب الأحمق فى هذا السماء أرضًا ذات دواب نورانية.. لأن هلالها كأنما سقط من حافر.

وكم أبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل، وأثاروا من الباطل فى بيضاء ليلها كنهارها ليجعلوا نهارها كالليل، فما كان لهم إلا ما قال الله ﷻ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء:١٨].

لا جرم أن القرآن سر السماء فهو نور الله فى أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود فى دولة الأرض إلى أن تدول، وكذلك تمادى العرب فى طغيانهم يعمهون، وظلت آياته تلقف ما يأفكون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١١٨].

---

(١) إعجاز القرآن مصطفى صادق الرافعى، مكتبة الإيمان، تحقيق عبد الله المنشاوى الطبعة الأولى ص٢٢.

قال القاضي عياض رحمه الله :

(رام ابن المقفع معارضة القرآن.. فسمع صبيًّا يقرأ : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود:٤٤] .

فرجع ومحا ماعمل ، وقال : (أشهد أن هذا الكلام لا يعارض ، وما هو من كلام البشر!) .. وابن المقفع متهم بالمجوسية والزيغ .




الباب الثاني
الجدل والمناظرات

الفصل الأول

معنى الجدل[1]

للجدل معان ومشتقات كثيرة عرفها علماء الأصول والفروع منها:

١- الجدل: هو: (دفع الخصم بحجة أو شبهة).

٢- الجدل: هو: (تحقيق الحق، وتزهيق الباطل).

٣- الجدل: هو: (نظر مشترك بين اثنين).

٤- الجدل: هو: (طلب الحكم بالفكر مع الخصم).

٥- الجدل: هو: (إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على الترافع والتنافى بالعبارة أو ما يقوم مقامها من الإثارة والدلالة)، وهذا ما اختاره الجوينى.

وقد دفع بعضهم بأن المنقطع والمستمر فى محاورة وكلام خصمه يعد مناظرًا لا مجادلاً وإن لم يدفع خصمه بحجة أو شبهة.

وحاول الجوينى افتراض وجود علاقة قائمة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى للفظ «الجدل» فشرع فى توجيه هذا السؤال:

س: إن قيل: ما وجه تنزيل حد العلماء للجدل على معناه فى اللغة؟

وأجاب بقوله: إن قلنا: إنه فى اللغة للإحكام وكل واحد من الخصمين يحاول كشف صحة كلامه لصاحبه وإسقاط كلام صاحبه جملة سميا «متجادلين».

إنه مأخوذ من الفتل كقولهم: حبل جديل فيكون ذلك واقعًا بين طرفى الحبل.. فقيل: يقع بين الخصمين جدال؛ لأن كل واحد يفتل صاحبه عما يعتقده

(١) من مقالات مجلات الأزهر.

إلى ما هو صائر إليه.

وإن قلنا : إنه في اللغة مأخوذ من الضرب بالأرض بالمصارعة يقال: جدلته فانجدل وتجدل إذا ضربته على الجدالة وهى الأرض المطمئنة الصلبة المحكمة.

فيكون كل واحد من الخصمين يروم صاحبه بإسقاط كلامه بتقوية كلام نفسه عليه كالمتصارعين يروم كل إسقاط صاحبه بغلبته وقوته عليه.

الجدل فى اصطلاح الفلاسفة:

هذا وقد تواترت آراء الفلاسفة حول المعنى الاصطلاحى للجدل على ستة آراء:

يقول الفارابى : «صناعة الجدل: هى الصناعة التى بها يحصل الإنسان القوة على أن يعمل من مقدمات مشهورة قياسًا فى إبطال وضعٍ موضوعُهُ كلى».

ويقول ابن رشد: «هذه الصناعة هى بالجملة الصناعة التى نقدر بها إذا – كنا سائلين – أن نعمل من مقدمات مشهورة قياسًا على إبطال كل وضع يتضمن المجيب حفظه – وعلى حفظ كل وضع كلى يروم السائل إبطاله إذا كنا مجيبين» ويفسر ابن رشد هذا التعريف بقوله: ولذا كان اسم الجدل عند الجمهور إنما يدل على مخاطبة بين اثنين يقصد كل واحد منهما غلبة صاحبه بأى نوع اتفق من الأقاويل.

ويقول الجرجانى: «الجدل هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلَّمات والغرض من إلزام الخصم وإقحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان».

كما يقول فى رأى آخر: «الجدل هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة..أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة فى الحقيقة، أما الجدال: فهو عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها».

ويقول أبو البقاء: «الجدل هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن قوله بحجة أو شبهة وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره والنظر قد يتم به وحده».

ويقول ابن سينا: «أما المجادلة فهى مخالفة تبغى إلزام الخصم بطريق مقبول محمود عند الجمهور».

ويقول الباجى: «الجدل هو تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه».

المجادلة :

مفاعلة من الجدل وإن كان فى عرف النظار الجدل والجدال لا يكون إلا بين اثنين كالمجادلة وهو من الإحكام فى اللغة يقال: درع مجدول، وحبل فتيل جديل، وزمام إذا كان مستحكم الفتل والنسج ويقال أيضًا: قصر مجدل إذا كان حصينًا بناؤه.



الفصل الثانى

مشتقات اللفظ (جدَل)

بالبحث فى كتاب القاموس المحيط للفيروزابادى[1] المجلد الثالث بصفحة – ٥٠٨ – وجدت الآتى:

جدله: يجدله أحكم فتله.. والجديل: الزمام المجدل من أدم وحبل من أدم أو شعر فى عنق البعير والوشاح، والجدل: الذكر الشديد وقصب اليدين والرجلين وكل عضو وكل عظم موفر لا يكسر ولا يخلط به غيره ويجمع على أجدال وجدول ورجل مجدول: لطيف القصب محكم الفتل، وساعد أجدل وساق مجدولة وجدلاء: حسنة الطىّ ومن الدروع المحكمة وجمعه: جُدُل بالضم.. وجدل ولد الظبية وغيرها: قوى وتبع أمه. والأجدل: الصقر.. كالأجدلى: جمعه أجادل وفرس أبى ذر رضي الله عنه وفرس الجلاس الكندى وفرس مشجعة الجدلى وكمنبر القصر وجمعه مجادل وكسحابة الأرض أو ذات رمل رقيق، والبلح إذا اخضر واستدار قبل أن يشتد، والنمل الصغار ذات القوائم.

وجدل: الحب فى السنبل: وقع.. وجَدَلَه وجدَّله: فانجدل وتجدل صرعه على الجدالة. وجَدَلَ جدولاً فهو جَدِل: كَكَتِف وعَدّل صَلُبَ، والجدل: محركة اللدد فى الخصومة والقدرة عليها.. جادله فهو جدل ومجدل كمنبر ومحراب وكمقعد الجماعة منا، والجديلة: القبيلة والشاكلة والناحية وشريجة الحمام ونحوها وصاحبها.. جَدَّال: الحال والطريقة وشبه إتّب من أدم يأتزر به الصبيان والحيّض – وجديلة بنت سبيع بن عمرو من حمير أم حىٍّ والنسبة: جَدَلِىٌّ، وكغراب بالموصل.. ومجادل بالخابور والجدول: كجعفر وخروع النهر الصغير، وجدلاء: كلبة ومن

---

(١) القاموس المحيط للفيروزابادى ... ج٣ دار إحياء التراث العربى ... بيروت لبنان ص٥٠٨.

الشاه المتثنية الأذن، وشِقشِقة جدلاء: مائلة.

والجدلة: مدقة المهراس، والجدل: القبر وذهب على جدلائه: على وجهه وناحيته وكأمير فحل للنعمان بن المنذر. وأجدلت الظبية مشى معها ولدها.. انتهى..

وفى الجدال إشارة إلى القوة الوهمية التى تحمل الإنسان على الجدال فى كل شىء وقد يصل به الحال إلى الجدال فى ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وأحكامه وأسمائه وهى الباعثة للإنسان على منازعة الناس ومماراتهم والمخاصمة معهم فى كل شىء، وطبيعى أن يسهم هذا فى المماحكات العلمية المخلوطة بالجد والهزل والتعصب وقد عاب فريق من الناس الاستدلال والبحث والنظر والجدال واحتج هذا الفريق بوجوه:

أحدها: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٩٧].

وهذا يقتضى نفى جميع أنواع الجدال.. ولو كان الجدال فى الدين طاعة وسبيلاً إلى معرفة الله تعالى لما نهى عنه فى الحج وهو ركن ثابت من أركان الإسلام.. بل على ذلك التقدير كان الاشتغال بالجدال فى الحج ضم طاعة إلى طاعة فكان أولى بالترغيب فيه.

وثانيها: قول الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف:٥٨] عابهم بكونهم من أهل الجدل وذلك يدل على أن الجدل مذموم.

ثالثها: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦] ففيها نهى عن المنازعة.

ولكن جمهور المتكلمين ردوا على هذا بقولهم: إن الجدال فى الدين طاعة عظيمة واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ

وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

وبقوله تعالى حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود:٣٢] ومعلوم أنه ما كان ذلك الجدال إلا لتقرير أصول الدين.

وللتوفيق بين هذه النصوص:

نقول: بحمل الجدل المذموم على الجدل في تقرير الباطل وطلب المال والجاه.. والجدل المحمود على الجدل في تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله.. والذبِّ عن دين الله تعالى وفي هذا حسم للخلاف.. وبداهة فإن النصوص يتقرر بها فهم المسائل الجوهرية والمتعلقة بدوافع مختلفة كلٌّ لمعرفة مراده.



الفصل الثالث

هل المناظرات من الجدل؟[1]

الواقع أن بين الجدل والمناظرة عموم وخصوص.. فهما يتفقان من جهة كونهما يرسلان سهام الاحتجاج ودحض آراء الخصوم عندما ينشب خلاف فكرى أو عقلى بين العلماء.. كما أنهما يقطعان طريق اللجاجة من جهة الخصوم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة.

ويختلفان من حيث إن الجدل هو محاولة السعى لإدراك حقيقة من الحقائق وإعمال الفكر الفلسفى والكونى وبلورة ذلك فى نقول الصور والأخيلة ويزداد ذلك بازدياد المدنية والحضارة وبروز المسائل الخلافية التى تتولد منها الخلافات المذهبية فلسفية كانت أو دينية.. أما المناظرة فإنه يراد بها تحديد أهداف وقواعد وآراء للجدل وتنظيم أدبيات البحث من حيث الاعتراض وعدمه ومتى يجب الكلام والسكوت.. ومن هنا فقد عنى علماء الإسلام بالجدل والمناظرة عناية شديدة من يوم أن نشأت الخلافات بين علماء الأمة حتى انتهت عنايتهم بوضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة لكى يكونا فى دائرة المنطق والفكر المستقيم وأسموا ذلك «علم الجدل» أو علم أدب البحث والمناظرة كما أشار إلى ذلك ابن خلدون فى مقدمته بقوله:

(وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم.. فإنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعًا وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ومنه ما يكون صوابًا ، ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا أحكامًا وآدابًا يقف عندها وعند حدودها المتناظران فى الرد والقبول

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ج١، ٢ دار الرَّيَّان. بتصرف .

وكيف كان حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ أن يكون مستدلاً ، وكيف يكون مخصوصًا منقطعًا ، ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ؛ ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل بها إلى حفظ رأى أو هدمه سواء كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره وأول من كتب فيه البزدوى والعميدى).

انتجاهات مختلفة

الاختلاف بين الناس قديم قدم الإنسان[1] فى هذه الأرض ونشأ عندما أخذ الإنسان ينظر إلى عظمة وتماسك هذا الكون المشيد البديع فأخذته الدهشة والحيرة فى إدراك كنه الكون وحقيقته وما أبدعه الله فيه ، وإذا كان العلماء يقولون: إن الإنسان من يوم نشأته أخذ ينظر نظرات فلسفية إلى الكون فلابد من القول:

إن الصور والأخيلة التى تثيرها تلك النظرات تختلف فى بنى الإنسان باختلاف ما وقعت عليه أنظارهم وما أثار إعجابهم وكلما خطا الإنسان خطوات فى سبيل التقدم المدنى والحضارى اتسعت فرجات الخلاف حتى تولد من هذا الاختلاف المذاهب الفلسفية والديانات غير المنزلة.

وترجع أسباب الخلاف إلى حقائق منها:

ذات الموضوع.. محل النزاع.. الاختلاف.. تباين الأمزجة.. اختلاف الاتجاه.. التقليد والمحاكاة.. عدم اتفاق المدارك.. حب الرياسة.. الأوهام.. التعصب..

ذات الموضوع :

لقد تصدى الفلاسفة من قديم الزمان لدراسة موضوعات غامضة فى ذاتها لم تكن بالطبع معبدة الطرق ، فكل يهتدى إلى ما يميل إليه ويهواه وما تقع عليه عيناه وما يحقق له

---

(١) القرآن والمنهج العلمى المعاصر، عبد الحليم الجندى، دار المعارف.

هدفه ، وفى هذا المقام قال أفلاطون: إن الحق لم يصبه الناس من كل وجوهه ، ولا أخطئوه فى كل وجوهه ، بل أصاب كل إنسان جهة .

ومثال ذلك : عميان انطلقوا إلى فيل، وأخذ كل منهم جارحة منه فجسها بيده ومثلها فى نفسه فأخبر الذى مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة ، وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة .

وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك وكل يكذب صاحبه ويدعى عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلقة الفيل ، فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم.

وإنه أيضًا من الموضوعات التى يسبب غموضها الاختلاف «حقيقة النفس» و«حقيقة المنشئ للكون فى فترة من الرسل» و «مسألة صفات الله سبحانه وتعالى».

محل النزاع :

كثيرًا ما يختلف المتجادلان ويشتد بينهما الخلاف لأن موضوع النزاع غير معين.

وكان سقراط يقول: إذا عرف موضوع النزاع بطل كل خلاف ؛ وذلك لأن كلا المتناظرين المختلفين فى طلب الحقيقة يقع نظره على ما لا يقع عليه نظر الآخر ويبنى حكمه على ما وقع عليه نظره فكأنه فى الحقيقة لم يتلاق مع خصمه فى موضوع وذلك كما إذا رأى أحد الناظرين وجهًا لقرطاس فحكم بما رأى .

ورأى الآخر وجهًا آخر فحكم بما رآه ، وكذلك كان سقراط يعنى كل العناية بدلالات الألفاظ ليفهم كلا الخصمين كلام الآخر فيتلاقيا فى نقطة واحدة وعندئذ ينحسم الخلاف».

الاختلاف :

قال اسبينوزا : إن الرغبة هى التى ترينا الأشياء مليحة لا بصيرتنا وإذا كانت الرغبة

تستولى على مقياس الحسن والقبح على النفس ذلك الاستيلاء كما قال ذلك الحكيم، ورغبات النفس مختلفة متضاربة فلابد إذن من أن يختلفوا باختلافها وتباين آراؤهم لتباين رغباتهم.

تباين الأمزجة:

قال ويليام جيمس: «إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية.. وهذا الاختلاف بين الأمزجة له أيضًا شأنه فى ميدان الأدب والفن والحكومة..» .

وذلك قول حق فإن كثيرًا من اختلاف الآراء سببه اختلاف أمزجة القائلين لها، فذو المزاج العصبى الحاد يرى مالا يراه الورع الهادئ، وإذا كانت الأحوال العارضة للإنسان من هدوء أو غضب واستقرار واضطراب تجعل آراءه مختلفة باختلافها فلابد أن يعتقد أن اختلاف شخصين فى المزاج داع لكثير من اختلافهما فيما يذهبان إليه من آراء.

اختلاف الاتجاه:

القياسات مختلفة الأنواع.. كثيرة الفنون.. كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها مثال ذلك:

أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء، ولا قياس المنجمين يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين، وهكذا قياس المنطقيين فى الرياضيات لا تشبه قياسات الجدليين، ولا تشبه قياساتهم فى الطبيعيات ولا الإلهيات، وإذا كان لكل علم أقيسة خاصة به فمن غلبت عليه أقيسة علم إذا بحث فى موضوع مع صاحب علم آخر يختلف نظراهما، وكل ينبعث فى تفكيره روح علمه، واعتبر ذلك بالخلاف بين المعتزلة والفقهاء والمحدثين فى مسألة خلق القرآن فإن الاختلاف بينهما كان سببه اختلاف مناهج البحث أو بين عقليتين مختلفتين، إحداهما تستنبط القواعد من الآثار كما تستنبط الأحكام العملية، والأخرى تسير وراء العقل مهتدية به، كما أنها تندفع فى تياره.

التقليد والمحاكاة :

كثيرًا ما حكى القرآن الكريم عن المشركين تقليد آبائهم ونعى عليهم إهمال العقل فى مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ولا تزال نزعة تقليد السابقين فى نفوس الناس وإن كانوا يتفاوتون فيها قوة وضعفًا وإن سلطان الأفكار التى أكسبتها الأجيال قداسة يسيطر على القلوب فيدفع العقول إلى وضع أقيسة وبراهين لبيان حسنها وقبح غيرها ، وطبيعى أن يدفع ذلك إلى الاختلاف والمشاحنة والمجادلة غير المنتجة ؛ لأن كلاً يناقش وهو مغلول بقيود الأسلاف من حيث لا تشعر ولو فكت قيود المتناظرين للاح لهما وضح الحق المبين وأشد ما يكون الاختلاف بسبب التقليد فى المسائل الاجتماعية.

عدم اتفاق المدارك :

منح الله بعض الناس عقلاً راجحًا وبصيرة نافذة وفكرًا ثاقبًا يدرك الموضوع من كل نواحيه ، ويلم بظواهره وخوافيه ، وأعجازه وقوافيه ، وبعضهم فيه قصور نظر ، فلا يستطيع إحاطة الموضوع بنظرة شاملة وفى فكره قصور ، فلا يدأب فى البحث عن الحقيقة إلى النهاية ولابد أن تختلف النتائج التى يحصل عليها من كان على هذه الشاكلة عن الآخر الذى يحصل على نتائج معاكسة .

وقد جاء فى رسائل إخوان الصفا: إنك تجد كثيرًا من الناس يكون جيد التخيل ، دقيق التمييز سريع التصور - ذَكُورًا - ومنهم من يكون بليدًا بطيء الذهن أعمى القلب ، ساهى النفس، فهذا أيضًا بعض أسباب اختلاف العلماء فى الآراء والمذاهب لأنه إذا اختلفت

إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك.

حب الرِّياسة :

كثيرًا ما يدفع الغرض ذا السلطان إلى الأخذ بآراء ساقته إليها رغبة ملحة جامحة ويحمل كثيرًا من العلماء الذين جعلوا قلوبهم سلعة تباع بثمن بخس على المناداة بها والمجادلة لنشرها، وقد يندفع هؤلاء فى دعوتهم حتى يخيل إليهم أنهم مخلصون فيما يدعون إليه أو أنه محض الحق والصواب وينبرى للرد عليهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فندبوا أنفسهم للزود عن الحقيقة وحفظ ذمارها ، فتكون بين الفريقين نار مشبوبة وربما يكون من وراء ذلك فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**أخوف ما أخاف على أمتى رجل منافق عليم اللسان ، غير حكيم القلب ، يغيرهم بفصاحته وبيانه ، ويضلهم بجهله وقلة معرفته**»[1].

الأوهام :

تستولى على كثير من الناس أوهام تجعلهم يسلمون بأفكار غريبة فى ذاتها وهم باعتناقهم لها يخالفون من لم يقعوا تحت تأثير أوهامهم.. وليست تلك الأوهام مقصورة على العوام بل إنها قد تكون فى أشد أحوالها عند بعض خواص العلماء.

ولقد قال بعض الحكماء الأوربيين: إن خيرة العلماء ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون إزاء حوادث السحر.. وما ذلك إلا لسلطان الأوهام.

التعصب :

إذا تغلبت على الإنسان فكرة فتجتاز عقله وتسيطر عليه وتمنعه من أن تصل إليه فكرة تناقضها ، أو خاطرة تنازعها تهتاج أعصابه ويثورثورته إن هوجم فيها ، ومنشأ هذا

---

(١) صحيح : رواه أحمد(١٤٣)، ورواه صاحب كنز العمال (٢٨٩٦٩) ، انظر : صحيح الجامع رقم (٢٣٩) ولفظة : [إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان] .

التعصب الثائر إما قوة الإيمان بالفكرة ، أو أعصاب ضعيفة تمنع من إدراك ما لم يثب إليه أولاً ، أو غرور وخيلاء ، وحيثما كان التعصب لزمته المجادلة أو المكابرة.

وقد يخفى على الإنسان موضع التعصب فى نفسه ، فيحسب أنه مخلص فى طلب الحق.. وهو منطوٍ على عصبية تدفعه.. وقد تبين له الحقيقة إذا راقب نفسه وحاسبها حسابًا عسيرًا.

محاور الجدل :

من المعلوم أن القرآن العظيم قد اشتمل على براهين وأدلة مختلفة وما من برهان أو دلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به.. لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

الأول: بسبب ما قاله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٤].

الثانى : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام.. فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزًا فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء.

وعلى هذا حمل الحديث المروى : « إن لكل آية ظهرًا وبطنًا ولكل حرف حدًّا ومطلعًا »[1] . لا على ما ذهب إليه الباطنية ، ومن هذا الوجه كل من كان حظه فى العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر ؛ ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أولى العقل ، ومرة إلى السامعين ، ومرة إلى المفكرين ومرة إلى المتذكرين تنبيهًا أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقته منها.

---

(١) ضعيف : انظر ضعيف الجامع حديث رقم (١٣٣٨) .

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾[الرعد:٤].

واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط كل البراهين العقلية على طريق المتكلمين.. فمن ذلك الاستدلال على حدوث العالم بتغير الصفات عليه وانتقاله من حال إلى حال وهو آية الحدوث وقد ذكر الله تعالى فى احتجاج إبراهيم الخليل عليه السلام استدلاله بحدوث الأقل على وجود المحدث والحكم على السموات والأرض بحكم النيرات الثلاث وهو الحدوث طردًا للدليل فى كل ما هو مدلوله لتساويها فى علة الحدوث وهى الجسمانية..

ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد بدلالة التمانع المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]؛ لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام.. ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق أو لاجتماع الضدّين إن فرض الاختلاف، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه والإله لا يكون عاجزًا.

وقال ابن أبى الإصبع:

زعم الجاحظ أن المذهب الكلامى لا يوجد منه شىء فى القرآن وهو مشحون وتعريفه أنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام.. ومنه نوع منطقى تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة فإن الإسلاميين من أهل هذا العلم ذكروا من أول سورة الحج إلى قوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾[الحج:٧]..

خمس نتائج من عشر مقدمات هى :

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ [الحج:٦] ؛ لأنه قد ثبت عندنا أنه تعالى أخبر بزلزلة الساعة معظمًا لها وذلك مقطوع بصحته ؛ لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته ، منقول إلينا بالتواتر فهو حق ، ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق فالله هو الحق.

وأخبر تعالى أنه يحيى الموتى ؛ لأنه أخبر عن أحوال الساعة بما أخبر وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التى يعملها الله من أجلهم ، وقد ثبت أنه قادر على كل شيء.

ومن الأشياء إحياء الموتى فهو يحى الموتى وأخبر أنه على كل شيء قدير ؛ لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير ، ولا يقدر على ذلك إلا من كان هو على كل شيء قدير فهو على كل شيء قدير.

وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قوله: ﴿ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [الحج:٥].

وضرب لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التى ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ثم يعيده بالبعث وأوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ثم أماتها بالمَحْل ، ثم أحياها بالخصب وصدق خبره فى ذلك كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب حتى انقلب الخبر عيانًا، صدق خبره فى الإتيان بالساعة ، ولا يأتى بالساعة إلا من يبعث من فى القبور ؛ لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة ، فهى آتية لا ريب فيها وهو سبحانه وتعالى يبعث من فى القبور.

وقد دلل سبحانه وتعالى على المعاد الجسماني بضروب[1]:

أحدها: قياس الإعادة على الابتداء قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال أيضًا: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ ﴾ [ق: ١٥].

ثانيها: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى نحو: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾ [يس: ٨١].

ونحو: قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧].

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات وهو في كل موضوع ذكر فيه إنزال المطر غالبًا نحو:

﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم: ١٩].

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر، وقد ورد أن أبي بن خلف لما جاء بعظام بالية ففتها وذرّها في الهواء، وقال: يا محمد من يحي العظام وهي رميم!.

فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس: ٧٩] فعلم سبحانه كيفية الاستدلال برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث ثم زاد في الحجاج بقوله:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ [يس: ٨٠].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن _ السيوطي ج ٣ ص ٥٣ - ٥٤.

وهذا فى غاية البيان فى رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما.

خامسها: فى قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النحل ٣٨: ٣٩].

وتقريرها كما قال ابن السيد عبد الله البطليوسى «المتوفى ٥٢١ هـ»:

إن اختلاف المختلفين فى الحق لا يوجب انقلاب الحق فى نفسه وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق فى نفسه واحد، فلما ثبت أن هنا حقيقة موجودة لا محالة، وكان لا سبيل لنا فى حياتنا هذه الوقوف عليها وقوفًا يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف المركوز فى فِطَرِنا وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة، ونقلها إلى جبلة غيرها صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة، فيها يرتفع الخلاف والعناد وهذه هى الحال التى وعد الله بالمصير إليها فقال:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر:٤٧]..

ولابد من كون ذلك باضطرار إذ كان جواز الخلاف يقتضى الائتلاف ؛ لأنه نوع من المضاف وكان لابد من حقيقته فقد صار الخلاف الموجود كما نرى أوضح دليل على كون البعث الذى ينكره المنكرون.

أركان الجدل :

هذا وللجدل أركان وثوابت نجملها فى ما يأتى:

١ - اختلاف الجدل باختلاف الزمان والمكان.

٢ - اختلاف درجات الجدل والجدال والمجادل.

٣ - وجود قضية ما بين طرفين مختلفين.

فالأول: اختلاف الجدل باختلاف الزمان والمكان:

فإن للجدل مراحل زمنية مختلفة يزداد فى بعضها ويقل فى بعضها الآخر.. ويزكو فى بعض أوقاتها ويخبو فى بعضها الآخر ويعود ذلك فى الغالب إلى دوافع معينة سياسية كانت أو فقهية أو فكرية.. ويكون مسرح الأحداث آنئذ هو قطر معين أو جهة معينة وغالبًا ما يتصل هذا الجدل بأمر فاشٍ بين الناس أو اعتقاد سائد لفكرة ما ومحاولة الانتصار لها.

والثانى: اختلاف درجات الجدل والجدال والمجادل:

وكثيرًا ما تتفاوت درجات المتجادلين فى فحوىٰ القضية محل الجدل، فيظهر نبوغ المتخصص ويقوىٰ على المحاجة بإظهار البراهين والحجج، بينما يضعف أداء المتصايحين والمغفلين وأصحاب النبرات العالية مما يجعلهم يخرجون عن مضمون القضية.. وطبيعى أن إيجابيات جماعة تظهر سلبيات جماعة أخرى والعكس.

والثالث: وجود قضية ما بين طرفين مختلفين:

وهى عادة ما تكون «قضايا الساعة» والتى تشغل الأذهان، وتجذب الانتباه. وقد شهد الجدل أطوارًا وأدوارًا حبست فيها الأنفاس حينًا، وتُنفس فيها الصعداء حينًا آخر، ولا ريب أن الحد الفاصل لتغيير المواقف وإعادة النظر فى الأمور الملحة ذات الأهمية هو إقامة الحجج الدامغة حتى يذعن طرف لطرف.



الفصل الرابع

سبب الخلاف عند الغزالى [(١)]

حينما تولى الخلفاء الراشدون الخلافة بعد رسول الله ﷺ ووضعوا أمام أعينهم خطة المرحلة الجديدة لبث الدعوة وتوجيه الأمة لم يحيدوا عن المنهج النبوى قيد أنملة فالتزموا بالفقه وأحكامه واستقلوا بالفتاوىٰ والأقضية ونادرًا ما كانوا يستعينون بالفقهاء فى أمور معينة لا يستغنىٰ فيها عن المشاورة.

فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم.

وكان من علماء الدين من استمر على ملازمة الدين والمواظبة على سمت أهل السلف فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأى الناس عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشرأبوا لطلب العلم توصلاً إلى إدراك المال والجاه من قبل الولاة فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وطلبوا الولايات والصلات منهم.

فمنهم من حرم ومنهم من أحل وسقطوا فى فخ المهانة والابتذال وألحُّوا فى طلب الدنيا فذلوا بعد عزة وأهينوا بعد تكريم، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع

---

(١) إحياء علوم الدين – المصدر السابق ج١ – الريان ص٥٥.

مقالات الناس فى قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فامتلأت الأجواء بالرغبة فى المناظرة والمجادلة فى الكلام فأكثر الناس فى التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات.

ثم ظهر بعد ذلك من لم يستصوب الخوض فى الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما ترتب عليه من الخصومات والمنازعات فمالت أنفسهم إلى المناظرة فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضي الله عنهما على وجه الخصوص فانشغل الناس على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله وزعموا أن غرضهم هو استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى وأكثروا فيها من التصانيف والاستنباط ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه إلى الآن وهذا هو الباعث لهم على طلب الخلاف والمناظرات وساقوا فى ذلك العلل والحجج بل واضطر بعضهم لعداء غيره.

وما زال هذا سائدًا حتى الآن بين كثير من العلماء ولو أنهم احتكموا إلى الكتاب والسنة والتمسوا منها الشرح والأحكام لكان أجدى وأنفع ولعمت الفائدة واختصر الزمن وقضيت الحاجات .



الفصل الخامس

صور من المناظرات (الجدلية)

المناظرات علم له آدابه وقواعده[1] وكتبه المختلفة منذ كان البرهان دليلاً على العقيدة وسبيلاً لإثبات الحقيقة فى كل أمر من الأمور ، وتعاظم شأن هذا العلم بإقبال المتناظرين الأكفاء واحترام الناس لهم والإفادة من علمهم وكانت المناظرات تدور بين المتكلمين وأهل السنة وبين أهل الظاهر وغيرهم والشافعية والحنفية أفراس رهان فى مجالس النظر بمثل ما كان الأدباء والشعراء ، ثم أصبحوا وأمثالهم يعمرون مجالس الأمراء والكبراء وعن هذه المجالس آل إلينا تراث فقهى وأدبى وعلمى عظيم.

لقد بدأ المأمون من أول القرن الثالث بعقد المجالس فى حضرته وأعقبه الواثق بن المعتصم ، ثم أمسى ذلك تقليدًا لدى الكبراء فرأينا الخليفة المسترشد يجلس فى مناظرات الأشاعرة سنة ٥١٦ هـ بعد موت الغزالى بإحدى عشرة سنة وحتى الآن تعقد مجالس المناظرة فى المجتمع الإسلامى وإن خفتت أصوات المتناظرين فى بعض العصور.

والمناظرة مدارسة وممارسة وطلب العلم فريضة فى المجتمع الإسلامى فهو مجتمع علمى إذا التزم قانونه ، والاقتدار فى الجدل من تراث الشافعى وقد سلم له الجميع بذلك ففيه يقول الإمام أحمد بن حنبل: «كانت أقضيتنا فى أيدى أصحاب أبى حنيفة ما ننزع حتى رأينا الشافعى.

وكان أفقه الناس فى كتاب الله وسنة رسوله ، وكان إسحاق بن راهويه – إمام خراسان – يطلق على الشافعى (خطيب العلماء) قال لداود إمام أهل الظاهر: (ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعى بمكة فسألته عن أشياء فوجدته فصيحًا حسن الأدب فلما

---

(١) القرآن والمنهج العلمى المعاصر، عبد الحليم الجندى، المصدر السابق ص١٢٤ .

فارقناه أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم أهل زمانه بالقرآن وأنه قد أوتي فيه فهمًا فلو كنت عرفته للزمته).

قال داود: (ورأيته يتأسف على ما قد فاته منه) وأصبح من المألوف للمتفقهة أن يشهدوا مجالس المناظرات بين الحنفية المشهورين (بأصحاب الرأى) وبين الشافعية وهم علماء الأصول لكن الزمان تغير فساء فهم الناس للجدل فصار حرفة تراود نفس بعض أصحاب شهوة الظهور.

فكان الغزالى يقول: (إنه ما دفع العلماء إلى الجدل إلا اتباع شهوة الأمراء وإن كانوا يلبِّسون على أنفسهم ويخدعونها بأن غرضهم عرض ما يوافق الشرع وتمهيد أصول الفتاوى وتقريب علل الأحكام).

واهتم المتناظرون بفنون الجدال: كالذى يستدل بعامٍّ فإذا استدل خصمه بالعامِّ قال له: (دلالة العام ظنية ولا يعمل بها حتى نبحث عن مخصص لأن كل عام يدخله التخصيص) وكالذى يستدل بقضية عين لا عموم لها وكالذى يستدل بحديث للرسول ﷺ فإذا استدل خصمه بحديث قال له: يحتمل أنها خصوصية وما تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال..

ولقد توارد إلينا هذا المثل العظيم من مناظرة الشافعى مع محمد بن الحسن فى أواخر القرن الثانى للهجرة وفيما يلي أمثال تدل على استمرار المناظرات فى مستوى عظيم يستفيد به العلماء والمتعلمون وإن ضاق صدر الغزالى بالمناظرات فى ذلك العصر..

فالشافعية والمالكية والحنابلة يذهبون إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر والحنفية يرون أنه يقتل به ولكل رأى سنده من المنقول والمعقول وقد أورد المناظرة أبو بكر بن العربى[1] فى تفسيره (أحكام القرآن) قال: ورد علينا بالمسجد الأقصىٰ (بيت المقدس) سنة سبع وثمانين

---

(١) أحكام القرآن – لابن العربى ٤٦٨ هـ – ٥٤٣ هـ – عيسى البابى الحلبى.

وأربعمائة فقيه من عظماء أصحاب أبي حنيفة يعرف بالزوزني ، وشهد علماء البلد فسئل عن قتل المسلم بالكافر فقال: يقتل به قصاصًا فطلب بالدليل فقال: الدليل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨] .

وهذا عام فى كل قتيل.. فانتدب معه فى الكلام فقيه الشافعية عطاء المقدسى وقال: ما استدل به الإمام لا حجة له من ثلاثة وجوه:

الأول: أن الله تعالى قال: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ فشرط المساواة فى المجازاة ولا مساواة بين المسلم والكافر فإن الكفر حط منزلته ووضع مرتبته.

الثانى: أن الله سبحانه ربط آخر الآية بأولها وجعل بيانها عند تمامها فقال: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ ﴾ فإذا نقص العبد عن الحر بالرق.. فأحرى وأولى أن ينقص عنه الكافر..

الثالث: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٌ ﴾ ولا مؤاخاة بين المسلم والكافر فدل على عدم دخوله فى هذا القول.

فقال الزوزنى : دليلى صحيح[1] وما اعترضت به لا يلزمنى منه شيء أما قولك: إن الله تعالى شرط المساواة فى المجازاة فكذلك أقول، وأما دعواك أن المساواة بين الكافر والمسلم فى القصاص معدومة فغير صحيح فإنهما متساويان فى الحرمة التى تكفى فى القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد وإن الذمى محقون الدم والمسلم محقون الدم وكلاهما فى دار الإسلام.. والذى يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمى وهذا يدل على أن مال الذمى قد ساوى مال المسلم فدل على مساواته لدمه إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه.

وأما قولك: إن الله ربط آخر الآية بأولها فغير مسلّم فإن أول الآية عام وآخرها خاص

---

(١) القرآن والمنهج العلمى المعاصر، عبد الحليم الجندى ص ١٢٦ وما بعدها.

وخصوص آخرها لا يمنع من عموم أولها بل يجرى كلٌ حكمه من عموم وخصوص.

وأما قولك: إن الحر لا يقتل بالعبد فلا أسلمه بل يقتل به قصاصًا فتعلقت بدعوى لا تصح لك.

وأما قولك: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ ﴾ يعنى المسلم فكذلك أقول ولكن هذا خصوص فى العفو فلا يمنع من عموم القصاص.

ويرجع رأى الجمهور فى عدم مساواة المسلم بالكافر أن الله يجعل الكافر مجعل الدابة كما وردت بذلك الآية فى [الأنفال:٥٥] :﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾، والله يقول كذلك فى [التوبة:٢٨] : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ .

فالمسلم والكافر لا يتساويان.. والمسألة خلافية كما هو ظاهر.. ومن قبل ذلك رأى أبو سعيد البرادعى ت (٣١٧) وهو حنفى من المعتزلة مناظرًا من الحنفية ضعف بين يدى داود بن على فانتصر أبو سعيد للحنفى فسأل داود عن بيع أمهات الأولاد فقال: يجوز لأننا أجمعنا على جواز بيعهن قبل علوق الجنين فلا يزول هذا الإجماع إلا بإجماع مثله..

قال أبو سعيد : أجمعنا بعد العلوق وقبل الوضع أنه لا يجوز بيعها فيجب أن نتمسك بهذا الإجماع ولا نزول عنه إلا بإجماع مثله.. ومن قبلهم كان المأمون ت (٢١٨) نظارًا جدِلاً ولقد عين (عليًّا الرضى إمام الشيعة) وليًّا لعهده ومع ذلك جلس يناظره فى حق جده علي ابن أبى طالب فى الخلافة دون غيره.. قال المأمون: بم تدعون هذا الأمر؟ قال الإمام: بقرابة علي ابن أبى طالب من النبى وبقرابة فاطمة رضي الله عنها .

قال المأمون : إن لم يكن ههنا إلا القرابة ففى القرابة مثله - يقصد - العباس عم النبى وابنه عبد الله جدى المأمون وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ فإن الحق للحسن وليس لعلى فى هذا حق وهما حيان.. وإذا كان الأمر كذلك فقد ابتزهما وهما حيان واستولى

على ما يجب له.

ومن بعد المأمون خرج أبو الحسن الأشعرى على المعتزلة فجلس يومًا يناظر زعيمهم (أبا علي الجبائى) ٣٠٣ هـ = ٩١٥م فى مبدأ المعتزلة أن العدل واجب على الله تعالى فسأله عن ثلاثة إخوة: الأكبر مؤمن زاهد والأوسط كافر فاسق والأصغر صغير لم يبلغ الحلم..

قال الجبائى: أما الزاهد ففى الدرجات وأما الكافر ففى الدركات لأن ثواب المطيع وعقاب العاصى واجبان على الله.. وأما الصغير فلا يثاب ولا يعاقب فهو من أهل السلامة قال الأشعرى: إن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر فى الجنة؟ قال الجبائى: يقول الله تعالى له: الدرجات ثمرة الطاعات..

قال الأشعرى: فإن قال الصغير: ليس منى النقص والتقصير فإنك إن أبقيتنى إلى أن أكبر لأطعتك ودخلت الجنة..

قال الجبائى: يقول البارى تعالى: قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت العذاب المقيم فى الجحيم فإن الأصلح لك أن تموت صغيرًا..

قال الأشعرى: إن قال العاصى المقيم فى العذاب الأليم مناديًا من بين دركات النار وأطباق الجحيم: يا إله العالمين ويا أرحم الراحمين لم راعيت مصلحة أخى دونى وأنت تعلم أن الأصلح لى أن أموت صغيرًا ولا أصير فى السعير أسيرًا فبماذا يقول الرب؟ فبهت الجبائى فى الحال وانقطع الجدال..

ولم يشتهر علماء المالكية والحنابلة بالجدل وإن كان أبو الوليد الباجى ت (٤٩٤) مجادلاً فى الذروة يقول عنه ابن حزم: ولو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى إلا مثل أبى الوليد الباجى لكفاهم وابن حزم علامة عصره طالت المناظرة بينه وبين الباجى ثلاثة أيام قال الباجى فى نهايتها: أعذرنى فقد طلبت العلم على مصابيح الشوارع..

وأجاب ابن حزم: (أنا أبلغ منك عذرًا فقد طلبت العلم على قناديل من الذهب

والفضة).

هذا وبقى الحنابلة يزورُّون عن الجدل حتى جاء منهم ابن تيمية الذى لم يثبت لجداله أحد وكان معارضوه يلوذون منه بالسلطان!!.

ويخلص لنا مما سلف هذه الأمور:

١- أن النزاهة العلمية فريضة دينية سواء فى تحصيل العلم أو فى تعليمه أو المناظرة فيه.

٢- وجوب استقراء المشاهدات والجزئيات والاستنباط المصاحب للاستقراء مع التثبت وبذل الجهد.

٣- نسبية النتائج فيما لم يحط فيه الاستقراء بجميع الجزئيات وقطعية النتائج فيما أحيط فيه بجميع الجزئيات.

٤- البدء فى النظر إلى المواضيع بالتجرد من الالتزام برأى خاص.

٥- طرح الأوهام والخرافات والدعاوى التى لا ينهض عليها دليل.

٦- دلالة الشاهد على الغائب ودلالة صنع الله على وجوده وقدرته.

٧- حتمية سنة الله فى أكوانه.. جل شأنه.

نموذج من جدال الخوارج:

روى ابن عبد البر فى كتابه: (جامع بيان العلم وفضله) قال ابن عباس للخوارج: ماذا نقمتم عليه؟ أى على أمير المؤمنين قالوا: ثلاثًا - قلت ما هن؟ قالوا: حكم الرجال فى أمر الله وقال: إن الحكم إلا لله. قال: فقلت: هذه واحدة وماذا أيضًا؟ - قالوا: فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم ولئن كانوا كافرين لقد حل قتالهم وسبيهم.. قال: قلت: وماذا أيضًا؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.. قال: قلت: أرأيتكم أن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما

ينقض قولكم هذا أترجعون؟ قالوا: وما لنا لا نرجع؟.

قال: قلت: أما حكم الرجال فى أمر الله فإن الله تعالى يقول فى كتابه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة:٩٥].

وقال فى المرأة وزوجها: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [النساء:٣٥] فصير الله ذلك إلى حكم الرجال فناشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال فى دماء المسلمين وإصلاح ذات بينهم أفضل.. أو فى حكم أرنب ثمنه ربع درهم وفى بضع امرأة.. قالوا: بل هذا أفضل..قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

فأما قولكم: قاتل فلم يسب ولم يغنم أفتسبون أمكم عائشة فإن قلتم نسبيها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم فأنتم تترددون بين ضلالتين أخرجت من هذه؟ قالوا: بلى.. وقال: وأما قولكم: محا نفسه من إمرة المؤمنين فأنا آتيكم بما ترضون به.. إن نبى الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو وقال رسول الله ﷺ: اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله.. فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول الله ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك.. قال رسول الله ﷺ: اللهم إنك تعلم أنى رسولك امح يا علي واكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو . قال فرجع ألفان وبقى بقيتهم فخرجوا فقتلوا..

مناظرة عمر بن عبد العزيز مع الخوارج:

أرسل عمر بن عبد العزيز إلى شوذب – واسمه بسطام[1] من بنى يشكر كتابًا فيه:

---

(١) من مجلات الأزهر.

بلغنى أنك خرجت غضبًا لله ولنبيه ولست أولى بذلك منى فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا فأرسل إليه من يناظره وكان من بين ما تناظرا فيه.. (أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيره غيرى قالا: أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك؟ قال: فقال أنظرانى ثلاثًا).

نماذج من الحوار بين فقهاء التابعين:

قال ابن سعد: سأل رجل سعيد بن المسيب فى رجل نذر فى معصية.. فقال سعيد: يوفى به فسأل عكرمة فقال: لا يوفى به قال: فذهب الرجل إلى سعيد فأخبره بقول عكرمة فقال سعيد: لا ينتهى ابن عباس حتى يلقى فى عنقه حبلًا ويطاف به. قال: فجاء الرجل إلى عكرمة فأخبره الخبر فقال عكرمة: أنت رجل سوء.. قال: لم؟ فقال: فكما بلّغتنى فبلّغه.. قل له: هذا النذر لله أم للشيطان؟ فو الله إن زعم أنه لله ليكذبن ولئن زعم أنه للشيطان ليكفرن.

فابن المسيب نظر إلى النص وهو قوله تعالى: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج:٢٩] حيث لم يفصل وكذلك الأحاديث مطلقة.. ولكن عكرمة يخطئه فى ذلك وينظر إلى المعنى المقصود من الوفاء بالنذر وأنه معلل بكونه قربة وعبادة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى فإذا خرج عن هذه الدائرة امتنع الوفاء به مبينًا علة الحكم بأن هذا النذر إن كان لله فلا يصح.. حيث يمتنع التقرب إليه بالمعاصى وإن كان للشيطان كفر من أمره بالوفاء به.

نماذج من جدل المتكلمين :

أبو الهذيل العلاف ويهودى:

بلغ أبو الهذيل العلاف فى براعته فى الجدل أن رجلاً يهوديًا قدم البصرة وقطع جماعة من متكلميها.. فقال لعمه:

يا عم امض بى إلى هذا اليهودى حتى أكلمه.. فقال له عمه : يا بنى كيف تكلمه وقد عرفت خبره وأنه قطع مشايخ أهل الكلام.. فقال: لابد أن تمضى بى إليه.. فمضى به

قال: فوجدته يقرّ الناس على نبوة موسى عليه السلام فإذا اعترفوا له بها قال: نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجمع على ما تدعونه فتقدمت إليه فقلت: أسألك أم تسألنى؟ فقال: بل أسألك - فقلت: ذاك إليك - فقال لى: أتعترف بأن موسىٰ نبى صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك؟ فقلت له: إن كان موسىٰ الذى تسألنى عليه هو الذى بشر بنبيى ﷺ وشهد بنبوته وصدقه فهو نبى صادق وإن كان غير ما وصفت فذاك شيطان لا أعترف بنبوته فرد عليه ما لم يكن فى حسبانه.. ثم قال لى: أتقول إن التوراة حق؟ قلت: هذه مسألة تجرى مجرى الأولى.. إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة بنبيى ﷺ فتلك حق وإن لم تكن كذلك فليس حق ولا أقر بها.. فبهت وأقحم ولم يدر ما يقول.

نماذج من مناظرات المتكلمين:

.. ومن هذه النماذج ما جرىٰ بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حيث جلس واصل فى الحلقة وسئل أن يكلم عمرا فقال واصل له: لم قلت إن من أتى كبيرة من أهل الصلاة استحق اسم النفاق؟ فقال عمرو: لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور:٤].

ثم قال فى موضع آخر: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة:٦٧] فكان كل فاسق منافقًا إذ كانت ألف ولام المعرفة موجودتين فى الفاسق.. فقال واصل: أليس قد وجدت الله تعالى يقول: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٥].

فعرّف بألف ولام التعريف اللتين فى قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة:٤٧].

فسميت منافقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فأمسك عمرو ثم قال له واصل: يا أبا عثمان أيما أولى أن يستعمل فى أسماء المحدثين فى أمتنا؟ ما اتفق عليه أهل الفرق من أهل القبلة أو ما اختلفت فيه فقال عمرو: بل ما اتفقوا عليه أولى.. فقال له واصل: ألست تجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقًا ويختلفون ما عدا ذلك من أسمائه لأن الخوارج تسميه مشركًا فاسقًا والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقًا.. والحسن يسميه منافقًا فاسقًا والمرجئة تسميه مؤمنًا فاسقًا فاجتمعوا على تسميته بالفسق واختلفوا فيما عدا ذلك من أسمائه.. فالواجب أن يسمى بالاسم الذى اتفق عليه وهو الفسق.. لاتفاق المختلفين عليه ولا يسمى بما عدا ذلك من الأسماء والتى اختلف فيها فيكون صاحب الكبيرة فاسقًا ولا يقال إنه مؤمن ولا منافق ولا مشرك ولا كافر فهذا أشبه بأهل الدين.. فقال له عمرو بن عبيد:

« ما بينى وبين الحق عداوة.. والقول قولك » .

قال الجاحظ :

نازع رجل عمرو بن عبيد فى القدر فقال له عمرو: إن الله تعالى قال فى كتابه ما يزيل الشك عن قلوب المؤمنين فى القضاء والقدر قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر ٩٢: ٩٣] ولم يقل لهم لنسألهم عما قضيت عليهم أو قدرته فيهم أو أردته منهم أو شئته لهم وليس بعد هذا الأمر إلا الإقرار بالعدل أو السكوت عن الجور الذى لا يجوز على الله تعالى.

مناظرة بين والد وولده :

حكى أبو القاسم البلخى أن عبد الله قال لابنه محمد: كل خصالك محمودة يا بنى إلا قولك بالقدر.. قال: يا أبه أفشيء أقدر على تركه أو لا أقدر على تركه؟.

فورد الكلام على رجل عاقل فقال: لا عاتبتك عليه أبدًا.. قال أبو القاسم: يقول إن كنت أقدر على تركه فهو قولى.. وإن كنت لا اقدر فلم تعاتبنى على شيء لا أقدر عليه.

أبو الهذيل ومجوسى :

قال أبو الهذيل: قلت لمجوسى: ما تقول فى النار؟ قال: بنت الله، قلت: فالبقرة؟ قال: ملائكة الله قص أجنحتها وحطها إلى الأرض يحرث عليها، فقلت: فالماء؟ قال: نور الله قلت: فما الجوع والعطش؟ فقال: فقر الشيطان وفاقته، قلت: فمن يحمل الأرض؟ قال: بَهْمَنٌ الملك.. قلت: فما فى الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها ثم غسلوها بنور الله ثم شووها ببنت الله ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ثم سلخوها على رأس بَهْمَنْ الملك أعز ملائكة الله فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه.



الفصل السادس

المعارضـــات

.. اتفقت كلمة العلماء قديمًا على أن أحدًا(١) لم يستطع أن يعارض القرآن وعلى أن التاريخ لم ينقل كلامًا يمكن أن تنطبق عليه صفة المعارضة وقد أجمعت كلمة أصحاب الرأى فى هذا الشأن من أهل الفصاحة والبلاغة على أن المعارضة بين الكلامين لا تعد إلا إذا كان بينهما مقاربة ومداناة بحيث يلتبس أحدهما بالآخر أو يكون مقاربًا له وسبيل من عارض صاحبه فى خطبة أو شعر أن ينشئ له كلامًا جديدًا ويحدث له معنى بديعًا فيجاريه فى لفظه ويباريه فى معناه وليس بأن يتحيّف من أطراف كلام خصمه فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق..

ولم نر فيما وصل إلينا من أخبار العرب فى عهد النبى ﷺ ولا فى العهود القريبة التى جاءت بعده أن فصيحًا من الفصحاء الذين يعتد بهم ألف قولاً تكون سبيله سبيل المعارضة. وما قالوه عن ابن المقفع من أنه عارض القرآن بكتابه «الدرة اليتيمة» فهو عندنا كما يقول الرافعى: ليس هناك لا قصدًا ولا مقاربة وفى اليتيمة عبارات وأساليب مسروقة من كلام الإمام على..

ويرى الباقلانى أن ابن المقفع إنما نسخ هذا الكتاب من كتاب بزرجمهر فى الحكمة.. ولم يصلنا كذلك أن أحدًا من هؤلاء حاول معارضة القرآن استجابة للتحدى إلا ما روى عن ابن رشيق فى العمدة من أن فصحاء قريش عكفوا على لباب البرّ وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم فلما سمعوا قول الله عز وجل:

﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ

(١) حول إعجاز القرآن، د / على العمارى.. هدية الأزهر شوال ١٤١٩ هـ ص ٢٤ وما بعدها.

عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود:٤٤] يئسوا مما طمعوا فيه وعلموا أنه ليس بكلام مخلوق.

وهذا النص يعطينا أن فصحاء قريش طمعوا فى معارضة القرآن وأعدوا أنفسهم لها واستعانوا عليها بالأسباب التى توهموها معينة على بلوغ الغاية غير أن فى آخر النص ما يشكك فى أوله؛ ذلك أن انقطاع قريش عند هذه المحاولة لما سمعوا الآية السالفة الذكر يوهم أن ما سبق من آيات القرآن على هذه الآية لم يكن كافيًا فى أن ينقطع طمع قريش وأن فى هذه الآية من روائع البلاغة ما ليس فيما تقدم من آيات وهو كلام مدخول قصد به إلى إيهام أن نهاية الإعجاز تتحقق فى بعض الآى دون بعض ثم جازت هذه الخدعة على المؤلفين من أصحاب النيات السليمة والإيمان الصحيح فرووها دون أن ينتبهوا إلى ما يحمل فى طياتها من مغزى غير لائق بجلال القرآن الكريم جملة وتفصيلاً، ثم هل بلغ البله من قريش أن يغفلوا عن أن البيان سليقة وطبيعة وأنه لا حاجة إلى هذه «المظاهرة» ويستعينوا بلباب البر وسلاف الخمر ولحوم الضأن كأن هذا الطعام وهذا الشراب مما يولد فى الإنسان بيانًا لم يكن فيه ولو أن قريشًا أرادت معارضة القرآن لكان لها من سلائقها ومن طبائعها ما يعينها على ذلك لو كان ممكنًا.

والحق ما يقوله الجاحظ عن المعارضة: (ولم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولا طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويتحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقارب وناقض).. أما ما ورد عن مسيلمة وأشابهه من المتنبئين ومدعى الفصاحة فقد رفض العلماء أن يكون ذلك داخلاً فى باب المعارضة لأن حدها السابق لا ينطبق عليه.

وبعض العلماء تناول هذه المعارضات بالنقد والتجريح وبيان ما فيها من ضعف وتهافت وهم بذلك يسلمون بورودها عن مسيلمة ومن إليه.. ويعتقد أن هذه المعارضات من افتعالات الرواة وتفكهات أصحاب القصص وأضاحيك السُّمَّار فى المجالس

والمجتمعات وأن العرب انقطعوا عن المعارضة حقها وباطلها ولم يكن يرجى من مسيلمة أو غيره من الأعراب النزول إلى هذا المستوى الوضيع من الهراء. على الرغم من أنهم أهل فصاحة وبيان ولم يعرف إطلاقًا فيما وصل إلينا من كلام العرب أو خطبهم أو أشعارهم أو أمثالهم فى جاهليتهم مثل هذا الكلام المسف أو المعانى المتهالكة.. فكيف بمسيلمة وهو على حد قول الرافعى: أفصح من المتنبى كيف يرسل بهذه الكلمات الواهية ويقر على نفسه هذه التفاهة فى معرض دعواه للنبوة خاصة وأنه يعرف تمامًا من يجابه ومن يتحدى.

ويجزم أصحاب هذا الرأى بأن قول الجاحظ السابق نص وثيق وصريح فى أن شيئًا من المعارضات لم يكن وصل إلى علمه.. وقد جاء فى كتاب «الحيوان»[1] عند الكلام عن الضفدع قول الجاحظ: ولا أدرى ما هيج مسيلمة على ذكرها.. ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: يا ضفدع بنت ضفدعين.. نقى ما تنقين[2].. أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين.. لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين..

فلم يكن مسيلمة يقصد من وراء هذا الكلام إلا السخرية وإنه موقن أن ذلك من موضوعات الرواة الظرفاء، وهذا ما يؤكد قوله السابق فى نفى المعارضة حقها وباطلها.

على أن هذه المعارضة رويت فى سيرة ابن هشام بصورة أخرى تقول: يا ضفدع نقى نقى.. لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، لكن قريشًا قوم يعتدون.. وقد رواها ابن إسحاق عن شيخ من بنى حنيفة ورواها الطبرى عن جابر ويحمل ذلك كله على الاعتقاد بأنها موضوعة.

وقد جاء فى رسالة الخطابى رواية المعارضات عن سعيد بن نشيط وهو متهم – قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب عن سعيد هذا شيخ ابن لهيعة لا يعرف مجهول – ذكره ابن حبان فى ذيل الضعفاء قال: روى عنه عبد الله بن عقبة – لا يصح. قلت: وابن عقبة هو ابن لهيعة

---

(١) الحيوان – للجاحظ.

(٢) حول إعجاز القرآن، د/ العمارى ص ٢٦.

نسبة لجده ، وقال ابن خلكان: ابن لهيعة كان مكثرًا من الحديث والأخبار والرواية وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت فقيل له في ذلك فقال: ماذنبي إنما يجيئوني بكتاب يقرءونه عليَّ ويقومون ولو سألوني لأخبرتهم أنه ليس من حديثي.. وقال عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى: (إنه كان ضعيفًا).

وحديث سعيد هو: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى البحرين فتوفي رسول الله ﷺ ..قال عمرو: فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطاني الأمان ثم قال: إن محمدًا أرسل في جسيم الأمور وأرسلت في المحقرات.. فقلت: أعرض عليَّ ما تقول.. فقال: يا ضفدع[1] بنت ضفدعين .ا.هـ.

الكلمات الآنفة ثم أتى ناس يختصمون إليه في نخل قطعها بعضهم لبعض فتسجَّى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال: والليل الأدهم، والذئب الأسحم ، ما جاء بنو مسلم من محرم.. ثم تسجَّى الثانية فقال له: والليل الدامس ، والذئب الهامس، ما حرمته رطبًا إلا كحرمته يابسا، قوموا فلا أرى عليكم فيها فعلتم شيئًا ، قال عمرو: أما والله إنك تعلم وإنا لنعلم أنك من الكاذبين ! فتوعَّدَني..

وفي القصة مع تسليمنا جدلاً بورودها أمران:

الأول: أن عمرًا لم يذكر أن مسيلمة كان يعارض القرآن بكلامه هذا وإنما هو كلام قاله على حد ما يفعل الكهان.

الثاني: قول مسيلمة «أرسلت في المحقرات» لا يتفق هذا مع ما هو مشهور من أن مسيلمة كتب إلى النبي ﷺ يقول: إن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها وأنه جعل يعفي أتباعه بل وأتباع سجاح التميمية من بعض التكاليف الإسلامية.. هذا وقد تنبه إلى ضعف

(١) حول إعجاز القرآن، العماري، المرجع السابق ص ٢٨ وما بعدها.

الرواية بعض العلماء الذين عاشوا فى هذا القرن وإن لم يبينوا لنا وجه الضعف على نحو ما ذكر.

وقد جاء فى مقدمة «إعجاز القرآن» للأستاذ / مصطفى صادق الرافعى والتى كتبها السيد رشيد رضا قوله: ولما نقل بعض أهل التصانيف عن بعض الموصوفين بالبلاغة فى القول أنهم تصدوا لمعارضة القرآن فى بلاغته ومحاكاته فى فصاحته دون هدايته ولكنهم على ضعف رواية الناقلين عنهم لم يأتوا بشىء تقرُّ به أعين الملاحدة والزنادقة فيحفظونه عنهم ويحتجوا به لإلحادهم وزندقتهم..

ومن الدلائل على أن هذه المعارضات من مختلقات الرواة أن بعضها يروى عن غير واحد كهذه الكلمة: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، فقد نسبها الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى رسالته فى الإعجاز لمسيلمة.. ونسبها ابن عبد ربه فى كتاب «العقد الفريد» لمتنبئ فى العصر الأموى فى عهد خالد بن عبد الله القسرى وزاد فى آخرها: ولا تطع كل كافر وساحر.

وقد نسجت قصة قصد بها الحط من شأن مسيلمة وسجاح إذ رووا أن مسيلمة أنشد سجاح شعرًا ونثرها نثرًا لا يقوله إلا أفجر رجل لأوضع امرأة.. فكان مسيلمة إذا انتهى من الشعر بكلمة داعرة عاهرة أجابته سجاح عنها إجابة المرأة الهلوك المتهالكة بكلمة لا تقل فحشًا عن كلمة مسيلمة وكان يزعم لها أنه بهذا أوحى إليه كأن قرآن مسيلمة لا يعف أن يرشد الرجل إلى أدق الشئون فى اتصال الرجل بالمرأة اتصالاً جنسيًّا.

فقد زعموا أن سجاح أقامت فى حصن مسيلمة ثلاثًا ثم انصرفت فقال لها قومها: ما عندك؟ قالت: كان على الحق فاتبعته وتزوجته..

قالوا: فهل أصدقك شيئًا؟ قالت: لا.. قالوا: ارجعى فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق.. فرجعت فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال: مالك؟ قالت: اصدقنى صداقًا.. قال: من مؤذنك؟ قالت: شبث بن ربعى الرياحى. قال: عَلَيَّ به فجاء فقال: ناد فى

أصحابك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد: صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر فكانوا يقولون: هذا صداق كريمتنا فهل بلغ الهوان بهؤلاء السادة وفيهم الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب ونظراؤهما من وجوه بني تميم أن يتركوا فتاتهم «النبيّة»: مع رجل حنفي ثلاثا وهل كانوا من الغفلة بحيث تردهم بأنها وجدته على الحق فاتبعته.. وهل كان كل ما يعنيهم هو مهر فتاتهم؟ وهل كان أتباع سجاح وهي نصرانية من بني تغلب يجمعون في الصلاة بين ما جاء به محمد ﷺ وما جاء به مسيلمة وهل كانوا بلهاء في الدين لدرجة أنهم يعتبرون إسقاط التكاليف مهرًا لامرأة وكيف بقي هذا بعد تبيان الحق وظهور أمر مسيلمة وسجاح مع أن سجاح أسلمت بعد ذلك ويبدو أن ابن الكلبي هشام بن محمد بن السائب صاحب هذه الرواية كان وضّاعا واسع الخيال..

ومع ذلك فإن مسيلمة كان كذابًا بالفعل ولا نقصد بهذا العرض تبرئة ساحته ولا الدفاع عنه بل لأن إثبات مثل ما يسمى بهذه المعارضات لا يخدم القرآن لأنه فوق كل كلام وبيان ورأينا من أتباع مسيلمة من يقول: أشهد أن مسيلمة كذاب ولكن كذاب ربيعة خير عندنا من صادق مضر «يقصد محمدًا ﷺ».. وأمْر طليحة وسجاح خير من أمْر مسيلمة فقد أسلم طليحة وحسن إسلامه.. وكذلك أسلمت سجاح فأصبحنا في غير حاجة إلى أن نتابع وُضَّاعَ الأخبار لنحط من شأن هؤلاء.

مقتطفات من المعارضات :

أكثر الناقلون لمعارضات مسيلمة من إلقاء الضوء على سرعة مبادرته وإقامة نفسه في أمور كان يمكنه الاستغناء عنها خاصة وأنها لم تكن مطلوبة أو مرغوبة ولو حدث لكان القرشيون أولى بالتصدي لها والتفاعل معها والترويج لها ولكنهم لم يفعلوا ذلك لعجزهم التام ولتسليمهم ببلاغة القرآن وفصاحته.

ومما نسبه الناقلون قوله: «والمبذرات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا،

إهالة وسمنًا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغى فناوئوه».

وقوله أيضًا:

(والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تمجون).

ومنها: (الفيل – ما الفيل، له ذنب، وبيل – وخرطوم طويل).

وفى رواية الخطابى: (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له شعر طويل، وذنب أثيل، وما ذاك من خلق ربنا بقليل).

روى عن بعضهم قوله: (ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلي، أخرج منها نسمة تسعى، بين شرا سيف وحَشَى).

وقال فى حضرة سجاح: (إن الله خلق النساء، وجعل الرجال لهم أزواجًا) فلما أتم هذه الكلمة على أفحش ما تتم به الكلمات قالت له: أشهد أنك نبى..

أبو العلاء المعرِّى (معارض):

وممن نسبت إليهم المعارضة فيلسوف الشعر أحمد بن سليمان المشهور بأبى العلاء المعرِّى.. قيل إنه عارض القرآن فى كتابه (الفصول والغايات) وهذه نماذج من معارضته:

«أقسم بخالق الخيل.. والريح الهابَّة بليل، ما بين الأشراط ومطالع سهيل، إن الكافر لطويل الويل، وإن العمر لمكفوف الذيل، ابق مدارج، والسيل وطالع التوبة من قبيل تنج وما أخالك بناجٍ».. «أذلت العائدة أباها وأصاب الوحدة ورباها، والله بكرمه اجتباها، أولاها الشرف بما حباها، أرسل الشمال صباها، ولا يخاف عقباها».

أبو العلاء يدافع عن نفسه:

قال أبو العلاء فى معرض رده على ابن الراوندى[1]:

(أجمع ملحد ومهتد وناكب عن الحق والحجة ومقتد أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإيجاز، ولقى هدوءه بالإعجاز ما حذى على مثال ولا أشبه غريب المثال، ما هو من القصيدة الموزونة ولا فى الرجز من سهل وحزن ولا شاكل خطابه العرب ولا سجع الكهنة ذوى الأرباب، وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ فى جنح غسق، والزهرة البادية فى جذوب ذات نسق).

وهذه قصة المعارضات تبين لنا أن المعارضة فى الواقع لم تقع وما كان لها أن تقع، وسيبقى هذا القرآن معجزًا للبشر.. لأنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.



(١) حول إعجاز القرآن ص ٤٩.


الباب الثالث
وجادلهم بالتي هي أحسن

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

مقدمة

قَالَ تعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

على هذا الأساس يرسى[1] القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادءها ويعين وسائلها وطرائقها ويرسم المنهج العظيم للرسول ﷺ وأصحابه وللدعاة من بعده بدينه القويم فلينظر فى دستور الدعوة الذى شرعه الله فى هذا القرآن فليس للداعى من دعوته إلا أن يؤدى واجبه لله لا فضل له يتحدث به لا على الدعوة ولا على من يهتدون به وأجره بعد ذلك على الله وحده والدعوة بالحكمة والنظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذى يعينه لهم فى كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالكلمات قبل استعداد النفوس لها والطريقة التى يخاطبهم بها والتنويع فى هذه الطريقة حسب مقتضياتها فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة فى هذا كله وفى سواه.

وبالموعظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق وتتعمق فى المشاعر برقة ولطف لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب ولا بفضح الأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية فإن الرفق فى الموعظة كثيرًا ما يهدى القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ وبالجدل بالتى هى أحسن بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعى ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ولكن الإقناع

---

(١) فى ظلال القرآن – السيد قطب ج٤ صـ٢٢٠١-٢٢٠٢ دار الشروق.

والوصول إلى الحق فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهى التى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها..

والجدل بالحسنىٰ هو الذى يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها والاهتداء إليها فى سبيل الله لا فى سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر.

ولكى يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآنى إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين فلا ضرورة للحاجة فى الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله تعالى ، هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر فى دائرة الدعوة باللسان والجدل والحجة فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير فالاعتداء عمل مادى يدفع بمثله إعزازا لكرامة الحق ودفعا لغلبة الباطل على أن لا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع فالدعوة إذا كانت فى حدود القصد والعدل حفظت كرامتها وعزتها.. والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة لله والعزة لله جميعا وبهذا تتحقق الأمانة لإقامة الحق فى هذه الأرض.



الفصل الأول

هل من ضرورة للجدل؟

بالطبع هناك ضرورة للجدل لحسم القضايا الكبرى التى تمس العقائد والأديان.. إذ لم تخل ساحة من الساحات أو دولة من الدول أو قطر من الأقطار من الصراعات التى كما قلنا تمس جوهر العقيدة والدين ولازم عند ذلك أن يشتد الاحتكاك بين الجانبين ويأخذ هذا الصراع فى التنامى والتطاول ليصل إلى أحد أمرين:

الأول: المقارعة بالحجج والمناظرات وبيان صور الجدل المختلفة.

الثانى: تقارع الأسنة وحمل السيوف وإسالة الدماء.

والتاريخ يروى ذلك إذ حاول ذونواس – اليهودى – نشر اليهودية بين نصارى نجران بالسيف بعد أن عجز عن استمالتهم بالحجة والبرهان – كما أن الحروب كانت قائمة وشديدة بين القبائل الوثنية بالمدينة وبين اليهود – وكذلك كان هناك نزال بالبيان وجدل[1] باللسان وانبرى المجادلون لنظرائهم فى كل الميادين – يقتحمون عليهم كل خلوة ويهتكون لهم كل ستر وحجاب فلقد كانت القبائل العربية المشركة التى تجاور القبائل النصرانية المبشرة بالجنة والمحذرة من النار والمتحدثة عن البعث والنشور وهى أمور كان ينكرها العرب على نحو ما حكى القرآن الكريم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[الرعد: ٥] – خاصة بعد أن أصبح القساوسة والرهبان يرِدُون الأسواق العربية ويعظون ويذكِّرون.. كما جاء فى كتب المؤرخين عن (قس بن ساعدة الإيادى) وخطبته الشهيرة والتى حكى النبى ﷺ طرفا منها بقوله عليه الصلاة والسلام: « **إن نسيت فلن أنسى قس بن ساعدة الإيادى وهو يقف على جمل أورق فى سوق عكاظ وكان يقول: من عاش مات، ومن مات**

---

(١) تاريخ الجدل – الإمام محمد أبو زهرة – مكتبة دار الفكر العربى صـ٣٥.

فات، وكل ما هو آت آت ، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟» [١] إلخ...

فضلا عن فريق آخر من القبائل النصرانية القائلة (بالتثليث) مما أحدث تصادما قديما بين الفريقين بسبب عدم استساغة العقل العربى لعقيدة (التثليث) ولا الإيمان برب مصلوب واحتدم النقاش والجدال..

والتاريخ يذكر: أن الأساقفة أرادوا أن ينصِّروا (المنذر الثالث) ملك الحيرة حوالى عام ٥١٣ من الميلاد وبينما كان المنذر يصغى إليهم إذ دخل عليه قائد من قواده فأسرَّ إليه ببضع كلمات ولم يكد ينتهى منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق فتقدم إليه أحد القسيسين وسأله عما أحزنه، فأجابه الملك : خبر سيىء.. لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات فواحسرتاه عليه.. فقال القسيس: هذا محال وقد غشك من أخبرك فإن الملائكة خالدون ويستحيل عليهم الفناء.. فأجابه الملك : أحقا ما تقول؟ وتريد أن تقنعنى بأن الله ذاته يموت؟ ومع أن النصارى كانوا يلحنون عليه بالحجة مما كان يجعل لهم الغلبة -أحيانًا- فى المجادلة إلا أن استقامة الفكر العربي كان يجعل من المنازلة سجالا لا انتصار فيها لأحد.

وعلى جانب آخر كان اليهود يحاولون نشر دينهم فى البلاد العربية كلها والعرب ينفرون من دعوتهم لما عليه اليهود - دائما - من مغالاة وافتراء وزعموا كذبا أنهم :

﴿ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] ، وكانوا ينظرون إلى العرب كأنهم فى المنزل الهون والمكان الدون.

وقد ذكر ابن هشام أن سلمة بن سلامة - وكان من أهل بدر - قال: كان لنا رجل من

---

(١) انظر : السلسلة الضعيفة حديث رقم (٥٩٠٦) ، و مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩ / ٦٩٧) ، وهو حديث موضوع .

يهود في بني عبد الأشهل فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل.. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سنًا عليَّ بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي.. فذكر اليهودي القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار - وهذا الكلام قيل لأهل شرك وأصحاب أوثان لا يرون أن بعثا كائنا بعد الموت - فقالوا له: ويحك يا فلان أو ترى هذا كائنا وأن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة أو نار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال نعم.. والذي يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في النار يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدًا، فقالوا: ويحك يا فلان.. فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد - وأشار بيده إلى مكة واليمن فقالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إلي وأنا من أحدثهم سنا فقال: إن يستنفدْ هذا الغلام عمره يدركْه..

وبالطبع فهذه الصورة وضح فيها عقيدة البعث وقد ناقشوه فيها وجادلوه ولقد دفعت الضرورة بعض - الحنفاء - بالمجادلة مع أقوامهم الذين ناصبوهم العداء ومن هؤلاء زيد ابن عمرو بن نفيل الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**إنه يبعث أمة وحده**»[1]، وذلك أنه نبذ عبادة الأوثان ولم يدخل في اليهودية أو النصرانية وقال: أعبد رب إبراهيم.

قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري ثم يقول: (اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكني لا أعلم) ثم يسجد على راحته - وكانت زوجته صفية بنت الحضرمي تناقشه وتنكر عليه عبادته بل كانت عينًا عليه لعمه الخطاب بن نفيل وكان يدفع عن نفسه ذلك بمجادلتهم ومناقشتهم.

ولما بعث النبي ﷺ صارت الجزيرة العربية كلها تتحدث في شأنه وتجادل في أمره بين

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١٣/ ١٧٤) حديث رقم (٧٢١٢)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٤١٦).

حائر مضطرب بين قديم قد ألفه وجديد قد عرفه وانحصر الجدل فى عصر النبى ﷺ فى ثلاثة محاور:

الأول: جدل النبى ﷺ مع المشركين.

الثانى: جدل النبى ﷺ مع اليهود والنصارىٰ.

الثالث: جدل العرب والروم والحبشة مع بعض القرشيين.

وقد تكفل القرآن الكريم بقطع ألسنة المشركين ومن والاهم من اليهود والنصارى وبمجادلتهم بالتى هى أحسن – على نحو ما سبق – .

ونضيف إلى ذلك: أن مشركى قريش لما جفَّت حلوقهم من الجدال مع رسول الله ﷺ وباتوا منهزمين مؤججين ذهبوا إلى اليهود يستشيرونهم فى شأن النبى ﷺ ويسألونهم علما بالكتاب لكى يستطيعوا المواجهة فقال لهم اليهود: سلوه عن ثلاث: فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل فرَوْا فيه رأيكم.. سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول؟ ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب.. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها.. ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هى؟

فسأل المشركون النبى ﷺ عن هذه المسائل.. فانتظر النبى ﷺ حتى نزلت سورة الكهف مشتملة على الأجوبة على ما يلى:

الأول: أما الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول فهم أصحاب الكهف.

الثانى: وأما الطوَّاف فهو ذو القرنين.

الثالث: وأما الروح فكما ذكر القرآن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٥] – ومن المعلوم أن جدل اليهود مع النبى ﷺ كان كجدلهم مع موسى ﷺ فيه كثير من العناد والمغالاة والباطل...

ولقد ذكر ابن هشام : أن نفرا من أحبار يهود جاء إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: أخبرنا عن أربع نسألك عنهم فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك.. فقال لهم الرسول ﷺ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدِّقُنِّى قالوا: نعم - قال: فاسألوا عما بدا لكم.. قالوا: فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل؟ فقال لهم: أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتها غلبت صاحبتها كان لها الشبه: قالوا: اللهم نعم.. قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ فقال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أن نوم الذى تزعمون أنى - لست به - تنام عينه وقلبه يقظان؟ فقالوا: اللهم نعم قال: فكذلك نومى تنام عينى وقلبى يقظان قالوا: فأخبرنا عما حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرَّم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكرًا لله تعالى: قالوا: اللهم نعم ، قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمونه جبريل وهو الذى يأتينى قالوا: اللهم نعم ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملك إنما يأتى بالشدة ويسفك الدماء ولولا ذلك لاتبعناك - فأنزل الله ﷻ فيهم:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ٩٧] .

إلى قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وكان جدل الرسول ﷺ مع اليهود ضروريا والاحتكاك بهم مستمرا نظرا لما بينه وبينهم من جوار - أما جدله عليه الصلاة والسلام مع النصارى فكان يهاجم فيه عقيدة التثليث ويبين كفرهم بها كما قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ

ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣] – كما أنكر عليهم ادعاؤهم أن عيسى وأمه إلهان من دون الله وأنكر عليهم أن الله هو المسيح وأنكر عبادة الصليب وأكلهم لحوم الخنازير وادعاؤهم أن لله ولدا ومن أكثر من جادلهم النبى ﷺ هم نصارى نجران بالمدينة المنورة وذلك حينما وفدوا على رسول الله ﷺ وناقشوه فقرأ عليهم من القرآن الكريم فآمنوا جميعًا.. فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركبًا أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم؟ فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترنا فأنزل فى ذلك قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٢: ٥٥].

وكان لثقل الدعوة وعظمتها أن تجاوزت حدودها إلى دول أخرى مجاورة وبعيدة حتى ليروى أن قيصر الروم كان له حديث مع أبى سفيان كما جاء فى صحيح البخارى فى كتاب بدء الوحى: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ معادٍ فيها لقريش ولبى سفيان – فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا بترجمانه وجرى هذا الحوار:

هرقل: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟.

أبو سفيان: أنا أقربهم نسبا إليه.

هرقل: ادنُ منى – وأمر بأن يكون أصحابه عند ظهره – قريبا منه ثم قال لترجمانه:

قل لهم: إنى سائل هذا – يقصد أبا سفيان – عن هذا الرجل؟.

قال أبو سفيان: والله لولا الحياء لكذبت عليه – وكان أول ما وجهه هرقل من أسئلة أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ **أبو سفيان:** هو فينا ذو نسب.

هرقل: هل قال هذا القول أحد منكم قبله قط؟. **أبو سفيان:** لا...

هرقل: فهل كان من آبائه من ملك؟. **أبو سفيان:** لا...

هرقل: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟. **أبو سفيان:** ضعفاؤهم.

هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟ **أبو سفيان:** بل يزيدون.

هرقل: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟. **أبو سفيان:** لا...

هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال. **أبو سفيان:** لا..

هرقل: فهل يغدر؟ **أبو سفيان:** لا... ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها.

هرقل: فهل قاتلتموه؟. **أبو سفيان:** نعم...

هرقل: فكيف كان قتالكم؟ **أبو سفيان:** الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه..

هرقل: بماذا يأمركم؟ **قال أبو سفيان** : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.. **فسكت هرقل برهة ثم قال لترجمانه:** قل له سألتك عن نسبه – فذكرت أنه فيكم ذو نسب.. فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول.. فذكرت أن لا.. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسّى بقول قيل قبله.. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك.. فذكرت أن لا.. فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله... وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون.. وكذلك أمر الإيمان

حتى يتم.. وسألتك: أيرتد أحدهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حينما تخالط بشاشته القلوب.. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أنه يأمركم بأن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمىَّ هاتين!! وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم – فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

كما أرسل الرسول ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة واسمه -أصحمة – وذلك ليطلعه على الإسلام ويجادله فى العقيدة الإسلامية.

وقال له : يا أصحمة : إن عليَّ القول وعليك الاستماع.. إنك كأنك فى الرقة وكأننا فى الثقة بك منك لأننا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه .. ولم نَخَفْكَ على شىء قط إلا أمنَّاه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ... الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور.. وفى ذلك الموقع الحزِّ وإصابة المفصل وإلا فأنت فى النبى الأمى كاليهود فى عيسى بن مريم وقد فرَّق النبى ﷺ رسله إلى الناس.. فرجاك لما لم يرجُهم وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر، فقال النجاشى: أشهد بالله أنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسىٰ براكب الجمل وإن العيان ليس بأشفى من الخبر..! ثم كتب النجاشى إلى النبى ﷺ بإسلامه.

ومن الواضح أن الحوار القائم على البرهان والدليل يحقق أغراضا كبيرة ويقطع مراحل واسعة فى تحقيق الهدف وتغيير المواقف وقد كان هذا دأب النبى ﷺ مع مناوئيه وخصومه عندما تدعو إلى ذلك الضرورة والحاجة على نحو ما عرضنا.. من أمثلة وروايات يشد بعضها من أزر بعض لتثبت فى النهاية أن الجدل قد يكون ضروريا عند شدة الخصومة واللجاجة.



الفصل الثانى

وهل الجدل علم؟...

والجدل علم من أعظم العلوم إذا اكتملت أدواته ونُصِّب للدفاع عن الحق والفضيلة والدين وحفظ النفس والدليل على ذلك ما سلكه القرآن من إثباتات ودلالات وبراهين تعلى من شأن الحق وتتسامى فوق كل بيان وتعتلج فى كل نفس.. ولما كان العناد والجحود أمران لا ينفكان عن أعداء الإسلام ، كذلك لما كان التلفيق والتلبيس مذهبان لا يمكن التخلي عنهما لخصوم الإسلام.. والكيد والتربص حقيقتان أساسيتان فى منهج المكابرين والحاقدين.. كان لازما وضروريا أن تكون هناك قوة دافعة تبطل (أكسير) الضلال والبهتان وتدمر بنيان الشرك وتمحو آثار الكفر.. فكان الجدل هو الواقع الذى لا مفر منه ولا محيص عنه وهذا المفهوم مستقىً من نوايا وضراوة الخصوم وأن (المدافعة) من هذا المنطلق لابد وأن تأخذ حيزا كبيرا من الاهتمام ورأينا كيف اهتم القرآن الكريم بالجدل وكيف وضعت السنة كل تشريعاتها لدفع الباطل وكيف رأت كل فساد وتوعدت كل مناضل من أجل الكفر أو مساند للباطل استنادًا إلى قول الله تعالى:

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[الأنفال: ٨] .

كما أن القرآن سلك فى صدِّه وردِّه لأعداء الإسلام كل مجال فى الاستدلال بالواقع البين والمنطق والبرهان والجدل والإلزام حسب الطبائع المختلفة والمشارب المتباينة والأهواء المتضاربة والمسالك المختلفة..

فمن غلبت عليهم الدراسات العقلية والفلسفية فهؤلاء لا ينزعون عن الباطل إلا بسَوْق البرهان والقياس التام ومنهم من تأثر بمذهب دينى أو ملِّى أو شيوعى وسيطر ذلك على هواه أو سقط فى مستنقع النِّحل المذهبية أو تعصب لراية عمية لا يرى وجه الصواب

فهؤلاء يحتاجون إلى محاولات كثيرة ومعالجات مضنية وهؤلاء – أيضًا – لابدَّ لهم من طرق جدلية تزيل ما لُبِّس عليهم من أفكار ومفاهيم بالتى هى أحسن حتى تُقتَلَ أدواؤُهم الدفينة وتُشفى أمراضُهم المخبوءة.. ويبقى صنف من الناس لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فهم فى تفكيرهم أقرب إلى الفطرة وهم يحتاجون إلى التأثير الوجدانى والميل النفسىّ والبيانى..

هذا وقد تصدَّى ابن[1] رشد لإثبات أن الحكيم الفيلسوف يستفيد من أدلة القرآن الكريم كما يستفيد العامِّىُّ الجاهلُ ويرى فيه ما يُرضِى شهوته العقلية وبين ذلك فى لباب فصل المقال حيث قال: (لَّما كانت طرق التصديق منها ما هى عامَّة لأكثر الناس أعني وقوع التصديق من قبلها وهى الخطابية والجدلية والخطابية أعمُّ من الجدليَّة... ومنها ما هى خاصة بأقل الناس وهى البرهانية وكان الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتنبيه الخواص كانت أكثر الطرق المصرح بها فى الشريعة الإسلامية على أربعة أصناف:

الأول: أن تكون – مع أنها مشتركة – خاصة بالأمرين جميعا أعنى أن تكون فى التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية وهذه المقاييس هى المقاييس التى عرض لمقدماتها مع كونها مشهورة أو مظنونة أن تكون يقينية وعرض لنتائجها أن أخذت نفسها دون مثالاتها.. وهذا الصنف من الأقاويل الشرعية ليس له تأويل.. والجاحد له أو المتأوِّل كافر.

الثانى: أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية وتكون النتائج مثالات للأمور التى قصد إنتاجها وهذا يتطرق إليه التأويل.. أعنى لنتائجه.

الثالث: عكس هذا.. وهو أن تكون النتائج هى الأمور التى قصد لنتائجها نفسها.. وتكون المقدمات مشهورة أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقينية وهذا أيضا لا يتطرق إليه التأويل – أعنى لنتائجه – وقد يتطرق لمقدماته.

الرابع: أن تكون مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية

---

(١) تاريخ الجدل – المرجع السابق – صـ٦٢-٦٣ (الهامش).

وتكون نتائجه مثالات لما قصد إنتاجه وهذه فرض فيها - الخواص - التأويل، وفرض الجمهور إمرارها على ظاهرها وبالجملة: فكل ما يتطرق إليه من هذه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان ففرض الخواص فيه هو ذلك التأويل وفرض الجمهور هو حملها على ظاهرها فى الوجهين جميعا - أعنى فى التصور والتصديق إذ كان ليس فى طباعهم أكثر من ذلك وقد يعرض نظَّار فى الشريعة تأويلات من قبل تفاضل الطرق المشتركة بعضها على بعض فى التصديق... ولخصوصية فى الفكر الإسلامى (إيدلوجيا) وسلامته من العاهات والآفات التى أصابت الفكر الآخر عند أهل الديانات القديمة فى الدول المجاورة للدولة الإسلامية وما اعترى الفكر الإسلامى ذاته من أفكار جدَّت على الساحة بعد الفتوحات وفرض الأنماط الفردية التى لم تتمخض عن شىء يمكن احترامه أو قبوله اللهم إلا فى النزر اليسير كما حاول أعداء الإسلام بث أفكارهم الهدامة كما فعل الزنادقة والقرامطة وخروج بعض الطوائف عن ديانة الإسلام محتمين بالفرس قبل زوال دولتهم وحلول المصائب بهم مما جعلهم يكيدون بالإسلام ويحاربونه مرة ويستميلون بعض ضعفاء المسلمين مرة أخرى وينشرون التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستشناع ظلم عليّ -كرم الله وجهه- كما سلكوا مسالك أخرى كنسبة أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر وقالوا بالحلول والنسخ.. لكل هذا عرفت ضروب الجدل وعلومه ومعاييره وهو سلاح له قيمته العلمية والميدانية والدفاعية.



الفصل الثالث

كيف تكون مجادلاً حاذقًا؟...

إن الدافع والدُّرْبة والظروف التى تحيط بالمجادل والأحداث التى تثير الرأى العام وكثرة الاحتكاك والمناظرات تجعل ممن نصَّب نفسه للدفاع والنزال أكثر حذقا ونزوعا إلى الإجادة والإتقان وتكسبه -مع الوقت -سعة فى أفقه وغزارة فى علمه وأرجحية فى اختياره وتنميقا لعرضه وتسجيلا لموقفه..

وهذا بالفعل ما حدث فى عصر الذروة على نحو ما ذكرنا سلفا -فلقد ذكر أنه لما كثرت القالة فى شأن عثمان رضي الله عنه وعماله اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فكلموا عليَّ بن أبى طالب فدخل على عثمان وقال له: الناس ورائى وقد كلمونى فيك والله ما أدرى ما أقول؟ وما أعرف شيئا تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ـ إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه - ولا خلونا بشيء فنبلِّغكه... وما خصصنا بأمر دونك.. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك.. ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحِما ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا.. ولا سبقاك إلى شيء.. فالله الله فى نفسك فإنك والله ما تبصر من عمىً ولا تعلم من جهل وإن الطريق لواضح بيِّن.. وإن أعلام الدين لقائمة، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدِىَ وهَدَى فأقام سنة معلومة.. وأمات بدعة متروكة.. فوالله إن كلا لبيِّن.. وإن السنين لقائمة لها أعلام.. وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَلَّ وضُلَّ به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة.. وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر - وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم - فيدور فى جهنم كما تدور الرَّحى ثم يرتطم فى غمرة جهنم»** وإنى أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته،

فإن عذابه أليم شديد ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول – فإنه يقال: يقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة – وتُلَبَّسُ أمورُها عليها ويتركهم شيعا – فلا يبصرون الحق لعلو الباطل.. يموجون فيها موجا.. ويمرحون فيها مرحا.

فقال عثمان رضي الله عنه : قد والله علمت ليقولُنَّ الذى قلت أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منكِرا إلا وصلت رحما – وسددت خلة وأدبت ضائعا ووليت شبيها بمن كان عمر يولى – أنشدك الله يا علي: هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك..؟ قال: نعم – قال: فتعلم أن عمر ولاه قال: نعم قال: فلِمَ تلومنى أنى وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته، قال عليّ : سأخبرك.. إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه.. إن بلغه عنه حرف جلبه – ثم بلغ به أقصى الغاية وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقاربك – قال عثمان : هم أقاربك أيضًا..! فقال علي: لعمرى أن رحمهم منى لقريبة ولكن الفضل فى غيرهم..! قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولَّى معاوية خلافته كلها؟ فقد ولَّيته، فقال على : أنشدك هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر.. من يرفأ غلام عمر منه؟ قال: نعم قال: فإن معاوية يقتطع الأمر دونك وأنت لا تعلمها فيقول للناس: هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية ثم خرج من عنده[1]... انتهى.

وهذا النوع من الجدال فيه دِرْبة ومهارة فائقة فعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر والضدية الواضحة فى وقائعها إلا أنها نبهت ونوهت وبصَّرت وكشفت وحذرت وفيها من الحذق والإتيان بالمطلوب ما يدل نصها عليه وبعد انتقال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم وأصحاب الديانات القديمة كاليهود والنصارى وفيهم من يثبت القدر ومن ينفيه، وابتدأت المناقشة فى القدر مثلا تأخذ شكلا لا يلتئم مع ما أرشد إليه النبى صلى الله عليه وسلم وهذا موضوع فى غاية من الأهمية – فلقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُتِىَ له بسارق فقال: لم سرقت؟ فقال: قضى الله علىَّ.. فأمر به فقطعت يده وضُربَ أسواطا فقيل

---

(١) الطبرى: الجزء الخامس ص ٩٧ .

له في ذلك فقال: القطع للسرقة.. والجلد للكذب على الله فالرجل زعم أن القدر يبرز الجريمة لأنها مكتوبة وساق ذلك عذرا.. وقد زعم بعض الناس أن الاعتقاد بالقدر يوجب عدم الحذر.. وقد قيل لعمر رضي الله عنه عندما امتنع عن دخول مدينة بها طاعون: أفرارا من قدر الله؟ قال عمر: نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله.. واحتد النقاش حول القدر في عهد عليٍّ – كرَّم الله وجهه – فقدم إليه شيخ وقال: أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة.. وبرأ النسمة.. ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا إلا بقضاء الله وقدره.. فقال الشيخ: فعند الله أحتسب عناي؟ ما أرى لي من الأجر شيئا – فقال مَهْ أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون.. وفي منصرفكم وأنتم منصرفون.. ولم تكونوا في حالاتكم مكرهين ولا مضطرين فقال الشيخ: فكيف والقضاء والقدر ساقانا فقال: ويحك لعلك ظننت قضاء لازما.. وقدرا حتما.. لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب.. والوعد والوعيد.. والأمر والنهي.. ولم تأت لائمة من الله لمذنب.. ولا محمدة لمحسن.. ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء.. ولا المسيء أولى بالذم من المحسن.. تلك مقالة عبَّاد الأوثان وجنود الشيطان وشهود الزور أهل العمى والضلال.. وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها.. إن الله أمر تخييرا ونهى تحذيرًا.. وكلف تيسيرا ولم يعص مغلوبا.. ولم يطع كارها ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا.. ولم يخلق السموات وما بينهما باطلا: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص: ٢٧].

فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ماسرنا إلا بهما؟ فقال: هو الأمر من الله والحكم.. ثم تلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] فنهض الشيخ مسرورا وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسًا ... جزاك ربك عنا فيه إحسانا

وإذ قد تقرر بالفعل أن الدوافع والظروف تلقى بظلالها على (نوعية الجدل

وخصوصيته) وأن المجادل لا يجادل إلا عن قناعة وعلم واستعداد لما قد يطرأ من أحداث غير محسوبة ربما تثير الشك والشطط ولقد كان جدال الصحابة فى الفروع رائده الإخلاص وطلب الحقيقة بلا تناحر ولا تعصب بل طلبا للحق أينما كان وبحثا عن الحقيقة أينما وجدت آخذين بمبدأ عام أرساه القرآن حيث قال الله تعالى:

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[النساء: ٥٩] .

والمرويات – سالفة الذكر – لمحنا فيها قوة العرض والسَّرْدِ مما كان له أثره الظاهر فى حسم القضايا الهامة.



الفصل الرابع

متـــى تجـادل؟..

أما الإجابة على هذا السؤال:

فهى إذا وسع المجادل إيجاد المخرج وإلزام الخصم فى الأمور التى – تغصُّ – بالانفعالات والحرج وربما تنتهى إلى القتال وإسالة الدماء وهذا ما حدث بين عليٍّ بن أبى طالب – كرم الله وجهه – مع الخوارج عندما قال لأصحابه ، وكان قد بعثهم إليهم: لا تبدءوهم بقتال فليس من أراد الحق فأخطأه كمن أراد الباطل فأدركه ، والمواقف هى التى تملى على المجادل الواعى كيفية التعامل مع الموقف بما يلائمه ويوازيه بحيث يحقق لهدفه (مكاسب) تخدم قضيته وترفع لواءه – فضلا عن حقن الدماء – وهذا – كما سلف – ذكره جعل موقف عليٍّ بن أبى طالب يهادن الخوارج فى أول الأمر وكان قد أرسل إليهم العباس ابن عبد المطلب (مفاوضا) وقال له : لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك لكنهم عاجلوه وخاصموه حتى أنقذ الموقف حضور على بن أبى طالب فقام بينهم وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(إن هذا مقام من أفلح فيه كان أولى بالفلج[1] يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم قال: من زعيمكم؟ قالوا ابن الكوَّاء ، قال على: فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتكم يوم صفين ، قال: أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم: نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم إنى أعلم بالقوم منكم أنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنى صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال، امضوا على حقكم وصدقكم فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهنًا ومكيدة

---

(١) تاريخ الجدل ص ١٦٦ – ١٦٧ .

فرددتم علىَّ رأيى وقلتم: لا ، بل فتقبل منهم فقلت لكم: اذكروا قولى لكم ومعصيتكم إياى فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن ، وإن أبينا فنحن من حكمهما براء قالوا: فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء – فقال: إنا لسنا حكَّمنا الرجال وإنما حكَّمنا القرآن ، إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إلا بما يتكلم به الرجال قالوا: فخبرنا عن الأجل لم جعلته بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله ﷻ يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة، ثم سكت برهة ، وقال: ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا من عند آخرهم).

والجدال فى موضعه واختيار زمانه ومكانه يكون أجدى نفعا وأدعى للقبول ما دام قد تحقق له المناخ الملائم والإرادة الحرة، فعن طارق بن شهاب قال: جاء وفد من أسد[1] وغطفان إلى أبى بكر رضي الله عنه فخيرهم بين الحرب المجلِّية والسلم المخزية ، فقالوا: هذه المجلِّية قد عرفناها، فما المخزية؟ فقال: ننزع منكم الحلقة والكراع ونغنم ما أصبنا منكم وتردون علينا ما أصبتم منا وتدون[2] لنا قتلانا ويكون قتلاكم فى النار وتتركون أقواما يتْبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة رسوله ﷺ والمهاجرين أمرا يعذرونكم به ، فعرض أبو بكر ما عرض على القوم فقام عمر بن الخطاب فقال: قد رأيت رأيًا وسنشير عليك: أما ما ذكرت من الحرب المجلِّية أو السلم المخزية فنعم ما ذكرت ، وأما ما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم وتردون ما أصبتم منا فنعم ما ذكرت.

وأما ما ذكرت من قولك : تدون قتلانا ويكون قتلاكم فى النار ، فإن قتلانا قاتلت فقتلت على أمر الله، أجورها على الله فليس لها ديات فتتابع القوم على ما قال عمر رضي الله عنه ، هذا ومن ضرورات تدخل المجادل إذا وجد خطرا محدقا يدق على الأبواب فعندما تكلم الجعد

---

(١) السيرة السلفية – شيخ الإسلام محمد بن على الشوكانى ت ١٢٥٠ هـ ص ٦.

(٢) بمعنى تعطى الدية.

ابن درهم فى العصر الأموى عن خلق القرآن والقول به حتى كان يوم الأضحى فصلى خالد ابن عبد الله القصرى والى الكوفة صلاة العيد وخطب فقال فى آخر خطبته: انصرفوا وضحوا بضحاياكم قبل أن نعارضكم فإنى أريد اليوم أن أضحى بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليما ولا اتخذ الله إبراهيم خليلا؟ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ثم نزل وحزَّ رأسه بالسكين فقتله، وكان الخوض فى شأن القرآن قد اشتد فى عصر الرشيد ولم يكن الرشيد ممن يشجعون الخوض فى العقائد.

والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين فى العقائد من المعتزلة ولما بلغته مقالة بشر بن غياث المريسىّ فى شأن القرآن قال: إن أظفرنى الله به أقتله فظل بشر مختفيا طول خلافة الرشيد ، ومعلوم أن الخوارج[1] جميعا يقولون بخلق القرآن، وقد ذهبوا إلى ذلك استنادا إلى قولهم بالتوحيد على غرار المعتزلة ولقد ذهبوا هذا المذهب مستندين إلى تأويلهم لقول الله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٢] ويقوم تفسيرهم على أن الله خالق كل شىء والقرآن شىء من الأشياء وهو كلام الله خلقه الله وقدره بحسب الحوادث التى ستكون من العباد كما اقتضاها قضاؤه وقدره فإن دلائل الحدوث فى نفسه ظاهرة وهى شاهدة محلقة ولو كان غير مخلوق لكان قديما.. ولو كان قديما لكان مشاركا لله فى صفة القدم..

ولو شاركه فى صفة القدم لتعددت القدماء ولو تعددت القدماء انتفى قدمه الخاص به الذى اتصف به فإنه صار له فيه شركاء وهذا ظاهر الفساد ساقط الاعتبار ولو كان متكلما كخلقه لزم له ما يلزم لخلقه من اللسان التى هى آلة الكلام ولزم له أشداق وفم يخرج منه الكلام وهذا باطل عقلاً.

وجاءت الاعتراضات (مقحمة) لتصيب فى مقتل كل مدَّعٍ لخلق القرآن حتى إن المأمون نكَّل بالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حينما طلب منه أن يفتى بخلق القرآن فلم يزد على

(١) الخوارج – الدكتور عبد القادر البحراوى – الطبعة الثانية – مكتبة النور ص١٠٩، ١٤٠٨هـ .

أن قال: القرآن كلام الله.. وقام المأمون بسجنه وتعذيبه وتصفيده بالأغلال حتى لقى ربه شهيدًا وقد انتفض العلماء أمام الحكام خاصة بعدما أشيع أن عُبَادة (المضحك) دخل على الواثق فقال له: يا أمير المؤمنين.. أعظم الله أجرك فى القرآن..! قال: ويلك آلقرآن يموت؟ قال: يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت..!بالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح إذا مامات القرآن؟ فضحك الواثق وقال له: قاتلك الله أمسك..

ولم تقف المحنة عند الإمام أحمد مع المأمون بل تعدته إلى يوسف بن يحيى البويطى الفقيه المصرى صاحب الشافعى ونعيم بن حماد الذى مات فى سجن الواثق، وأحمد بن نصر الخزاعى الذى قتله الواثق وصلبه وغيرهم من المنافحين والمجادلين عن الحق والدين.. فالجدال إذن هو ضرورة دينية ملزمة لكل من ملك القدرة على الدفاع والذود عن المنهج الحق كما أنه رسالة طوف الآفاقَ شرفُها وعلت المنابر أصواتها..

وكما قلنا إن الزمان والمكان والمواقف هو الوضع الطبيعى لظهور المجادل الملمّ العارف بحدود ما يجادل من أجله.. فإن انحرف الأمر عن هذه القواعد الجامعة والأعراف المتبعة فلابد وأن يسقط المجادل وتنكسر مشاعره بينما تقوى - على حساب ذلك - مزاعم الآخر فلا ريب إذن من اضطلاع المجادل بدوره والإدلاء بدلوه فيما وجب عليه من حق دعت إليه الضرورة واندفعت به الشكوك والأباطيل.




الباب الرابع
الحجة - والإعجاز

الفصل الأول

حجة الله على المعاندين

يخطئ من يظن أن المعاندين – يملكون من الحجج والبراهين ما يمكّنهم من المخاطرة أو القدرة على – دحض – خصومهم أو إبطال دوافع الاستمرار لديهم.. وذلك لأن القول – عمومًا – قد يصيب فى بعض الأشياء ولكنه لا يضمن – بأى شكل – الإصابة – فى كل شىء ووجود الخطأ حتمًا ينفى العصمة.. فقد يكون العقل – المجمل – موجودًا عاملاً وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا فى وجوده ولا فى صلاحه للتفكير ؛ ولأن (التقسيم المنطقى) يخطئ أيضًا كما يخطئ العقل المجمل فى أحكامه المجملة – ولا يقال من أجل ذلك أن التقسيم المنطقى غير موجود أو غير صالح للتفكير فالعقل الذى يميز هو الذى لا يقايض – حقا بباطل ولا يسعى للجاجة أو العناد فليس وجود الله – تعالى – عند (أرسطو) وأمثاله مسألة دينية أو مسألة عينية يختلف الأمر فيها بين الإثبات والنفى كاختلاف الهدى والضلال..ولكنها عندهم – حقيقة عقلية – كالحقائق الهندسية يتم بها تصور الحركات والأشكال فى الأفلاك والسماوات، وهم لا يحجمون عن الاعتراف بالله تعالى – مباشرة – ولكنهم يعقلون أن خلف هذا الإبداع والنظام قوة تحركه وتنظم دورته وكنهه ولكن عند ظهور الأديان(١) التى دعت إلى التوحيد كان الجدل فى صفات الله تعالى أكثر وأعنف من الجدل فى وجوده فقضى (اللاهوتيون) زمنا وهم لا يشعرون بالحاجة إلى إقناع أحد بوجود خالق لهذه المخلوقات، ولم يشعروا بهذه الحاجة إلا بعد اختلاط العقائد الدينية بالآراء الفلسفية ومناظرتهم للفلاسفة والمناطقة فى صناعة الجدل والبرهان..

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لإثبات وجود الله – تعالى

---

(١) الله: كتاب فى نشأة العقيدة الآلهية ، عباس محمود العقاد دار المعارف من ص٢٠٦ وما بعدها.

بالحجة والدليل والبراهين جميعًا لا تغنى عن الوعى الكونى فى مقاربة الإيمان بالله تعالى والشعور بالعقيدة الدينية وأن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شيء لا ينحصر فى عقل إنسان ولا فى دليل يتمخض عنه عقل الإنسان ،وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الأدلة والبراهين وهما نوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المؤمنون.

ونوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المنكرون؛ فإذا كانت أدلة الترجيح للمؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناؤه وأدى القياس رسالته التى يستطيعها فى هذا المجال، وهى فى الواقع أرجح وأصلح للإقناع بالفكر، فضلاً عن الإقناع بالبداهة كما يبدو من كل موازنة (منصفة) بين الكفتين ولا يخفى أن قاعدة الإثبات والنفى فى مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل.. فليس للعقل البشرى خصومة فى الإثبات ولا خصومة فى الإنكار.. وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الإنكار كله فى البحث عن حقيقة الوجود – وليس للمنكر أن يستريح فى مرقده ليقول للمؤمن: إنها قضيتك فابحث عنها وحدك واجتهد لها جهدك ثم أيقظنى لتسمع منى ما أراه فيها تراه فربما كان المنكر هنا هو صاحب الادعاء وهو أحق الخصمين بالجهد فى طلب الدليل – أما المؤمن فوجود الله تعالى عنده لا يحتاج إلى دليل بعد ظهور البراهين الواضحة والأدلة الدامغة والتحكم المطلق فى الكون قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١].

وقال أيضًا: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٨].

وقال جل شأنه: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٩].

وقد أنكر بعض الإلهيين أن يحيط العقل البشرى بحكمة الله وأن تكون لله جل وعلا غايات تناط بالأحياء والمخلوقات وفهموا الغاية على أنها نوع من الحاجة التى يتنزه عنها

الواحد الأحد المستغنى عن كل ما عداه.

وليس أضعف من هذا الاعتراض سواء عممناه على الخلق كله أو فصلناه بالنظر إلى جميع الخلائق من الأحياء وغير الأحياء، فإذا كان الله غنيًا عن الحاجة فالمخلوقات لا تستغنى عنها وإذا كانت حكمة الله أجل وأسمى من طاقة العقل البشرى فالعقل البشرى يستطيع أن يميز بين الأعمال المقصودة والأعمال المرسلة سُدىً بغير قصد وعلى غير هدىً.

وإذا كانت القدرة السرمدية لا تحدُّها الغايات فالكائن المحدد لابد له من غاية ولابد لتلك الغاية من تقدير وتدبير ومن أين يكون التقدير والتدبير فى نظر الإلهيين إن لم يكن من الله تعالى؟.

واقتضت عظمة الله أن تبقى حجته قائمة على المعاندين والمنكرين وسوف نعرض لها – مع ما سبق – من خلال هذه السياقات والأدلة وتتمثل فى الآتى:

١- السياق العام. ٢- السياق الخاص.

فالأول: السياق العام فى القرآن الكريم ، وينبني على خاصتين:

(أ) الخاصة الأولى:

وتشمل عروض (الترغيب) والتى لم تخل منها سورة فى القرآن سواء كان الترغيب عامًا أو خاصًا.. للذكر أو للأنثى.. للأفراد أو الجماعات.. وهذا تأكيد على إبطال الدعاوى الملحدة التى تروج لمفهوم خاطئ، وهو عدم المجازاة على الأعمال.. ودحض مفاهيم الملحدين واليهود والسوقة حول (عدمية الجدوى من الأعمال) وعبثية البحث عما يحسن أو يثيب.. وهذا بالطبع يهدف إلى نشر الماديات واللاوعى ويصافح عالم الروح والتفكير والنظر والتدبر والاعتبار بلطمة ساخنة بلا مبرر ولا معنى لأن الواقع الإيمانى يثبت المجازاة على الأعمال ويعتبر بنتائج المقدمات – وبالثواب والعقاب والجنة والنار إلخ.. وفى هذا العرض القرآنى كفاية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية:٢٤].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر:٣٨].

وأيضا: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٠]. ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل:٨٩].

﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة:٢٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [هود: ٢٣].

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى:٢٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء:١٢٢].

هذا هو ما ينتظره العبد من الجزاء على صالح الأعمال حتى تتحقق ذاتيته الدينية والتي

يتمحض عنها السياق إلى العمل والدفع إلى ساحة الإيمان تهيئة لدخول الجنة قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣]..

وهذه الدالة – الدافعة تعد من أكبر الحجج على إبطال – دعاوى الملحدين والمجادلين بغير حق ، إذ من الحقائق الثابتة أن جنى الثمار يتحقق بعد النضوج والإثمار وأن القراءات الدقيقة للمعارف تعطى نتائج دقيقة ، وأن جدية الأعمال تسرع بالحقائق إلى الوصول والظهور والدعوة الإلحادية إلى (قلب الحقائق) واضح وبين.

(ب) الخاصة الثانية :

وتشمل عروض (الترهيب) حتى لا ترتكب المحرمات والجرائم التى يعاقب عليها الشرع – إذ لابد من رادع للشر.. ولابد من تصد للعدوان – ففى ارتكاب المعاصى والآثام إضرار بالغير فضلاً عن خرق القوانين الشرعية التى (شرعها) الله تعالى لحماية البشر والظلم ورفع الأذى وإبلاغ المخطئ بأنه سينال جزاء خطئه وبأنه واقع تحت طائلة «المطلوبين للعدالة الإلهية» والوقوف للحساب بين يدى الله الخالق الواحد وفى هذا السياق القرآنى يتبين ذلك:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل:٩٠] .

وقال كذلك: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرعد:١٨] .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة:١٦].

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم:٥٩].

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص:٨٤].

﴿ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور:٤٥].

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المرسلات: ١٥].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ:١٧].

﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنبياء:١١].

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس:٤٦].

﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾

[الماعون٥:٤] .

وهذا أيضًا ما يليق بالعاقل – أن يتوقعه لأن الأمور وجميع موازين القوىٰ فى الكون لم ولن تخرج عن قبضته وسلطانه المهيمن.. والمحاسبة لازمة على الأفعال كبرت أو صغرت ومرتكبوا الجنايات لابد من تعقبهم وإن تفلتوا فى الدنيا فلن يفلتوا فى الآخرة.

الثانى: السياق الخاص فى القرآن الكريم وينبني على ثلاث خاصات:

(أ) الخاصة الأولى:

إبطال – دعاوى – نفاة العقيدة من اليهود والنصارى والدهرية.. وبقية الفرق الأخرى.. والرد على هؤلاء وهؤلاء يأتى حاسمًا إذ على نحو ما سلف من أن أدلة المؤمنين على وجود الله عز شأنه وهيمنته وسلطانه على الكون أرجح من أدلة الكافرين لقوة البراهين فيها والحجج وبسط الحق والواقع الدال على تلك القوة التى يعارضها سياق الآيات القرآنية وفحواها ومدلولاتها والشواهد والثوابت الكونية التى لا محالة تحسم الشكوك وتنذر بأشد العواقب للمنكرين والجاحدين الذين ضرب الله بعضهم ببعض وفضح فكرهم وميل هواهم إلى الضلال والتعلق بخيط العنكبوت حيث قال الله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٧: ١١٩].

فإنهم حين اتجهوا إلى عبادة الأصنام والأحجار متمثلة فى اللات والعزىٰ ومناة دللوا

على جهلهم وجحودهم وجنوحهم إلى الضلال المطلق الذى لم يستطيعوا الخروج من (نفقه) المظلم فلما سقطوا فى غياباته استولت عليهم عبادة الشيطان ذاته وجعلوه رمزًا للتمرد على كل عقيدة وكل قيمة حتى أصابته اللعنة وحينما يصور القرآن الكريم هذا الواقع فإنه - يحذر كل الأخيار من مغبة السقوط والخضوع حتى لا يصيبهم الهلاك من اتباعه واستهوائه لهم - كما أن القرآن صور منزلة التحدى التى صرخ بها الشيطان منزلة (السقوط والهبوط) التى تليق - عادة - بالمتكبر الذى لا يملك أى أداة حقيقية للثبات والدوام فمثل هؤلاء والشيطان كمثل العميان الذين لم يستعينوا بأهل البصر والرؤية وانساقوا خلف سراب بقيعة حسبوه ماءً ولكن الحقيقة أخرست ألسنتهم وقتلت جموحهم وأزالت بقايا البقايا من آمال كانت تراودهم.

ونفاة العقيدة - رغم مكابرتهم وعنادهم إلا أنهم - أحيانًا يغيرون من مواقفهم لأنهم لما علموا أن الأصنام لا تنفع ولا تضر قالوا مضطرين:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

وهم هنا فى هذه المرة غيروا موقفهم فاللات والعزى ومناة بالنسبة لهم ليست معبودة ولا مقصودة بالعبادة ولكنها فى نظرهم تقربهم إلى الله وتشفع لهم وتعلى منزلتهم عنده فأى عقل هذا الذى يطلب شفاعة من حجر أو وثن؟ وعند من؟ إن المشركين واليهود والنصارىٰ والدهرية دخلوا خندقًا واحدًا يناضلون من داخله كل حقيقة وكل واقع فهم لا يفكرون كما يفكر الحكماء..

ولا يعقلون كما يعقل النبهاء بل ولا يعى أحدهم بعقله المجرد أن يكون خلف ضلاله وعناده دار تنتظره يقال لها (الجحيم) وإذا كان الدهريون يدّعون أنهم صنعة الدهر وبيده وحده إيجادهم وإعدامهم - فهل يا ترى آلدهر لهم وحدهم أم أنه أيضًا صار لغيرهم ممن اهتدوا وقويت بصائرهم ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾ [الكهف:٥].

إن اللا دينيين يقفون عند محور العقيدة – موقفًا متأرجحًا بين العقل والطبيعة فهم مرة ينقبون عن الحجج التى يردون بها على (الدينيين) وهذا تسليم فى الواقع بأن المطروح عليهم يستحق الرد بها أنه مقنع – تقريبًا – من جهة الخصوم وإلا فبداهة لا يمكن الرد على ما لا قيمة له وقد ثبت بالعقل (أن كل ذى قيمة يُرد عليه وتُستجمع له كل القوى ومرة أخرى – يحيلون الثوابت إلى الطبيعة وأن كل شىء مرده إلى الطبيعة التى تتحكم وتصير وتجسد وكأنهم يعتقدون - وهم يدعون المعرفة – أن الطبيعة ذاتها برهان كونى على وجود قدرة محركة تفوق كل القوى وأن الطبيعة تختلف جواهرها من قارة إلى قارة وباختلافها تتعارض أو تتفق طبائع البشر – وباختلاف الجميع تثبت عدم القدرة والتحقق إلا بيد مالك قادر قاهر).

(ب) الخاصة الثانية :

إبطال دعاوىٰ نفاة القدر والخلق والإبداع الإلهى.. والقول بنسخ الأرواح والحلول.. وما شابه ذلك ودعاوى هؤلاء كذلك شابها كثير من المغالطات فمن حيث إنهم ينفون القدر ويدعون عمدًا أن اللجوء إلى هذا الاعتقاد يلغى العقل من الإبداع والابتكار – على حد زعمهم – وهو بالتالى يلجئ المعتقدين بذلك إلى الصنعة والتسليم ولا يمكن إقامة حضارة أو نهضة شاملة إلا بالعمل والتقدم وإيجاد الآليات والقواعد والضوابط التى تواكب التحضر والتقدم وهذا القول مردود عليه بأن الإيمان بالقدر لا يعنى الاستسلام أو إلغاء العقل.. بل على العكس من ذلك فالإيمان بالقدر يؤكد تحقيق كلمة الله تعالى فى الأرض ويدفع إلى التقدم والنهوض الجماعى للأخذ بأسباب هذا التحضر وأنه لا مجال لأحد على الإطلاق فى أن يفكر مجرد تفكير أنه قادر على إيجاد المقدرات – أو صانع للحضارة دون تدخل إلهى جبار لا ينتهى بزمان أو مكان ولا يحد بحدود ولا يقيد بقيود..

بل إن الإيمان بالقدر أصلاً تحضر علمى باعتباره وصول إلى التسليم بغيب لا يعرفه أحد من الخلق وهو - أى هذا الغيب - خيرًا كان أو غير ذلك متحقق وواقع فى الحياة بإرادة

مدبر مسيطر لا يقدر – مخلوق – على منعه أو دفعه أو الهروب منه مع أننا نعلم علم اليقين بأن هؤلاء يرتبطون بعلماء الكهنوت والتنجيم ويبحثون عن المتنبئين لإخبارهم بالغيب والنهاية والاقتصاد وغير ذلك، أليس هذا من قبلهم تسليم بغيب لا يجادل أحد فى نفى علمهم به أو معرفة وقت وقوعه أو زمن حدوثه .

وعليه فالمؤمنون بالقدر محقُّون فى هذا الإيمان لأن القدر قدرة يتحقق معها المقدر والمغيب وهل يمكن أن نسميه بغير ذلك فماذا كان إذًا إذا لم يسم (قدرًا) .

وفى الحديث الذى أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى[1] والنسائى وابن ماجه عن يحيى ابن يعمر فى رواية ابن عمر قال: (كان أول من تكلم فى القدر بالبصرة «معبد الجهنى» فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميدى حاجين أو معتمرين.. فقلنا : لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر؟ فوفق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما داخلاً فى المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي فظننت أن صاحبي سيَكِل الكلام إلىَّ.. فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم يزعمون أنه لا قدر وأن الأمر أنف... فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى منهم برىء وأنهم منى براء ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر» ثم استدل بقول النبى ﷺ : «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره.. إلخ**»[2].

وعن عمر مولى غفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد – الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ المتوفى سنة ١٢٥٨ =هـ مطبعة دار الحديث ص ٥٥٢، ٥٥٣(باب ما جاء فى منكرى القدر ورواية ابن عمر ... إلخ.

(٢) حديث صحيح : رواه أحمد فى مسنده رقم (٣٤٦) ، وصاحب كنز العمال (١/ ٢٧٢) ، والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وصاحب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، وكتاب الإيمان لابن تيمية (ص ٣) .

رسول الله ﷺ : «**لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر.. من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوه.. وهم شيعة الدَّجالِ.. وحق على الله أن يلحقهم بالدَّجال**»[١] .

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ : «**فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشرِّه أحرقه الله بالنار**[٢]»..

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر قال: «القدر قدرة الرحمن» واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله تعالى .

والمعنى كما قال المؤلف: أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء.. ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى.. فضلّوا عن سواء السبيل[٣]..

وقد قال بعض السلف :

« ناظروهم بالعلم فإن أقرُّوا به خُصموا. وإن جحدوه كفروا» .

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ** ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩] .

وقال أيضًا : ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا** ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] .

---

(١) ضعيف : رواه أبو داود رقم (رواه صاحب كنز العمال رقم (٥٥٢) ، شرح العقيدة الطحاوية للألباني رقم (٢٤٢) ، وانظر السلسلة الضعيفة (٥٧١٤) .

(٢) فتح المجيد ص ٥٥٤.

(٣) نفس المرجع ص٥٥٥.

وتأسيسًا على هذا :

فالقول بأنه لا قدر وأن مصانع التكوين ومختبرات التقدير - تحكمها الآليات وتسيِّرها الطبيعة كلام لا يعتد به بل يجب على المسلم أن يزيل الشبهة عنه - عند الفتنة - بسؤال أهل العلم والمعرفة به، والمنكرون للقدر منكرون ومعهم ثلة من الجاحدين أيضًا للثوابت الكونية وهى التى صنعتها القدرة الإلهية بتحكم وتصيير وإبداع لا مثيل له كما نرى فى نور الشمس وضوء القمر وظلمة الليل وبياض النهار والفصول المختلفة والبرد والحر والماء والنبات وما شابه ذلك من أشياء نعلمها وأخرى غيبى لم يتح للإنسان العلم به إلا إذا أذن الله تعالى له فى ذلك فى يوم وساعة ولحظة يقدرها جل شأنه، والإبداع الإلهى يمحو أى إبداع بشرى - على حدِّ قولهم[1] - .

• ولأن العلم المنوط بالإنسان تعلمه هو معلومات تناسب بشريته وعقليته وإنسانيته وهو - أى الإنسان - إبداع أبدعه العلىُّ القدير وسوّاه وعدله ولقد ذهبت فرقة «التناسخية[2]» إلى القول بتناسخ الأرواح فى الأحياء والانتقال من شخص[3] إلى شخص.. وما يلقى الإنسان من الراحة والتعب والدّعة والنصب فمرتب على ما أسلفه من قبل وهو فى بدن آخر جزاء على ذلك.. والإنسان أبدًا فى أحد أمرين:

أ- إما فى فعل.. ب- وإما فى جزاء.

وما هو فيه : فإما مكافأة على عمل قدمه.. وإما عمل ينتظر المكافأة عليه.. والجنة والنار فى هذه الأبدان.

وأعلى عليين: درجة النبوة.. وأسفل السافلين: دركة الحية.. فلا وجود أعلى من درجة الرسالة.. ولا وجود أسفل من دركة الحية...

---

(١) إذ لا مُبدِع إلا الله عز وجل.

(٢) الملل والنحل للشهرستانى دار الفكر ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) أى عن طريق الحلول.

وقد ساق (الشهر ستانى) قطوفًا من حكم (هرمس[١]) يقول في بعضها:

(أفضل ما فى الإنسان[٢] من الخير العقل.. وأجدر الأشياء ألا يندم عليه صاحبه هو العمل الصالح.. وأفضل ما يحتاج إليه فى تدبير الأمور الاجتهاد.. وأظلم الظلمات الجهل وأوثق الإسار الحرص).

وقال: من لم يعرف عيب نفسه.. فلا قدر لنفسه عنده.

وقال: الفصل بين العاقل والجاهل أن العاقل منطقه له. والجاهل منطقه عليه.

وقال: الغضب سلطان الفظاظة والحرص سلطان الفاقة، وهما منشئا كل سيئة.. ومُفسِدا كل جسد.. ومُهلكا كل روح..

وقال: كل شىء يطاق تغييره إلا الطباع، وكل شىء يُقدَر على إصلاحه غير الخلق السوء.. وكل شىء يستطاع دفعه إلا القضاء.

وقال: أحمد الأشياء عند أهل الأرض والسماء: لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة، والحق فى الجماعة.

وقال: أدحض الناس حجة من شهد على نفسه بدحوض حجته..

وقال: لا تكن أيها الإنسان كالصبى إذا جاع ضغا[٣]، ولا كالعبد إذا شبع طغى، ولا كالجاهل إذا ملك بغى.

وقال: كل إنسان موكل بإصلاح قَدْرِ باعٍ من الأرض.. فإنه إذا أصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها، وإذا أضاعه أضاع الجميع وقَدْرُ ذلك نفسه.

وقال أخيرًا: ليس بحكيم ما لم يعاد الجهل، ولا بنور ما لم يمحق الظلمة، ولا بطيب ما

(١) قيل: هود عليه السلام.
(٢) الملل والنحل: ص ٣٠٠ وما بعدها.
(٣) ضغا: أى صاح.

لم يدفع النتن، ولا بصدق ما لم يدحض الكذب ولا بصالح ما لم يخالف الطالح.

ولقد ساق الشهرستانى هذه الحكم الهرمسية ردًا على مزاعم الفرق التى شرّعت لنفسها أنماطًا عجيبة واتخذت لنفسها مناحى لا تخلص إلى حقائق.. وإذا كانوا اتفقوا على تقييد المنهج ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [غافر:٥].

فلا ريب أن فيما سيق من حكم يقف بهم عند حدود رادعة ومقيدة، والخلاصة: أنه قد ثبت نفى هذه الدعاوى بالكتاب والسنة وانحصرت تلك الدعاوى فى بيان الشبهات – الخارجة – عن المنطق الصائب والتى بلغت حدًا من الجهل والعناد – لا مبرر له – وانكشفت مجانبتها – للصواب – بعد ما أقيمت الحجج ودعمت بالبراهين، وأبطلت كل زعم وشك وسوء فهم.

(ج) الخاصة الثالثة: إبطال – دعاوى – نفاة (العمل):

وهذه كبرى – المفاجآت – وأشدها خطرًا على الثوابت والقواعد الإيمانية ؛ لأن – المعاندين – يحاولون إقناع العامة بأن الثواب والعقاب وما جرى مجراها من الجزاء والحساب – أمور غيبية – تشغل أحلام البسطاء والعجزة ولكن ليس لها فى النهاية عائد أو مردود – مادى ملموس – إذ لا حاجة إلى عمل لا جدوى من ورائه وإن المَنْح يقابله العطاء حاضرًا وإن أحلام العجزة والبسطاء حيال هذا الغيب والعائد المجهول لا يعدو كونه استسلامًا ومحض أوهام.. ولكننا نقول لهؤلاء: إذا كان العمل الذى تقصدونه عملاً نفعيًا تترتب على إنجازه مصالح معينة أو مادية فهذا مقبول ؛ لأن الإسلام حث على إعطاء الأجرة مقابل العمل، والكل منتفع وهو كالشركة والصناعة والتجارة وما شاكل ذلك.

أما العمل الروحى الذى نؤمن به ونسلم بثوابته - نحن المسلمين - فهو ما تختلفون معنا فيه فديننا دين حركيّ وعمليّ لا يكون بالرمز أو بالإشارة ولا باستكانة - المؤمن - أو ابتعاده عن حقل العمل الإسلامى الذى - يظاهره ويسانده - الصدق والإخلاص والصبر والاحتساب وهذه مسائل لا يعرفها المعاندون ولا يعتقدون بها منسوبة إلى غيب يجازى عليه الإنسان فى الآخرة وعندنا - نحن المسلمين - قاعدة (الجزاء من جنس العمل).

وكذلك كان الجزاء[١] مماثلاً للعمل من جنسه فى الخير والشر (فمن ستر مسلمًا ستره الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقال نادمًا أقال الله عثرته يوم القيامة، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن ضار مسلمًا ضارَّ الله به، ومن شاقَّ شق الله عليه، ومن خذل مسلمًا فى موضع يجب نصرته فيه خذله الله فى موضع يجب نصرته فيه، ومن سمّع سمّع الله به والراحمون يرحمهم الرحمن وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، ومن أنفق أنفق عليه، ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه، ومن تجاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصى الله عليه).

فهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه وكله قائم بهذا الأصل وهو إلحاق النظير بالنظير واعتبار المثل بالمثل لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة والمعانى المعتدة فى الأحكام القدرية والشرعية والجزائية ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت واقتضائها

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن قيّم الجوزية - تحقيق وتعليق عصام الدين الضابط دار الحديث (١ / ١٧٧).

لأحكامها وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها ويوجب تخلف أثرها عنها كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾[محمد:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[غافر:٧٥].

وأيضًا: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ١٩، ٢١].

وإنما كان الجزاء من جنس العمل ومضاهاته به للدلالة على العدل الإلهي المطلق ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]

وفي مقام الجزاء الطيب على الأعمال آيات كثيرة نقف منها على هذه الآيات:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾[يونس:٩].

وقوله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[الرحمن:٦٠].

وكذلك: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ

ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وفى الحديث الشريف: «**لا تأكلوا فى آنية الذهب والفضة ولا تشربوا فى صحافها فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة**»[١].

ومن هذا كله يتبين أن: أولئك الذين ينفون الجزاء على العمل سلبًا أو إيجابًا إثباتًا أو نفيًا[٢] إنما يحاولون إخفاء انفعالاتهم وضغائنهم تجاه الإسلام، ويكابرون ويعاندون لصد المسلمين عن التسليم بالثوابت الشرعية التى - يعتقدونها - ويولونها اهتمامًا عظيمًا ولا يجاوزونها إلى غيرها ويطرحون ما عداها؛ لأن القيمة - العملية - إذا كان توأمها الروح وحسن الظن استقرت على الدوام ويتعذر استئصال جذورها أو نزع ثوابتها وبات حقيقًا بالمسلم ألا ينساق أمام هذه الدعاوى المغرضة.



(١) صحيح: أخرجه البخارى رقم (٥٤٩٩)، ومسلم رقم (٥٥٢١)، وأحمد وأبو داود والنسائى انظر صحيح الجامع الصغير (٥٦١).

(٢) فى مفهوم الفعل والترك.

الفصل الثانى

آيات الاحتجاج

وفى القرآن الكريم آيات يسوق الله تعالى من خلالها الحجة – على المعاندين منها:

١- قول الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ٧٦].

٢- قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

٣- قول الله تعالى: ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

٤- قول الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٥- قول الله تعالى: ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ ﴾

[آل عمران: ٢٠].

٦- قول الله تعالى: ﴿ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران: ٦١].

٧- قول الله تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران:٦٦].

٨- قول الله تعالى: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٦٥].

٩- قول الله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٧٣].

١٠- قول الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء:١٦٥].

١١- قول الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: ٨٠].

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

١٣- قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام:١٤٩].

١٤- قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [غافر: ٤٧].

١٥- قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾[الشورى:١٦].

١٦- قول الله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾ [الشورى:١٥].

١٧- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ [الجاثية:٢٥].

ومن هذا العرض العام لآيات الاحتجاج نجد القرآن الكريم قد أحاط بكل المفاهيم وحاج كل الخصوم – مع اختلاف الدوافع والنوازع – ودحض بالحجج الدامغة أفكارهم الضالة – ومعتقداتهم الضالة – وواضح من خلال عرض الآيات أنهم – لوحقوا – فى كل ما ذهبوا إليه – سواء كان ذلك ضد أنبيائهم أو ضد رسلهم عن طريق – البيان والحوار الجدلى – كما ظهر ذلك مع سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه ثم انتصاره عليهم وكما لمحنا ذلك أيضًا فى البيان العام لكل – المعاندين – كما فى قول الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)﴾ [النساء:١٦٥].

ورأينا ذلك أيضًا فى (محاجة) أهل النار بعضهم لبعض وإلقاء اللوم من كل فريق على الآخر بعد أن كانوا يظنون أن العقاب غير واقع.. وأن العذاب غير حاصل.. ثم فى بيان أن حجة الله تعالى هى الغالبة على جميع خلقه فى جميع شؤونهم وعلى جميع أعيانهم وهى الحجة الكبرى التى وصفها – ذو الجلال والإكرام بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)﴾ [الأنعام:١٤٩].

إن دوافع المكر والعناد لم تأت لأصحابها بأى عائد من عوائد الخير ولم تنجح فى فرض

ولا يتهم أو قدرتهم على فرض ما يعتقدونه فضلاً عن نزولهم إلى الدركات السفلى وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى:١٦].

ثم يأتي فاصل من الإقناع الأكيد بأن الماكرين والمعاندين إذا أعيتهم الحيل وضاقت بهم السبل سدوا آذانهم عن سماع الحق كما قال تعالى: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٧].

فكان رد القرآن على أمثال هؤلاء: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ﴾ [الشورى : ١٥].

الفصل الثالث

إشارات واضحة

وفي القرآن الكريم «إشارات» وضح جلاؤها وإحاطتها [1] بأسس عامة تمثلت في:

أولاً: إحاطة القرآن الكريم بعلم الغيب وحقيقته:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ [النمل: ٧٥].

قال الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ١٢٣].

قال الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجن: ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النمل: ٦٥].

---

(١) وهى لإحاطات جامعة للآيات ذات الموضوع الواحد فى إطار معين كالتفسير الموضوعى.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣٣].

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩].

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة: ٩٤].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل:٧٧].

قال الله تعالى: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم:٧٨].

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا

فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ [سبأ:٣].

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٦].

قال الله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة:١٠٩].

قال الله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأعراف:٧].

ثانيًا: إحاطة القرآن الكريم بالحاضر ومعطياته:

قال الله تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥].

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٠].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [آل عمران:١٣٩].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر:٥١].

قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾ [الرعد: ٨].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾

[فاطر: ١١].

قال الله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾

([الأنفال:٨].

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾[الليل: ٥: ١٠].

قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) ﴾[النمل:٨٨].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المؤمنون:٢١].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف:٣٦].

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد:٧].

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٣].

ثالثًا: إحاطة القرآن الكريم بالمستقبل وتوقعاته:

قال الله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون٩٣: ٩٦].

قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ

ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

[الروم١: ٥].

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٨٣].

قال الله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾ [النحل:١].

قال الله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ [القمر١: ٣].

قال الله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء:١].

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر:١٨].

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ

ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢].

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل: ٨].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

[البروج: ١٢: ١٦].

رابعًا: إحاطة القرآن بالمتقابلات وعرض الأضداد:

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ١١].

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ

عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحديد:٣].

قال الله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال الله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان:١٩].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٧].

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٦٨].

قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣].

قال الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون:٨].

قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢: ٢٥].

قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٣٨: ٤٢].

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ [النجم: ٤٣: ٤٤].



الفصل الرابع

دلالات الاحتجاج

القرآن الكريم يسرد الحجج ويسوقها صريحة أو بمعنى الصريحة للتدليل على الوقائع الكونية والتأكد من إثبات ما حقه الإثبات ونفى ما حقه النفى وقد عرّض القرآن الكريم باليهود الذين كانوا يعلمون أن القرآن حق وأن النبى ﷺ حق بدليل أخذ العهد على الأنبياء بتصديقه ونصرته ودعمه ولكنهم –لعنادهم، رفضوا المواجهة خوفًا وجبنًا حتى لا يسلّموا بالواقع خاصة وأن المحاجة تتطلب مواجهة طرفين – متحاجّين – يبرهن كل طرف على قوة حجته.. وأن ضعف الحجة يشير إلى ضعف قضية المحتج وهدفها – فليس له آنذاك – إلا التسليم، قال تعالى فاضحًا كلاً من اليهود والمنافقين بأنهم يخافون محادثة – المؤمنين – حتى لا يحاجوهم عند ربهم لتعمدهم - الكذب والعناد – تارة والتلفيق والتبجح تارة أخرى قال: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [البقرة:٧٦].

ولا يظن[1] بأهل الكتاب أنهم يعتقدون أن إخفاء ما فى الكتب يدفع المحاجة بكونه فيه فى العقبى ؛ لأنه اعتقاد منهم بأنه تعالى لا يعلم ما أنزل فى كتابه وهم براء منه والقول بأن المراد (ليحاجوكم) يوم القيامة وعند المسائل فيكون زائدًا فى ظهور فضيحتكم وتوبيخكم على رءوس الأشهاد فى الموقف العظيم..

فكان القوم يعتقدون أن ظهور ذلك فى الدنيا يزيد ذلك فى الآخرة للفرق بين من

---

(١) روح المعانى للعلامة الألوسى – المتوفى١٢٧٠ هـ (١ / ٤٧٤)دار الفكر.

اعترف وكتم وبين من ثبت على الأفكار.. أو بأن (المحاجة) أنكم بلغتم وخالفتم - تندفع بالإخفاء - يرد عليه أن الإخفاء - حينئذ - إنما يدفع الاحتجاج بإقرارهم لا بما فتح الله عليهم، على أن المدفوع في الوجه الأول زيادة التوبيخ والفضيحة - لا المحاجة - وحمل عند ربكم على يوم القيامة والتزام أن الإخفاء يدفع الاحتجاج ليس بالبعيد ولعله أولى من بعض الوجوه فليتدبر.. فقوة الحجة والدليل يضعف - موقف الخصم - ويفتح عليه أبوابًا من الحجج الأخرى وفي القرآن - أيضًا آيات ذات دلالات - وقناعات - يلجم الله بها الخصوم منها قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

[الكهف: ١٠٣: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

[سبأ: ١٧].

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً

وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

[الحديد:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

[الأنعام:١٤٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر:٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة:٩١].

وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس ٢٤: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس:٩٩].



الفصل الخامس

تعليق

قال الإمام محمد عبده[١] رحمه الله :

(إن الإيمان يعتمد اليقين ولا يجوز الأخذ فيه بالظن وإن العقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله وقدرته).

.. وفى موضع آخر قال:

(بلغ هذا الأصل[٢] بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناجٍ).

(إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه – ويحتمل الإيمان من وجه – حمل على الإيمان) ؛ ولذا كان القرآن دائما كتاب إقناع وهداية يجتمع كله على أصل واحد هو فهم الواقع الذى يلمس ويحس ليبصر به الناس بعيونهم أو يحسوا به بحواسهم ويقدروه ببصيرتهم أى بعقولهم ومداركهم وليس فيها (أوامر مفروضة) بل هى مشاهدات ثابتة تستنبط منها نتائج لازمة، وأول ما يبديه العقل من صور الإقناع تسليم الجميع باستحالة صدور القرآن من مصدر بشرى على ما سلف من بيان، وتتابع بعد ذلك حجج الله على الناس بما يقرءونه فى صفحات الكون العظيم، ويستنبطون منه فالقرآن يذكر الآيات، ويورد النبوات، ويستعمل القسم ويخاطب الفطرة، ويبين السنن التى لا تختلف، ويستعمل التحدى للمكابر وفى كل أولئك احتجاج بواقع لا يمكنهم أن يتماروا فيه[٣]!!.

---

(١) ولد فى محلة نصر – بشبراخيت – بحيرة – توفى ١٩٠٥.

(٢) القرآن والمنهج العلمى المعاصر – ص٣٤.

(٣) نفس المرجع ص ٣٦.

والقرآن يتحدى –المكابر– بالفطرة التى يتجه بها إلى خالقه كهيئة ما يتجه الوليد إلى أمه[1] إذا حزبه الأمر لأنها سبب وجوده وإليها ملاذه ومن ذلك قوله تعالى فى القرآن مثلاً:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس:٢٢].

ويتحدى بعظمة خلقه فيبهت المكابرين إذ يستسلمون مبلسين قال الله تعالى:

﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان:١١].

فضلا عما ساقه القرآن الكريم من حجج على المعاندين التائهين فى وصف الكون وسننه، والطبيعة وأطوارها، والخلائق وأوصافهم والأمم والأفراد والقرون والأزمان، وكلها لا تختلف فى الأكوان بل إن مصدرها جميعا إلى الله عز وجل ، ونجد دائما فى كل حجة قرآنية شهادة بالحواس لينزل عليها حكم العقل[2] ويتخذ الأكوان كلها والأشياء كلها مجالات تعمل فيها الملكات للاستقراء والاستنباط وهى جماع وسائل المعرفة.

---

(١) نفس المصدر ص ٣٨.

(٢) القرآن والمنهج المعاصر ص ٤٣.

قال الإمام محمد عبده رحمه الله :

(هذا وقد جاء فى الكتاب[1] من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر فى قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ ﴾ [الروم: ١ : ٥].

وكالوعد الصريح فى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ [النور: ٥٥].

وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن الكريم كثير من هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدى العرب به واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية، ووفرة سكانها، وتباعد أطرافها، وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها).

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج٧ ص٦٧٥ وما بعدها.

وفى موضوع آخر يقول[1] :

(ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزامٌ كالذى التزمه وشرط كالذى شرطه على نفسه لغلبة الظنّ عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته، وإنما ذلكم هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه).

ومرة أخرى يقول الإمام[2]:

(يقول واهمٌ إنِ العجز حجَّة على من عجز، فإن العجز هو حجة الإفحام وإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلَّمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل).

ونعود إلى الأستاذ / محمد فريد وجدى وهو يصف القرآن بأن أصوله تقرر سعادة الأمم وتقيم الحجة على المكابرين والمعاندين بقوة حجته وبيانه ومصارمته أهل الباطل والوقوف لهم بالمرصاد دائمًا فيقول:

(أحدث القرآن انقلابا اجتماعيا فى الأمة العربية[3] لم يكن متوقعا فى جميع أدواء حياتها فبعد أن كانت قبائل جاهلية بعيدة من مظانّ التطورات الاجتماعية التى تأخذ بالشعوب إلى منصات الرفعة والسؤدد أصبحت أمة متوحدة الوجهة تنشد غاية من أسمى الغايات الاجتماعية أهّلتها لأن تكون صاحبة الخلافة على الأرض لا يشاركها فيها مناظر من الأمم المناظرة لها!!) .

---

(١) صاحب دائرة المعارف أ/ محمد فريد وجدى ص٦٧٥ .

(٢) محمد عبده نفس المصدر ص٦٧٥ وما بعدها.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين ص٦٨٠ وما بعدها.

ويقول: (ليس فى قيام الأمة العربية شىء مما يخالف النظام الطبيعى لأن تكون الأمم من القبائل تحت تعليم - مصلح اجتماعى - ولا يعد من الشذوذ من الأمور الاجتماعية ولكن وجه العجب فيه أنه أتى طفرة - فلم يكدْ يُشيع المشيعون فى المدن الرومانية والفارسية واليونانية بأن رسولا ظهر فى أقصىٰ بلاد العرب يدعو قومه إلى دين - إلا وطلائع جيوش أولئك القوم يحيط بأسوار تلك المدن تدعو أهلها لواحد من ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب).

والقرآن أجمل وفصَّل - حسب اللزوم - فجاء مصدر «السنة» أيضًا ليفصّل المجمل ويدلِّل للمفصل وذلك لقصد نبيل وهو بيان العلاقة الكاملة بينهما - لإحاطة الأمم كلها بعدم التعارض ولحسم أى خلافات قد تطرأ بين «العلماء» يومًا عند تناولهم لمسألة أو تشريع.

ولذلك كان القرآن والسنة على ثلاثة أوجه من التوافق والتعانق على ما يأتى:

الأول: موافقة السنة للقرآن من كل وجه.... فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد[1] من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثانى: كون السنة بيانًا لما أريد بالقرآن وتفسيرًا له.

الثالث: إيجاب السنة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لحكم سكت القرآن عن تحريمه - وهى لا تعارض القرآن بوجه من الوجوه فما كان منها زائدًا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبى ﷺ تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته، وليس هذا تقديمًا لها على كتاب الله تعالى بل هى امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ﷺ ولو كان الرسول ﷺ لا يطاع فى هذا القسم لم يكن لطاعته معنى؟ وسقطت طاعته المختصة به قال الله تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ

---

(١) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين - ابن قيم الجوزية - تحقيق عصام الدين الضبابطى، ط دار الحديث ص٢٦٣.

حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧].

وقد ثبتت - محاجّة - رسول الله ﷺ لكفار مكة واليهود والمنافقين بما أوضحناه سلفا من سياق الآيات القرآنية ؛ ولأن الاحتجاج بالسنة هو فرع عن الاحتجاج بالقرآن الكريم.

وبهذه الدلالات وتلك الإشارات اللفظية التى دلت على الشمول «العام والخاص والمشترك[1]» ودلالة المنطوق والمفهوم وتقسيم المعنى من حيث الظهور والخفاء عرف العلماء كيفية إفحام الخصوم حتى تجاوزوا الوسائل غير اللفظية والتى تشمل حركات الجسم وما تحمله من دلالات لغوية **ومن هذا اللون ما جاء فى القرآن الكريم مثل:**

(أ) شخوص البصر عند الدهشة: كقول الله تعالى: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وهذا الندم عندما يتحقق - يأخذ بالألباب والأبصار.

(ب) غلُّ اليدَيْن إلى العنق للإشارة إلى البخل: كما فى قوله عز شأنه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

---

(١) الموسوعة الإسلامية العامة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية د/ حمدى زقزوق ٢٠٠١.

وقد أشار الجاحظ إلى أن : أحسن الإشارة ما يكون باليد والرَّأس يقنع الخصم ويهيئه طبقا لقبول الكلام والاستماع إليه وهو من حسن وتمام البيان باللسان كما تتواصل العين والجفن للتفاهم بين اثنين بطريقة تخفى على الآخرين فى أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس ومن غير الجليس، ولعلماء النفس دراية يؤكدون بها انجذاب الإنسان لغيره لخفة حركته أو إشارته أو تهيؤه لموقف يتطلب شكلا معينا من الأشكال ..

وتبقى الدلالات والإشارات مع هذه العوامل هى المحركة للعقل والمنشطة للفكر وتنتهى الحجة بإعلان المواقف «رسميًا» حتى يغلق باب اللجاجة والخلاف..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه:

«مررت أنا وبعض أصحابى فى زمن التتار بقوم[1] يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معى ، فأنكرت عليه – أى على من أنكر عليهم – وقلت له: إنما حرَّم الله الخمر لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذرِّية وأخذ الأموال فدعهم!!».

هذه هى الإشارات والدلالات التى تقوِّى الحجة وتقنع الجميع وتقوى جناب المسلمين!!.



(١) القرآن والمنهج العلمى المعاصر ص٢٨٤.


الباب الخامس

مقدمة

احتوىٰ القرآن الكريم على أنواع من الجدل تلخص حالات معينة وتبين مواقف خاصة إما للفت النظر إلى تلك الحالات وإما لسوّق العبرة والموعظة وإما لضرب الأمثال لتكون هديا ونبراسا للبشرية واستحواذًا على بيان ومقادير الخلائق ونشر أنواعها وصفاتها وجواهرها وتعريف الناس بها وهذا مبسوط فى عروض القرآن وحواره البليغ كما فى قصة صاحب الجنتين الوارد ذكرهافى سورة الكهف من الآية رقم ٣٢: ٤٣ والقائم على المقدمات والنتائج بغية الوصول إلى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم..

وكما فى الحوار الوارد ذكره أيضًا فى سورة القلم حول أصحاب الجنة من الآية رقم ١٧ : ٣٢ وحقيق بمن عرف وتذوق أن يزداد من الخيرات ويتشوق وهذا هو الملحوظ من عروض الآيات الكريمة، وإنما يعنينا فى هذا الباب بيان أنواع الجدل المختلفة والمتنوعة لإظهار بلاغة وعظمة وجلال القرآن تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ويحتوى هذا الباب على فصول ثمانية ومتنوعة فى الجدل على ما يأتى فى الصفحات اللاحقة مع الاستدلال من القرآن الكريم والسنة النبوية.



الفصل الأول

الجن والإنس

نبذة عن الجن :

الجن: نوع من الأرواح العاقلة المريدة على نحو ما عليه[1] روح الإنسان ولكنهم مجردون عن المادة وليس لنا علم بهذا النوع من الأرواح إلا بما هدانا إليه القرآن العظيم من أنهم عالم قائم بذاته وأنهم قبائل وطوائف وأن منهم مسلمين وكافرين.

قال إمام الحرمين[2] :

اعلموا رحمكم الله أن كثيرًا من الفلاسفة وجماهير القدرية وكافة الزنادقة أنكروا الشياطين والجن رأسًا ولا يبعد لو أنكر ذلك من لا يتدبر ولا يتثبت بالشريعة وإنما العجب من إنكار القدرية مع نصوص القرآن وتواتر الأخبار واستفاضة الآثار .

وقال القاضى أبو بكر البلاقلانى[3] :

وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديمًا وينفون[4] وجودهم الآن ومنهم من يقر بوجودهم ويزعم أنهم لا يُرون لرقة أجسامهم ونفوذ الشعاع فيها.

ومنهم من قال : إنما لا يُرون لأنهم لا ألوان لهم .

---

(١) دائرة معارف القرن من ص١٨٥ ج٣.

(٢) الإمام مالك بن أنس الأصبحى الحميرى ت: ١٧٩ هـ.

(٣) الإمام العالم محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر تـ/ ٤٠٣ هـ .

(٤) أحكام الجان: الإمام بدر الدين أبى عبد الله الشبلى ت/ ٧٦٩ هـ تحقيق د/ السيد الجميلي – دار ابن زيدون بيروت من ص١٥.

ثم قال إمام الحرمين: والتمسك بالظواهر والآحاد تكلف منا مع إجماع كافة العلماء في عصر الصحابة والتابعين على وجود الشياطين والاستعاذة بالله منهم ومن شرورهم ولا يراغم في مثل هذا الاتفاق متدين متشبث بمسكة من الدين فمن لم يرتدع بهذا وأمثاله فينبغي أن يتهم في الدين ويعترف بالانسلال منه على أنه ليس في إثبات الشياطين ومردة الجن ما يقدح في أصل من أصول العقل وقضية من قضاياه وأكبر ما يستروحون إليه خطور الجن بنا ونحن لا نراهم ولو شاءت أبدلت لنا أنفسها وإنما يستبعد ذلك من لم يحط علما بعجائب المقدورات وقولهم في الجن يجرهم إلى إنكار الحفظة من الملائكة عليهم السلام ومن انتهى بهم المذهب إلى هذا وضح افتضاحه.

الجن يعرفنا بنفسه من القرآن :

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا

رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن: ١: ١٥].

قال أبو عمر بن[١] عبد البر :

الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان منزلون على مراتب فإذا ذكروا الجن خالصا قالوا: جنىٌّ - فإذا أرادوا أنه ممكن يسكن مع الناس قالوا: عامر والجمع عمار - فإن كان ممن يعرض للصبيان قالوا: أرواح فإن خبث وتعزم فهو شيطان فإن زاد على ذلك فهو مارد فإن زاد على ذلك وقوى أمره قالوا: عفريت والجمع عفاريت والله أعلم بالصواب... انتهى.

وقال أبو حذيفة إسحاق بن بشر القرشى فى المبتدأ :

حدثنا عثمان حدثنا الأعمش عن بكير بن الأخنس عن عبد الرحمن بن سابط القرشى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: (وكان الجن سكان الأرض والملائكة سكان السماء وهم عمارها لكل سماء ملائكة ولكل أهل سماء صلاة وتسبيح ودعاء فكل سماء فوق سمائهم أشد عبادة وأكثر دعاء وصلاة وتسبيحا من الذين تحتهم فكانت الملائكة عمار السماء والجن عمار الأرض) انتهى كلامه .

والجن مكلفون بإجماع أهل النظر وكان فيهم أنبياء قبل بعثة النبى ﷺ وهم داخلون فى عموم بعثته صلوات الله عليه وسلامه ومن الثابت أن الجن يحمل العلم عن الإنس وإمكان وعظ الجن للإنس وتعليمه للطب وتأثير الجن على الإنس بسبب ما منحوا من قدرات تزيد عن الإنس، كما أنه من اليقين تأثير القرآن الكريم على أبدان الجن وأنهم تصفد مردتهم بالأغلال فى شهر رمضان.

حديث الإمام الطبرى[٢] :

حدث الطبرى عن عبد الصمد بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه وقد سئل عن

---

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد عبد البر النمرى القرطبى ت ٤٦٣ هـ.

(٢) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبرى ت ٣١٦ المفسر والمؤرخ.

الجن ما هم؟ وهل يأكلون ويشربون ويموتون ويتناكحون؟ قال: هم أجناس: فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويموتون والتى منها السعالى والغول وأشباه ذلك ، وقد ورد فى القرآن الكريم أن الجن سخرت لسليمان عليه السلام حيث قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

قال العلماء : الظاهر أن التسخير كان لكفارهم دون المؤمنين منهم لإطلاق الشياطين عليهم وبقولهم ﴿ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أى من أن يزيغوا عن أمره.

قال الجبائى : كيف تتهيأ لهم هذه الأعمال مع أن أجسامهم رقيقة وإنما يمكنهم الوسوسة فقط فلعل الله تعالى كثف أجسامهم خاصة وقواهم على تلك الأعمال الشاقة وزاد فى عظمهم معجزة لسليمان عليه السلام فلما مات سليمان ردهم إلى الخلقة الأولى إذ لو أبقاهم على الخلقة الثانية لكان شبهة على الناس فلعل بعض الناس يدعى النبوة وجعله دلالة عليها .

ولكن اعترض على هذا من الإمام فخر الدين الرازى حيث قال:

لم قلت إن الجن أجسام فلعلهم من الموجودات التى ليست متحيزة ولا حالّة فى التحيز ولا يلزم منه الاشتراك مع البارئ فإن الاشتراك نفى اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك فى الملزومات فضلا عن اللوازم السلبية، سلمنا أن الجن أجسام لكن لم قلت أن البينة شرط للقدرة وليس فى يدكم إلا الاستقراء الضعيف وسلمنا كذلك أنه لابد من تكثيف أجسامهم فمن أين يلزم ردهم إلى الخلقة الأولى؟

وقد اختلف أهل التأويل فى الجن هل أرسل إليهم رسل منهم؟ فقال بعضهم: قد أرسل إليهم رسل كما أرسل إلى الإنس ومنهم الضحاك ، وقال آخرون : لم يرسل إليهم رسل منهم وليس من الجن مرسل قط ولكن منهم منذرين فقط واستدلوا بقول الله تعالى:

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ (١٣٠) ﴾[الأنعام: ١٣٠].

وقالوا: إنما قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾.

والرسل من أحد الفرقتين كما قيل: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ [الرحمن: ١٩].

ثم قال: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن: ٢٠] ثم قوله بعد: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) ﴾ [الرحمن: ٢٢] إنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من المالح دون العذب منهما.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد برسل الجن الأفراد الذين يرسلهم الرسل إلى قومهم منذرين فتأويل الآية على قوله: ألم يأتكم أيها الجن والإنس رسل منكم فأما رسل الإنس فرسل من الله إليهم وأما رسل الجن فرسل رسل الله من بنى آدم.

قال الطبرى: وأما الذين قالوا: إن الله تعالى ذكره أخبر أن من الجن رسلاً أرسلوا إليهم كما أخبر أن من الإنس رسلاً أرسلوا إليهم.

قالوا: ولو جاز أن يكون خبره عن رسل الجن أنهم بمعنى رسل الإنس جاز أن يكون خبره عن رسل الإنس بمعنى أنهم رسل الجن قالوا فى فساد هذا المعنى ما يدل على أن الخبرين جميعًا بمعنى الخبر عنهم أنهم رسل لأن ذلك هو المعروف فى الخطاب دون غيره.. انتهى.

عرض الآيات:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النمل: ١٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل: ٣٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [سبأ: ١٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤١].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت: ٢٥].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت: ٢٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٨].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر: ٢٧].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٩].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٦].

تتمة:

يجوز إبراء المصاب بالجن ولا ضرورة إلى إبرائه إلا بوجهين:

أحدهما: ما يعتقده العامة بالعلاج «بالعزائم» وقد ثبت أن ذلك لا يؤثر في المصاب بل قد يزيده شرًا.

ثانيهما: أن في الحق ما يغنى عن الباطل والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف:

الأول: قوم يكذبون بدخول الجن في الإنس.

الثاني: وقوم يدفعون ذلك بالعزائم المذمومة فهؤلاء يكذبون بالموجود وهؤلاء يكفرون بالرب المعبود.

الثالث: الأمة الوسطى تصدق بالحق الموجود وتؤمن بالإله المعبود وبعبادته ودعائه وذكره وأسمائه وكلامه كل هذا يدفع شياطين الإنس والجن.



الفصل الثانى

الجن والجن

روى الطبرى أن سعيد بن جبير قال :

لما بعث النبى ﷺ حرست السماء فقال الشيطان: ما حرست إلا لأمر قد حدث فى الأرض فبعث سراياه فى الأرض فوجدوا النبى ﷺ قائما يصلي الفجر بأصحابه بنخلة وهو يقرأ فاستمعوا له حتى إذا فرغ ولّوا إلى قومهم منذرين ومحذرين.

واختلف فى حضورهم إلى النبى ﷺ فقال بعضهم: حضروا إلى رسول الله ﷺ يتعرفون الأمر الذى حدث من قِبَله ما حدث فى السماء ورسول الله ﷺ لا يشعر بمكانهم.

وقال آخرون: بل أمر النبى ﷺ بأن يقرأ عليهم القرآن وأنهم جمعوا له بعد أن تقدم الله إليه بإنذارهم وأمره تعالى له بقراءة القرآن عليهم .

وذكر قتادة : أن النبى ﷺ قال: إنى أمرت أن أقرأ القرآن على الجن فأيكم يتبعنى؟ فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا.

فأتبعه عبد الله بن مسعود فدخل رسول الله ﷺ شعبًا يقال له شعب الحجون وخط على عبد الله خطًا ليثبته به قال : أى - عبد الله بن مسعود - فجعلت تهوى بى وأرى أمثال النسور تمشى فى رفوفها وسمعت لغطًا شديدًا حتى خفت على رسول الله ﷺ ثم تلا الرسول ﷺ القرآن فلما رجع قلت: يا نبى الله ما اللغط الذى سمعت؟ قال اجتمعوا إلىَّ فى قتيل كان بينهم فقضى بينهم بالحق.. كما روى عن ابن مسعود: أنه لما قدم الكوفة رأى

شيوخًا من الزطِّ فراعوه قال: من هؤلاء؟ قيل: نفر من الأعاجم قال: ما رأيت للذين قرأ عليهم النبى ﷺ القرآن من الجن شبهًا أدنى من هؤلاء.

كما ذكر عن ابن مسعود أيضًا أن النبى ﷺ خط عليه خطًا وقال له: لا تبرح منها ثم ذكر أن مثل العجاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ فذعر ابن مسعود ثلاث مرات حتى إذا كان قريبًا من الصبح أتى إليه رسول الله ﷺ فقال له: أنمت؟ قال: لا والله يا رسول الله لقد هممت مرارًا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول: اجلسوا. قال: لو خرجت لم آمن أن يختطفك بعضهم.

ثم قال لعبد الله: هل رأيت شيئًا؟ قال: نعم رأيت رجالاً سودًا مستشفرى[1] ثياب بيض، قال: أولئك جن نصيبين سألونى المتاع –الزاد– فمتعتهم كل عظم حائل أو بعرة أو روثة. فقال: يا رسول الله وما يغنى ذلك عنهم؟ قال: إنهم لن يجدوا عظمًا إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت فلا يستجمرنَّ أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة.

بين يدى الآيات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩: ٣٢].

---

(١) ظاهرين فى ثياب بيض.

معنى الآية :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان الجن سبعة(٢) من جن نصيبين فجعلهم الرسول صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم.. وقال زرّ بن حبيش: كانوا تسعة أحدهم زوبعة.

وقال قتادة : إنهم من أهل حران .

وقال عكرمة: من جزيرة الموصل – وقيل فى أسمائهم : شاطر وماصر ومنشى وماشى والأحقب.

وقد ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد ومنهم عمر بن جابر ذكره ابن سلام من طريق أبى إسحاق السبيعى عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان فى نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حية قتيل فعمد رجل منا إلى ردائه فشقه وكفن الحية ببعضه ودفنها.

فلما جن الليل إذ امرأتان تسألان : أيكم دفن عمرو بن جابر؟ فقالتا: إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه، إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين فقتل عمرو وهو الحية التى رأيتم وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم ولَّوا إلى قومهم منذرين.

وذكر ابن سلام رواية أخرى أن الذى كفنه هو صفوان بن المعطل.

كما ذكر الماوردى أسماءهم عن مجاهد فقال : حس ومس ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم.

وذكرها أبو عمرو وعثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدثنا محمد بن البراء قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: كان حمزة بن عتبة بن أبى لهب يسمى جنَّ نصيبين الذين

---

(٢) الجامع لأحكام القرآن(١٦/ ٢١٣) لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٧م .

قدموا على رسول الله ﷺ فيقول: حس ومس وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيان فلما حضروا القرآن واستمعوا له قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن وكان النبى ﷺ يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا: أنصتوا.. قالوا: صَهْ وكانوا سبعة أحدهم زوبعة فنزلت الآية ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فلما قضى النبى ﷺ قراءته وذلك قبل الصلاة وكانت صلاة الفجر.. انصرف الجن بأمر النبى ﷺ إلى قومهم منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا وفى هذا دليل على أنهم آمنوا برسول الله ﷺ وأنه أرسلهم ويدل على هذا قولهم:

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾.

وفيه دليل على أن الجن كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب وقال الحسن: ليس لمؤمن الجن غير النجاة من النار والدليل:

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

وبه قال أبو حنيفة: ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار ثم يقال لهم: كونوا ترابا مثل البهائم، وقيل إنهم كما يعاقبون فى الإساءة يجازون بالإحسان مثل الإنس.

وقال الضحاك : الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون

قال الإمام القشيرى : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء والعلم عند الله.

كما روى أنهم كانوا يهودًا[1] وقد أسلموا – أى– رسل هذه الواقعة وأسلم من قومهم

---

(١) حاشية الجمل ج٤ سليمان بن عمر العجيلي الشافعى الشهير بالجمل ت ١٢٠٤ هـ ص ١٣٧ – مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر.

حين رجعوا وأنذروهم سبعون ، فالجن لهم ملل مثل الإنس ففيهم اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام وفى مسلميهم مبتدعة ومن يقول بالقدر وخلق القرآن ونحو ذلك من المذاهب والبدع وروى أنهم ثلاثة أصناف:

الأول: صنف لهم أجنحة يطيرون بها، والثاني: صنف على صورة الحيات والكلاب الثالث: صنف يحِلُّون ويظعنون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما أريد بقوله: ﴿ كِتَٰبًا أُنزِلَ[1] مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أى القرآن موافقا بالتوحيد وصفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته لما بين يديه من التوراة وكانوا قد آمنوا بموسى عليه السلام وأبلغوا قومهم أن من لا يجب داعى الله فليس بغائب من عذاب الله يوم القيامة وليس له أولياء ينفعونه إذا حل به العذاب ؛ لأنه لن ينفعه إلا الإيمان عندئذ والله أعلم.



(١) تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس: لأبى طاهر بن يعقوب الفيروزابادى م الأنوار المحمدية ص٤٢٦.

الفصل الثالث

مؤمن آل فرعون

لما التجأ موسى عليه السلام [١] إلى الله تعالى وفوض إليه أمره فى دفع هذا الشر الصادر من اللعين فرعون قيض الله له من يتصدى لدفع فرعون وملئه ومخاصمتهم.

قال مقاتل: هذا الرجل والذى أخبر الله عنه فى سورة القصص بقوله:

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ [القصص: ٢٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأت فرعون غير المؤمن الذى أنذر موسى فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾[القصص: ٢٠].

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **الصديقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم** »[٢].

وكان اسم ذلك الرجل: حزقيل عند ابن عباس وأكثر العلماء.

وقال ابن إسحاق: كان اسمه جبريل وقيل: حبيب وفى مبهمات القرآن أن اسمه شمعان.

---

(١) الفتوحات الإلهية، حاشية الجمل.

(٢) انظر: كنز العمال حديث رقم (٣٢٩٨٩) ونص الحديث فى ضعيف الجامع: (الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يس الذى قال: (يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) و حزقيل مؤمن آل فرعون الذى قال: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) وعلي بن أبى طالب وهو أفضلهم). ضعيف الجامع حديث رقم (٣٥٤٩) وهو موضوع وانظر السلسلة الضعيفة (١ / ٥٣٠).

قال القشيرى: ومن جعله إسرائيليا ففيه بُعد ؛ لأنه يقال: كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢] .

وأيضًا: ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول.. ومن جعله قبطيا فمَنْ عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل والتقدير: وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون رأى من أهله وأقاربه.

ويرى الطبرى: أنه من قوم موسى وكتم إيمانه وقيل: كان ابن عم[1] فرعون ، وقام فيهم ناصحًا يحفزهم إلى تصديقه وينذرهم محذرًا لهم من قتله أو الاعتداء عليه وقد أهمهم أمره.

عـرض الآيـات :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ

(١) مختصر الطبرى: أبو يحيى التجيبى الأندلسى.

قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر: ٢٨: ٣٤]

ثم يأتي هذا الاستئناف وابتداء الخطاب بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر: ٣٥].

وينطلق هذا البيان الغريب والأعمى من البلاط الفرعوني:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر: ٣٦: ٣٧].

ثم يعود الرجل الهادئ الصالح لقراءة المستقبل وتحديد النهاية:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾

فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر: ٣٨: ٤٤].

قال السدى: كان الرجل من آل فرعون وهو الذى نجا مع موسى عليه السلام وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص: ٢٠].

وقال به أيضًا مقاتل: والواقع أن ظاهر الآيات يبين ما كان يتمتع به مؤمن آل فرعون من حصانة ورجاحة عقل كما أنه عندما وجه رسالته إلى قومه لم يخاطبهم خطابًا عنيفًا كما أنه لم يبدُ متهاونا بل إنه ركب طريقا وسطا حاول به إقناعهم للإيمان بموسى عليه السلام وبما يدعوهم إليه ولما لم يجد استجابة منهم فوض الأمر لله مذكرا لهم بأنهم يومًا ما سيذكرون قوله ونصحه ولكن هيهات يومئذ من الخلاص أو النجاة؟

وسبق عند عرض الآية الواردة فى سورة القصص من أن مؤمن آل فرعون حفز موسى عليه السلام للخروج من مصر حيث إن الملأ من قوم فرعون كانوا يخططون لقتله وذلك عندما تشاوروا فى أمره بعد قتل القبطى ، وقيل: كان ذلك الرجل المؤمن بحضرة موسى عليه السلام عندما قال له الإسرائيلي: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص: ١٩] بعد إفشاء الخبر وعلم أهل القتيل.. وقبل الكليم عليه السلام نصح الرجل وخرج لتتواكب الأحداث المعروضة فى سورة القصص من لقائه بنبى الله شعيب عليه السلام والتزوج من إحدى ابنتيه وكانت هى الصغرى واسمها (صفورا) ليمضى موسى عليه السلام فى الدعوة العامة لرسالته على نحو ما فصل القرآن الكريم.



الفصل الرابع

خولة بنت ثعلبة

أخرج الحاكم[١] وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذى وسع سمعه كل شيء. إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضُه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وتقول: يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى، حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى اللهم إنى أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ١: ٤].

---

(١) مختصر تفسير الطبرى: العلامة أبو يحيى التجيبى الأندلسى صـ٥٤٧ مركز الحرمين مكة المكرمة.

وعن سبب ذلك قال صاحب الفتوحات الإلهية[١].

روى أنها كانت حسنة الجسم فدخل عليها زوجها مرة فرآها ساجدة فى الصلاة فنظر إلى عجيزتها فأعجبه أمرها فلما انصرفت من الصلاة طلب وقاعها فأبت فغضب عليها، وكان به لمم – مس من الجن – فأصابه بعض لممه فقال: أنت عليَّ كظهر أمى ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق الجاهلية فقال: ما أظنك إلا قد حرمت عليَّ، فقالت: والله ماذاك طلاق فأتت رسول الله ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه فقالت: يا رسول الله إن زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالى وأفنى شبابى وتفرق أهلي وكبر سنى ظاهر منى وقد ندم فهل من شيء يجمعنى وإياه تنعشنى به..؟

فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه» فقالت: يا رسول الله والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وإنه أبو ولدى وأحب الناس إلىَّ فقال رسول الله ﷺ «حرمت عليه» فقالت: أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى قد طالت له صحبتى ونقضت له بطنى فقال رسول الله ﷺ ما أراك إلا حرمت عليه ولم أومر فى شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وتقول: إنَ لى صبية صغارًا إن ضممتهم إلىَّ جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم أشكو إليك اللهم فأنزل على لسان نبيك فَرَجى فكان هذا أول ظهار فى الإسلام.

فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت: انظر فى أمرى جعلنى الله فداك يا رسول الله فقالت عائشة: اقصرى حديثك ومجادلتك أما رأيت وجه رسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه وحى أخذه مثل السبات – أى النوم – فلما قضى الوحى قال: ادعى لى زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله ﷺ ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾

---

(١) الفتوحات الإلهية بشرح حاشية الجمل من صـ ٢٩٨ المرجع السابق.

إلى قوله: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ .

وروى الشيخان عن عائشة قالت: الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات لقد جادلت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ وكلمته وأنا فى جانب البيت وما أسمع ما تقول فأنزل الله﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ .. الآيات .

فقال ﷺ : «هل تستطيع العتق؟» فقال: لا والله.. فقال: «هل تستطيع الصوم» فقال: لا والله إنى إن أخطأنى الأكل فى اليوم مرة أو مرتين كَلَّ بصرى وظننت أنى أموت.. قال: «فأطعم ستين مسكيناً». قال: ما أجد إلا أن تعيننى منك بمعونة وصِلة فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعا فتصدق بها على ستين مسكينا.

وقيل: إنه كان من دواعى الإجابة كثرة إلحاحها فى المسألة ومبالغتها فى التضرع ومدافعته ﷺ إياها.

ويرى ابن عباس رضي الله عنهما أن خولة لما أبت عليه رغبته منها غضب وقال لها: إن خرجت[1] من البيت قبل أن أفعل فأنت علىَّ كظهر أمِّى، والظهار أن يقول الرَّجل لأمرأته: أنت علىَّ كظهر أمى.

ويفصح القرآن على أن المُظاهَر منها ليست أُمًّا فى الحقيقة وإنما الأمهات هن اللاتى ولدن أو أرضعن ثم يأتى حكم الظهار قبل مباشرة المظاهر ممن ظاهر منها بأحد أمور وأحكام ثلاثة وهى الكفارات:

الأول: تحرير رقبة. **الثانى:** صيام شهرين متتابعين. **الثالث:** إطعام ستين مسكينًا.

ثم يعقب القرآن بعد هذا بعدم التعدِّى على حدود الله بقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ

---

(١) تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس ص ٤٦٠ .

اللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ [المجادلة: ٤].

وقد ذهب الطبرى إلى أن اسم المجادلة هو:

خويلة بنت الدليج، وقيل: ابنة ثعلب، وقيل: ابنة خويلد.

موقف لخولة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بها فى زمن خلافته[1] وهو على حمار والناس حوله فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تدعى عميرًا ثم قيل لك يا عمر ثم قيل لك يا أمير المؤمنين فاتق الله يا عمر؟ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ومن أيقن بالحساب خاف العذاب - وهو واقف يسمع كلامها فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الموقف فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة ثم قال: أتدرون من هذه العجوز؟

هى خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سماوات أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمع لها عمر..انتهى.



(١) الفتوحات الإلهية: المرجع السابق صـ٢٩٩.

الفصل الخامس

النملة والنمل

قال كعب: مرَّ سليمان عليه السلام [1] بوادى السَّدير من أودية الطائف فأتى على وادى النمل فقامت نملة تمشى وهى عرجاء تتكاوس مثل الذئب فى العظم فنادت:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ ﴾ [النمل : ١٨].

وذكر الزمخشرى : أن سليمان عليه السلام سمع كلامها من ثلاثة أميال وكانت تمشى وهى عرجاء تتكاوس وقيل: كان اسمها طاخية.

وقال السهيلى :ذكروا اسم النملة المكلمة لسليمان عليه السلام وقالوا: اسمها حرميا، يقول السهيلى: ولا أدرى كيف يتصور للنملة اسم علم والنمل لا يسمِّى بعضهم بعضا ولا الآدميون يمكنهم تسمية واحدة منهم باسم علم لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض ولا هم أيضًا واقعون تحت ملكة بنى آدم كالخيل والكلاب ونحوها.

ويقال: إن النملة الناطقة قد سميت بهذا الاسم فى التوراة أو فى الزبور أو فى بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها ومعنى إيمانها أنها قالت للنمل: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل: ١٨] وقولها: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٣ / ١٦٩).

التفاتة مؤمن أى من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا.

كما أشير إلى أن المراد بقولها ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ إشارة إلى الدين والعدل والرأفة.

ونظير قول النملة فى جند سليمان بإذن الله تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ قوله تعالى فى جند محمد ﷺ: ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح: ٢٥] التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن، إلا أن المُثنِي على جند سليمان هى النملة، والمُثنِي على جند محمد ﷺ هو الله عز وجل لما فى جند محمد ﷺ من فضل على جميع النبيين أجمعين. وأفهم الله تعالى النملة هذا لتكون معجزة لسليمان.

وقال وهب: أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشىء إلا طرحته فى سمع سليمان بسبب أن الشياطين أرادت كيده.

وقيل: إن هذا الوادى كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد قاله الكلبى.

وقال نوف الشامى وشقيق بن سلمة: كان نمل ذلك الوادى كهيئة الذباب فى العظم.

وقال بريدة الأسلمى: كهيئة النعاج قال محمد بن على الترمذى: فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها وإلا فالطيور والأصوات كائنة وذلك منطقهم وفى تلك المناطق معانى التسبيح وغير ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال أبو إسحاق الثعلبى: ورأيت فى بعض الكتب أن سليمان قال لها: لم حذرت النمل؟

أخفت ظلمى؟ أما علمت أنى نبى عدل؟ فلم قلت:﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾.

فقالت النملة: أما سمعت قولى: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨ ﴾ مع أنى لم أرد حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت، أو يُفتنن بالدنيا ويشتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر.. فقال لها سليمان: عظينى.!

فقالت النملة: أما علمت لم سمى أبوك داود؟ قال: لا – قالت لأنه داوى جرحة فؤاده.

ثم قالت: هل علمت لم سميت سليمان؟ قال: لا ، قالت: لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك، وإن لك أن تلحق بأبيك ثم قالت: أتدرى لم سخر الله لك الريح؟ قال: لا ، قالت: أخبرك أن الدنيا كلها ريح: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٩] متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها فقالت: هل عندكم من شىء نهديه إلى نبى الله؟ قالوا: وما قدر ما نهدى له؟ والله ما عندنا إلا نبقة واحدة – قالت: حسنة – إيتونى بها فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها فأمر الله الريح فحملتها وأقبلت تشق الإنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط حتى وقعت بين يديه ثم وضعت تلك النبقة من فيها فى كفه وأنشأت تقول:

ألم ترنا نهدى إلى الله ما له ... وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
ولو كان يُهدَى للجليل بقدره ... لقصَّر عنه البحر يومًا وساحله
ولكننا نهدى إلى من نحبه ... فيرضى به عنا ويشكر فاعله
وما ذاك إلا من كريم فعاله ... وإلا فما فى ملكنا ما يشاكله[1]

فقال لها: بارك الله فيكم.. فهم بسبب هذه الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبى (١٣ / ١٧٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب: الهدهد والصُّرَد والنملة والنحلة ، أخرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق.

عرض الآيات :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

[النمل: ١٧ : ١٩]

قال ابن عطية : النمل حيوان فطن قوى شمام جدا يدخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت شقتين ويأكل فى عامه نصف ما جمع ويستبقى سائره عنده.

قال ابن العربى: وهذه خواص العلوم عندنا وقد أدركتها النمل بخلق الله لها ذلك والله تعالى أعلى وأعلم.



الفصل السادس

الهدهد وسليمان

قال أبو مجلز قال ابن عباس رضي الله عنهما[1] لعبد الله بن سلام:

أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل[2]، قال أتسألني وأنت تقرأ القرآن؟ قال: نعم ثلاث مرات ، قال: لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير؟ قال: احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه، أو قال: مسافته ، وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقده.

وقال في كتاب النقاش: كان الهدهد مهندسًا، روى أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له: قف يا وقاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع؟ فقال له ابن عباس: إذا جاء القدر لقد عمى البصر.

وقال مجاهد : قيل لابن عباس كيف تفقد الهدهد من الطير؟ قال: نزل منزلا ولم يدر ما بعد الماء —وكان الهدهد مهتديا إليه— فأراد أن يسأله

قال مجاهد فقلت: كيف يهتدي والصبي يضع له الحبالة فيصيده؟ فقال: إذا جاء القدر عمى البصر.

قال ابن العربي : ولا يقدر على الجواب إلا عالم القرآن ، هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان.

وقال الكلبي: لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد ،هدهدة الهدهد: أي صوته.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – المرجع السابق من ص١٧٧ – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م جزء ١٣.

(٢) لم يذكر بقية الحديث ولم أعثر عليه.

وكان سبب غيبة الهدهد على[1] ما ذكره العلماء أن سليمان عليه السلام لَـمَّا فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب جنوده من الجن والإنس والطير والوحش فحملتهم الريح وفى الحرم أقام ما شاء الله أن يقيم وقال لمن حوله من أشراف قومه : إن هذا المكان يخرج منه نبى عربى ويعطى النصر على جميع من عاداه وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده فى الحق سواء لا تأخذه فى الله لومة لائم.

قالوا: فبأى دين يدين يا نبى الله؟ قال: بدين الله الحنيف فطوبى لمن أدركه وآمن به.. قالوا: كم بيننا وبين خروجه يا نبى الله.. قال: مقدار ألف سنة فليبلغ الشاهد الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل ، وأقام سليمان عليه السلام بمكة حتى قضى نسكه وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلي ، فلما نزل قال الهدهد : اشتغل سليمان بالنزول فارتفع نحو السماء ينظر إلى طول الدنيا وعرضها فبينما هو ينظر رأى بستانا لبلقيس ورأى ملكها العظيم.

وأما سليمان عليه السلام فإنه نزل على غير ماء فسأل عن الماء الجن والإنس فلم يعلموا فتفقد الهدهد فلم يره فغضب سليمان وقال: لأعذبنه عذابا شديدا.. إلخ .

فلما رجع الهدهد وقف أمام سليمان عليه السلام فلما دنا منه أخذ برأسه فمال إليه فقال له: أين كنت؟ لأعذبنك عذابا شديدًا.. فقص عليه الهدهد ما رأى من بلقيس وقومها من عبادة الشمس دون عبادة الله وسجودهم للشمس وعدم سجودهم لله الخالق المعبود الذى يخرج المخبوء فى جوف الأرض ويعلم بقدرته جميع الخفايا.

وقيل: إن الهدهد واسمه (يعفور) هاله ما رأى فأنكره ومجده فبلغ بذلك نبى الله سليمان عليه السلام وهذا هو النبأ اليقين الحقيقى بالتبليغ والإعلان ، وتلك هى الإحاطة وهى من العلوم والمعارف التى اقتبسها الهدهد من سليمان عليه السلام وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه السلام نحو

---

(١) الفتوحات الإلهية (٣ / ٣٠٦) .

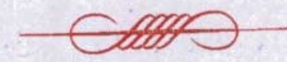
قبول كلامه وصرف عنان عزيمته إلى غزوها وتسخير ولايتها ا.هـ أبو السعود.

وأرسله بالكتاب إليها وقيل: إنه لم يبدأ باسم الله أولاً لأنها كانت كافرة قارئة فخاف من كفرها أن تستخف باسم الله فجعل اسمه وقاية لاسم الله وكانت عربية والكتابة عربية وهو الظاهر وقيل: إنه كتب بالعجمية ولها ترجمان يترجم لها به كما يحتمل أنها كانت تعرف غير العربية.

ويقال: إن سليمان عليه السلام طبع الكتاب بالمسك بأن جعل عليه قطعة مسك كالشمع.. فلما رمى الهدهد إليها بالصحيفة على نحرها وهى راقدة وعرفت أن الذى أرسل الكتاب أعظم ملكًا منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد وجاءت هى حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم الأشراف وسموا ملأ لأنهم يملأون العيون.. ثم انتهى أمرهم على نحو ما حكى القرآن من إسلامهم على يد سليمان عليه السلام لله رب العالمين.

عرض الآيات :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل: ٢٠: ٢٨].



الفصل السابع

عالم المثال

من المعلوم أن أحاديث كثيرة دلت على أن فى الوجود[١] عالما غير عنصرى تتمثل فيه المعانى بأجسام مناسبة لها فى الصفة، وتتحقق هنالك الأشياء قبل وجودها فى الأرض نحوا من التحقق فإذا وجدت كانت هى هى بمعنى من معانى هو هو وأن كثيرا من الأشياء مما لا جسم لها عند العامة تنتقل وتنزل ولا يراها جميع الناس.

قال ﷺ : **«لما خلق الله الرَّحم قامت فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة»**[١] .

وقال ﷺ: **«إن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجَّان عن أهلهما»**[٢].

وقال ﷺ: **«تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة ثم تجىء الصدقة ثم يجىء الصيام»**[٣] الحديث.

---

(١) حجة الله البالغة: العلامة الدهلوي راجع محمود حلبي ج١ دار المعرفة بيروت لبنان من صـ٣٥ .

(٢) صحيح : أخرجه البخارى رقم (٤٥٥٢) ، وصاحب كنز العمال (٦٩٧٦) ، انظر حديث رقم (١٧٦١) في صحيح الجامع .

(٣) صحيح : أخرجه مسلم رقم (١٩١٠) ، وصاحب كنز العمال (١/ ٥٦٤) ، انظر حديث رقم (١١٦٥) في صحيح الجامع .

(٤) صحيح : أخرجه أحمد فى مسنده رقم (٨٧٢٧) ، وصاحب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .

وقال: «إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة كهيئتها ويبعث الجمعة زهراء منيرة»[١].

وقال: «يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها، مشوه خلقها»[٢]، وقال: «هل ترون ما أرى؟ فإنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»[٣].

وقال ﷺ فى حديث الإسراء: «فإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان ففى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»[٤].

وقال ﷺ فى حديث صلاة الكسوف: «صورت لى الجنة والنار» وفى لفظ: «بينى وبين جدار القبلة» وفيه أنه بسط يده ليتناول عنقودًا من الجنة وانه تكعكع من النار - وأنه تأخر عنها وابتعد - ونفخ من حرها ورأى فيها سارق الحجيج، والمرأة التى ربطت الهرة حتى ماتت ورأى فى الجنة أمرأة مومسة سقت الكلب..!

ومعلوم أن تلك المسافة لا تتسع للجنة والنار بأجسادهما المعلومة عند العامة، وقال أيضًا: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[٥] ثم أمر جبريل أن ينظر إليهما.

وقال ﷺ: «ينزل البلاء فيعالجه الدعاء» وقال ﷺ: «خلق الله العقل فقال له: أقبل

---

(١) صحيح: أخرجه صاحب كنز العمال رقم (٣٠٩١٠)، وشعب الإيمان للبيهقى (٢٩٠٥)، وصحيح ابن حبان رقم (١٦٣٥)، انظر حديث رقم (١٨٧٢) في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه صاحب كنز العمال رقم (٨٥٧٩)، وشعب الإيمان للبيهقى (١٠٢٧١).

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (١٧٧٩)، ومسلم (٧٤٢٧)، وصاحب كنز العمال رقم (٣٠٨٩٨) وأحمد فى مسنده (٢٠٧٥٣)، انظر حديث رقم (٧٠٣٠) في صحيح الجامع.

(٤) صحيح: أخرجه البخارى (٧٥٣٨)، و النسائى (٤٤٤)، وأحمد فى مسنده (١٧١٦٥).

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٧٣٠٨)، و الترمذى (٢٤٨٢)، و أحمد (٨٥٧٨)، انظر حديث رقم (٣١٤٧) فى صحيح الجامع.

فأقبل وقال له: أدبر فأدبر»[١].

وقال ﷺ: «هذان كتابان من رب العالمين» وقال: «يؤتى بالموت كأنه كبش فيذبح بين الجنة والنار»[٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٤: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾
[فصلت: ١٩: ٢٤].

وقال: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠].

وقال عز من قائل: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا

(١) انظر كشف الخفاء (ص ٢٦٣).

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد في مسنده (٨٩٠٩)، والبزار في مسنده (٧٢٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٢٨٩٨)، والحاكم في مستدركه (٢٧٨)، ومجمع الزوائد (١٨٦٣٣).

﴿ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾ [الملك: ٦: ٩].

واستفاض فى الحديث أن جبريل عليه السلام كان يظهر للنبى صلى الله عليه وسلم ويتراءى له فيكلمه ولا يراه سائر الناس، وأن القبر يفسح سبعين ذراعًا فى سبعين أو يضم حتى تختلف أضلاع المقبور وأن الملائكة تنزل على المقبور فتسأله، وأن عمله يتمثل له، وأن الملائكة تنزل إلى المحتضر وبأيديهم الحرير أو المُسُح، وأن الملائكة تضرب المقبور بمطرقة من الحديد فيصيح صيحة يسمعها ما بين المشرق والمغرب، وقال النبى صلى الله عليه وسلم: **«يسلط على الكافر فى قبره تسعة وتسعون تنينا تنهسه وتلدغه حتى تقوم الساعة»**[1]، وقال: **«إذا أدخل الميت القبر مثلت له الشمس عند غروبها فيجلس يمسح عينيه ويقول: دعونى أصلى»**[2].

كما استفاض فى الحديث أيضًا: أن الله تعالى يتجلى بصور كثيرة لأهل الموقف، وأن النبى صلى الله عليه وسلم يدخل على ربه وهو على كرسيه وأن الله تعالى يكلم ابن آدم شفاهًا إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، والناظر فى هذه الأحاديث بين إحدى ثلاث:

الأولى: إما أن يقر بظاهرها فيضطر إلى إثبات عالم ذكرنا شأنه وهذه هى التى تقتضيها قاعدة أهل الحديث، وقد نبه على ذلك السيوطى رحمه الله تعالى وعليه التحقيق وإليه المذهب.

الثانية: وإما أن يقول: إن هذه الوقائع تتراءى لحس الرائى وتتمثل له فى بصره وإن لم

---

(١) حديث ضعيف: رواه أحمد في مسنده، وصاحب كنز العمال، انظر مشكاة المصابيح رقم (١٤٣)، وضعيف الترغيب والترهيب رقم (٢٠٧٩).

(٢) حديث حسن: رواه ابن حبان فى صحيحة (٣١١٦).

تكن خارج حسه.. وقال بنظير ذلك عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ ﴾ [الدخان: ١٠] إنهم أصابهم جدب فكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من الجوع، ويذكر عن ابن الماجشون.. أحد علماء المالكية: أن كل حديث جاء في التنقل والرؤية في المحشر فمعناه أنه بغير أبصار خلقه فيرونه نازلا متجليا ويناجي خلقه ويخاطبهم وهو غير متغير عن عظمته ولا منتقل ليعلموا أن الله على كل شيء قدير.

الثالثة: أو يجعلها تمثيلا لتفهم معان أخرى والمقتصر على هذا ليس من أهل الحق.. وقد صور الإمام الغزالي في عذاب القبر تلك المقامات الثلاث حيث قال: أمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم ينكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التسليم والتصديق.. فإن قيل: فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على وجه المشاهدة؟.

والإجابة على ذلك تتمثل في التصديق بثلاث مقامات:

أحدها: وهو الأظهر والأصلح والأسلم: أن تصدق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكننا لا نشاهده وذلك لأن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت.

أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل عليه السلام ومع ذلك لم يكونوا يشاهدون ويؤمنون بأنه صلى الله عليه وسلم يشاهده.

فإن اعترض معترض بعدم الإيمان بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي يكون هو الأهم؟ وإن لم يعترض وسلم بالإيمان به وبأنه صلى الله عليه وسلم يشاهد ما لا تشاهده الأمة فكيف لا يجوز هذا في الميت؟

وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التى تلدغ فى القبر ليست من جنس عالمنا بل هى من جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى..

ثانيها: أن نتذكر أمر النائم وأنه قد يرى فى نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه ربما يصيح ويتفصد جبينه عرقا وقد ينزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده، مع أن ظاهره يرى ساكنا ولا ترى حواليه حية ولا عقرب والحية موجودة فى حقه والعذاب حاصل ولكنه فى حق الناظر إليه غير مشاهد وإن كان العذاب فى ألم اللدغ، فلا فرق إذن بين حية تتخلل أو تشاهد.

ثالثها: إننا نعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذى يؤلم هو ألم السم، ثم إن السم نفسه ليس هو الألم، بل الألم يكون فى الأثر الذى يحصل من السم، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذى يفضى إليه فى العادة، فإنه لو خلق فى الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب وتكون الثمرة حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته ، وهذه الصفات المهلكات تنقلب مهلكات مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت، فيكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجودها. والله أعلم.




الباب السادس
آفاق الإعجاز

الفصل الأول

القول بالصرفة

كان العرب(١) حين أنزل القرآن كأنما شُدُّوا بأمراس كتَّان إلى صمِّ جندل فهم يسمعون القرآن ويعجبون به ويكادون يسجدون لفصاحته وبلاغته ويوقنون – بقيمة العارف الخبير – أنه ليس من قول البشر ولكنهم يحاولون أن يحطوا من شأنه.. وأن يهونوا من أمره.. ويودون لو استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله تبهرهم روعته ويروعهم عجزهم عن معارضته والكبرياء يتسلط عليهم.

وخوف غلبة محمد ﷺ تملأ نفوسهم وبوادر الإقرار بنبوته والإمعان لرسالته تبدو قريبة من نفوسهم كل القرب، فيحاولون أن يجعلوها بعيدة كل البعد، والعاجز المكابر والمأخوذ المعاند لا يسلك إلا ما سلكه هؤلاء الجاحدون قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٤، ٥].

وقال أيضًا: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال: ٣١].

وهكذا أخذوا ينتقصون من شأن القرآن كعادتهم بهذه الكلمات الفضفاضة، فمرة يقولون: هو سحر.

---

(١) حول إعجاز القرآن، دكتور على العمارى ص٥٢.

وأخرى يقولون: هو شعر وثالثة يقولون: أساطير الأولين ثم كانت هذه الدعوى العريضة التى لا يصدقها العقل.

ولا تسعفها القسوة وهى دعوى العاجز دائمًا عن الإذعان للحق والتسليم للأمر الواقع ولو لم يكن الأمر كذلك ما قالوا كما حكى عنهم القرآن:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال: ٣١].

ولم لا يشاءون إذًا ؟ إنهم كانوا كالقمئ الهزيل أمام العملاق المفتول العضلات القوى البنية.. يدعوه هذا إلى النزال فيجيب ذاك بصوت يملأ فراغه ويخرق الأسماع ولا شيء غير الصوت فهم فى الحق كانوا مذعنين فى قرارة أنفسهم بأنهم عاجزون كما أنهم أيضًا يدركون هذا الإعجاز فى أذواقهم ، وعلى أطراف ألسنتهم وربما صرح بعضهم بشيء من ذلك فلا يعدو الكلام الواسع الفضفاض أيضًا.

وما كان أصدق من اعتراف الوليد بن المغيرة حين بعثه قومه ليستمع إلى القرآن من الرسول ﷺ فقال قولته المشهورة : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ... إلخ المقالة.

ومضى القرن الأول وتبعه القرن الثانى والعلماء يمسون نواحى الإعجاز مسًّا خفيفًا.. فلما كان القرن الثالث واتسعت دوائر البحوث العلمية ، كثرت الخلافات المذهبية وتعددت النحل وتفرقت الأهواء والسبل، احتدمت المعارك وقويت الخصومة وعنف الجدل حول الآراء الكلامية.

وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التى تبارت فيها الفحول ، وتصاولت فى رحابها الوسيعة القرون ونازل عقل عقلاً ، وناضل لسان لسانًا – وحاكم يراع يراعًا، وفكر فكرًا، وظفرت العربية بتراث صالح من القول فى القرآن وبطائفة من الكتب فى الإعجاز ، وكان من أشد العجب أن يزل بعض علماء المسلمين ويذهبون فى شأن القرآن إلى

مذاهب شتى ومنها القول (بالصرفة) وتزعم (النظّام) هذه الفرية التى لا تنهض أن تكون حجة يريد الترويج لها ويزداد العجب حين نرى من يؤيد هذا الرأى بل ويضيف إليه من الافتراءات ما يزيد به عن (إبراهيم النظام).

وذلك من أمثال:

من الأشاعرة ، والإمام محمد بن حزم الظاهرى ، وهذا الأخير روع الأسماع وهز القلوب ، وأسال الدموع من محاجرها حين ذكر فى كتابه : (الفِصَل فى الملل والنحل).

أن مذهب (الصرفة) قال به طوائف من العلماء وليس طائفة واحدة كما أخبر بذلك الشهرستانى صاحب كتاب : (الملل والنحل) فذكر أن القرآن على رأى الأشعرى معجز من حيث البلاغة والنظم والفصاحة.

إذ خيَّر العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى ، وهو المنع من المعتاد ومن جهة الإخبار عن الغيب.

وحكى عضد الدين الأيجى في كتابه : (المواقف) عن إعجاز القرآن بقوله: وقيل بالصرفة فقال الأستاذ يعنى الإسفراييني والنَظّام: صرفهم الله مع قدرتهم.

وقال المرتضى: بل سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة.

قال المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه: (إعجاز القرآن) ردًا على هذا المذهب:
«وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه لكان ذلك مذهبًا من تخاليطهم فى بعض ما يحاولونه إذ عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا».

وعمومًا فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه على لسان الوليد بن المغيرة كما حكى القرآن: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾

[المدثر: ٢٤ - ٢٥] وقد رد الله تعالى هذا الزعم عليهم وكذبهم فيه.

وجعل القول فيه ضربًا من العمى فقال:

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٥].

فاعتبر ذلك بعضه ببعض فهو كالشىء الواحد ؛ ولكن: كيف نشأ هذا المذهب؟ وما حقيقته؟ وكيف دافع عنه أصحابه؟ وكيف فهمه العلماء؟ وكيف ردوا عليه وناقشوه؟

ومن الأهمية بمكان أن نجيب على هذه الأسئلة إحقاقًا للحق وإنصافا لكتاب الله فنقول: إن هذا المذهب مجاف للصواب على الرغم من أن القائلين به ليسوا كفارًا بل إنهم بعيدون عن الكفر كل البعد وإنما اعتقدوا هذا المذهب تدينًا ومبالغة منهم فى الابتعاد بالقرآن عن أن يطمع طامع فى معارضته ، وكان لهذا المذهب أثر فى نشأة البلاغة العربية.. على أن أصحاب هذا المذهب لم يبق لهم فى الكتب إلا القول به.. أما أدلتهم من وجهة نظرهم فقلما تعثر على شىء من ذلك مر عليه الجاحظ فى موضع واحد من كتاب (الحيوان).

وذكره ابن حزم وهو الوحيد الذى أطال فيه ، أما خصوم هؤلاء فلم يخل كتاب من كتبهم من مناقشة المذهب والرد عليه.

قال الرافعى: (على أن القول بالصرفة هو المذهب الفاشى من لدن قال به النظام.. يصوبه فيه قوم ويشايعه عليه آخرون ، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته وقيامه عليه وتقليده أمره لكان لنا اليوم كتب ممتعة فى بلاغة القرآن وأسلوبه وإعجازه اللغوى ، وما إلى ذلك).

وهذا المذهب ينسب إلى الشيخ إبراهيم بن سيار النظام العالم المعتزلى الكبير ، فلا نجد كتابًا من الكتب يذكر هذا المذهب وينسبه إلا نسبه للنظام، على أنه أول من قال به وناضل دونه ، بل إن الخاطر لينصرف عند ذكر هذا المذهب إلى النظام، بل كلما ذكر النظام ورد عليه مذهب الصرفة فيكاد يكون رأى النظام وحده وأظهر آرائه.

هل كان النظام أول من قال بهذا المذهب ؟

هذا الكلام ليس من ابتداع النظام ولا هو أول من قال به بما أن مفهوم هذا المذهب يتضمن قدرة العرب على الإتيان بمثل القرآن فصاحة وبلاغة ونظمًا ، وإنما جرى الكلام بهذا على ألسنة قوم قبله ومن أشهرهم : (عيسى بن صبيح[1] المزدار) الذى يرجع إليه الفضل فى انتشار الاعتزال ببغداد بشخصيته الزاهدة وبقوة لسانه وفصاحته وقدرته على الوعظ وحسن القصص ويلقبونه : (راهب المعتزلة) فهو يقول هذه المقالة[2].

ويبعد أن يكون نفى الإعجاز عن القرآن كما يقول المرحوم / مصطفى صادق الرافعى وإنما المستساغ والذى يقبله العقل وتميل إليه النفس ما يقوله الأستاذ / أحمد أمين[3]: (ولعله كان يرى كبعض المعتزلة أن الإعجاز أتى من ناحية معانيه الدينية وإخباره بالمغيبات).

ومن الظلم البالغ أن ننسب إلى واحد من هؤلاء المتكلمين المخلصين فى الدفاع عن القرآن أنه لا يقول بإعجازه خصوصًا أنه لم ينقل أحد عن المزدار أنه كان ينفى الإعجاز عن القرآن.

أما ما يقوله الشهرستانى عن زاهد المعتزلة وراهبهم من أنه كان كثير التكفير للناس، ويوافقه عليه كل من الأستاذين الرافعى وأحمد أمين فمن الظاهر أن المبالغة فيه واضحة بل إنها أقرب إلى الفكاهة منها بالجد الصراح وحسبنا هذه القصة التى ذكرها الشهرستانى من أنه كان يمعن فى تكفير الناس حتى سأله إبراهيم بن السند مرة عن أهل الأرض جميعًا فأكفرهم ، فقال له إبراهيم : الجنة التى عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة من أصحابك !

ولا شك أن هذه الحكاية من تشنيعات خصوم المعتزلة عليهم ، وممن قال بأن الناس

---

(١) حول إعجاز القرآن ص٥٧ وما بعدها.

(٢) الملل والنحل للشهرستانى – ص٧٦.

(٣) ضحى الإسلام ج٣ ص١٤٥.

قادرون على مثل القرآن (الجعد بن درهم) مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، بل قال إنهم قادرون على أحسن منه، وهذا رجل ساقط من الحساب، فليس النظام - إذن أول من قال بهذا الرأى فلم اختص به؟.

يقول الرافعى: غير أن النظام هو الذى بالغ فى القول بالصرفة حتى عرفوه به، وهذا تعليل مقبول لو كان له ما يدعمه فإنا لم نقرأ للنظام دفاعًا عن هذا المذهب بل نقل المذهب تمامًا مما حمل بعض علماء القرن السابع الهجرى (على بن حمزة) صاحب كتاب الطراز أن يقول: إن المذهب يحتمل أكثر من تفسير كما فيه من الإجمال والغموض.

آراء حول النظام.. تدينه.. ارتيابه:

لقيت آراء النظام حول الصرفة ردود فعل متباينة ومتشككة فى عقيدته وتدينه، وما الذى رمى إليه من إقحام نفسه والزج بها فى أتون المخالفات والمعارضات، أو بالأحرى: هل دفعه إلى ذلك حسن اعتقاد.. أم سوء اعتقاد.. والإجابة على ذلك فى العرض الآتى:

أولاً: أن النظام كان باتفاق القدامى والمُحْدَثين - الأصدقاء والأعداء قوىَّ الحجة فصيح اللسان ناصع البيان واسع الثقافة.. يقول الجاحظ: (يقولون: فى كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن كان ذلك صحيحًا فهو أبو إسحاق النظام) ويقول: (لولا مكان المتكلمين لهلك العوام من جميع الأمم.. ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل.. فإن لم أقل: ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول أنه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أمورًا واختصر لهم أبوابًا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة) ويقول أبو الحسين الخياط عن النظام ودفاعه عن الدين: (إن إبراهيم وأشباهه أحاطوا التوحيد ونصروه وذبُّوا عنه وشغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ووضع الكتب عليهم.. إذ شغل أهل الدنيا بلذاتها وجمع حطامها...).

ويحكى عن النظام أنه قال عند احتضاره ما يصرح بأنه يتبرأ من كل دين غير دين التوحيد، وأنه ما اعتقد مذهبًا إلا بعدما اعتقد أن فيه رضا الله.. ثم يعقب الخياط على

القصة بقوله: (وهذه هى سبيل أهل الخوف لله. والمعرفة به والله تعالى شاكر لهم ذلك..).

ومن المحدثين جاءت شهادة الرافعى الذى ذهب فى تنقيص مذهب الصرفة مذهبًا جعله يقول: (إنه يشبه قول العرب فى القرآن إنه سحر)، ومع ذلك فإنه يقول عن النظام: حتى جاء رأيه فى مذهب الصرفة دون قدره.. بل دون علمه.. بل دون لسانه.

كما أن الأستاذ أحمد أمين وهو البعيد عن فتنة الكلام وعصبية المذهب قال فيه: (كان النظام آية فى النبوغ.. حدة ذهن وصفاء قريحة واستغلال فكر وسعة اطلاع وغوص على المعانى الدقيقة وصياغة لها فى أحسن لفظ وأجمل بيان).

ويقول الدكتور أبو ريدة: (ولا مراء فى أن النظام كان صاحب الفضل الأكبر فى التغلب على المحنة التى تعرض لها الإسلام فى عصره حين بدأت الثقافات الأجنبية والمذاهب الدينية والفلسفة المخالفة تغزو عقول المسلمين.. وحين بدأت نزعة الموالى الداخلين فى الإسلام تتيقظ فى نفوسهم.. فنهض للذبِّ عن الدين) وكان أحذق من تكلم فى عصره وأحرز أعظم النجاح فيما نهض له..

وبجانب هذه الأقوال نجد أقوالاً كثيرة أخرى تشهد بكفره وزندقته وسوء سلوكه.

ومن أجمعها قول ابن حجر: (ما فى القدرية أجمع منه لأنواع الكفر.. ومع زيفه وضلاله كان أفسق خلق الله وهو داء قديم).

ثانيًا: إن المعتزلة نكبوا أعظم نكبة حين ضاعت كل مؤلفاتهم ومنذ أن دالت دولتهم فى القرن الثالث الهجرى لم تقم لهم قائمة حتى الآن وظلت آراؤهم طوال هذه العصور تلوكها ألسنة خصومهم، وتتناولها بالتحرير والتبديل والتغيير ولا منكر عليهم، ولا معارض لهم، ولا مدافع عن نظريات المعتزلة ووجهة أنظارهم حتى فى عصرنا الحاضر وإن تحرر فيه الفكر لا تدرس آراء المعتزلة إلا فى كتب ألفها أصحابها للرد على نظرياتهم مع الاعتقاد سلفًا بأنها باطلة، والناشئة يدرسونها على هذا الأساس، ولا نعرف فى هذا التاريخ الطويل أحدًا استطاع أن يجهر بمذهب الاعتزال إلا ناله الأذى والضر فمن

الطبيعي عندئذ أن تتأثر آراء المعتزلة وأن تتأثر النقول عنهم بهذه النظرة ، على أن النظام كان نصيبه من هذا أَوْفَى نصيب ، فقد رُمِيَ بأنه كان أميًّا لا يقرأ و لا يكتب و رُمِيَ كذلك بالزيغ والفسق والإلحاد.

ويذكر الخطيب البغدادى فى كتابه أصول الدين: (أن النظَّام أعجب بقول البراهمة فى إبطال النبوات ولكنه خاف السيف فلم يجسر على إظهار ذلك.. فأنكر إعجاز القرآن فى نظمه وأنكر معجزات النبى ﷺ من نحو انشقاق القمر ليتوصل بذلك إلى إنكار النبوة).

ثالثًا: إن المعتزلة ابتلوا برجل يقول عنه عبد الرحيم العباسى فى كتابه (معاهد التنصيص) نقلاً عن الطبرى: (إنه كان لا يثبت على مذهب ولا يستقر على حال حتى إنه صنف لليهود كتاب «البصيرة» ردًا على الإسلام لأربعمائة درهم أخذها من يهود سامرًّا – فلما قبض المال رام نقضها حتى أعطوه مائة درهم أخرى فأمسك عن النقض).

ما أشبه هذا الرجل ببهلول (مجنون الكوفة) الذى كان يغنى بقيراط ويسكت بدانق.

ويقول عنه العباسى أيضًا نقلاً عن البلخى فى كتابه (محاسن خراسان): إنه كان فى أول أمره حسن السيرة – حميد المذهب كثير الحياء – ثم انسلخ من ذلك كله لأسباب عرضت له وكان علمه أكثر من عقله .

ويقول عنه الرافعى: (إنه كان رجلاً غلبت عليه شقوة الكلام فبسط لسانه فى مناقضة الشريعة ،وذهب يزعم ويفترى وقد أمعن فى سخفه فلا تدرى أجعل إلهه هواه ، أم جعل إلهه فى فمه ، وهذا رجل يتاجر بدينه وعقله ، وكان واسع الأفق فى الكذب ، والاختراع وحكاية الخرافات عن أصحاب الفرق ، وهو أبو الحسين أحمد ابن يحيى المشهور بابن الراوندى، وقد رمى المعتزلة منه بداهية دهياء فقد كان على مذهبهم ثم جفوه وطردوه من مجالسهم وقسوا عليه فألف كتابًا سماه : (فضيحة المعتزلة).

وقد انبرى للرد عليه عالم من علمائهم هو أبو الحسين الخياط فألف كتابه : (الانتصار) قال فيه: «وزعم صاحب الكتاب – يريد ابن الراوندى – أن النظام يقول بالصرفة فى

إعجاز القرآن».

ويلاحظ من العبارة أن الخياط ينكر أن يكون النظام قائلاً بهذا المذهب بإسناده لفظ (الزعم) ولكن الذى يلفت النظر أن الخياط مر على المسألة مرًا سريعًا فلم ينفها ولم يثبتها ويحتج لها فبقى فى النفس منها شيء.

وقد حكى الشهرستانى أن ابن الراوندي ينسب للجاحظ قوله فى القرآن: (إنه جسم يجوز أن يقلب مرة رجلاً ومرة أنثى)، والرجل وإن بدا فى حكاياته الكذب واضحًا جليًا لكن من يسمع يخل.

وقد صادف كتابه هوى في نفوس خصوم المعتزلة فقالوا: رجل منهم يحكى عنهم فهو أعرف الناس بهم، فلا شك أنه يحكى حقًا، ويقول صدقًا.

ولولا ما ذكره الجاحظ من حديث عن هذا المذهب لكان من الإمكان أن هذا المذهب نسب للنظام ولكن فى كتب خصومه – على أن الجاحظ ذكره ولم ينسبه لأستاذه – ولا ذكر فيه قولاً ويكاد يرى الجاحظ فى إعجاز القرآن رأى أهل العربية.

ذكر صاحب المواقف ذلك في كتاب النبوات فقال: و قيل – أى فى إعجاز القرآن – كونه فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها وعليه الجاحظ.. وفى كتب الجاحظ ما يؤيد ذلك.

وهو تارة يقول: «إن القرآن معجز من ناحية أسلوبه وتارة يكون من ناحية نظمه» والمطالع لكتبه يجده تحدث بذلك فى مواضع كثيرة.. ومن قوله فى ذلك بعدما ذكر ما كان من شأن النبى ﷺ مع قومه: (وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحًا ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فكلما ازداد تحديًا لهم بها وتقريعًا لعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستورًا وظهر منه ما كان خفيًا..).

ويقول في موضع آخر: (وفى كتابنا المنزل الذى يدل على أنه صدق نظمه البديع الذى لا

يقدر على مثله العباد.. إلخ).

بل إن الجاحظ يرى أن العرب لا يستطيعون أن يساموا النبى فى فصاحته أو يجاروه فى بلاغته.. ويشيع هذا المعنى فى كتابه «البيان والتبيين».

ومن ذلك قوله: (فإذا رأت مكانه – يريد النبى ﷺ – الشعراء وفهمته الخطباء ومن تعبد للمعانى وتعود نظمها وتنفيذها وتأليفها وتنسيقها واستخراجها من مدافنها، وإثارتها من أماكنها – علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم مما قد استغرقهم واستفرغ مجهودهم، وبكثير مما قد حولوه قليلاً مما يكون معه على البداهة والفجاءة من غير تقدم فى طلبه واختلاف إلى أهله) على أن النظام نفسه له رأى فى إعجاز القرآن غير القول بالصرفة فإن كل الذين نقلوا عنه من غير أصحابه يضمون إلى القول بالصرفة قوله: (إن القرآن معجز لما فيه من الإخبار بالأمور الماضية والآتية).

ومعنى هذا أنه يرى أن العرب غير قادرين على الإتيان بمثل القرآن لما فيه من الإخبار بالمغيبات.

يقول الشيخ يوسف البيومى[1] أحد علماء الأزهر: (ذهب النظام إلى القول بالإعجاز البيانى كما يقول أهل العربية).

وهذا يؤكد ما سبق وقد أورد الجاحظ اعتراضًا وكلامًا فى تفسير قوله تعالى:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

ومحصلة هذا الاعتراض أن الله تعالى أعطى سليمان ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده،

(١) مجلة الأزهر العدد الخامس من السنة ١٩٦٣، من ٢٦١.

فملّكه على الجن فضلاً عن الإنس وعلّمه منطق الطير ، وسخر له الريح فكيف لا يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها واتصال بلادها.

ثم يجيب : إن الدنيا إذا خلاها الله وتدبير أهلها ومجارى أمورها وعاداتها لكان لعمرى كما تقولون ولكن لله تعالى تدبير تعجز عن فهمه العقول ثم ساق أمثلة على ذلك : أن يعقوب عليه السلام كان أنبه أهل زمانه ، وكان يوسف وزير ملك مصر ومن النباهة بالموضع الذى لا يدفع وله البرد وإليه يرجع جواب الأخبار ثم لم يعرف يعقوب مكان يوسف ولا يوسف مكان يعقوب عليهما السلام دهرًا من الدهور ، ثم قال: وكذلك القول فى موسى بن عمران ومن كان معه فى التيه فقد كانوا أمة من الأمم يكسعون أربعين عامًا فى مقدار فراسخ يسيرة ، ولا يهتدون إلى المخرج ، وما كانت بلاد التيه إلا من ملاعبهم ومتنزهاتهم ، ولا يعدم مثل العسكر الأدلاء والجمالين والمكارين والفيوح والرسل والتجار ، ولكن الله صرف أوهامهم ورفع ذلك القصد من صدورهم.

وبعد أن ساق أمثلة أخرى قال: «ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ؛ ولذلك لم نجد أحدًا طمع فيه ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ولكثر القيل والقال فقد رأيت أصحاب مسيلمة وأصحاب بنى النواحة إنما تعلقوا بما ألّف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذى يعلم كل من سمعه إنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله ذلك التدبير الذى لا يغلبه العباد ولو اجتمعوا له...».

ولا يفوت الرافعى رحمه الله هذا النص وأنه يناقض المشهور عن الجاحظ فيقول: «وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما فى نفسه من أثر أستاذه وهو شىء ينزل على حكم الملابسة ، ويعترى أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبه عليه ، أو قد يكون ناقلاً ولا ندرى..

ولكننا لو فرّغنا أذهاننا مما قاله الأقدمون فى معنى الصرفة ونظرنا إلى هذا النص على ضوء ما قدمنا لوجدنا أنه ليس غريبًا على الجاحظ بل ولا على الرافعى نفسه فليس الصرف عن الإتيان بكلام يكون فى مرتبة القرآن.. ولكنه عن الإتيان بكلام يمكن أن يجادل عنه ويناضل دونه.

ويقال فيه كما قال الجاحظ نفسه فى موضع آخر: (فلم يرم ذلك - يريد المعارضة - خطيب ولا طمع فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك.. ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض).

وبهذا النص فبعد كلام الرافعى فى أن ما قاله الجاحظ فى أمر الصرف إنما جاء استطرادًا على أننا نلاحظ أن الجاحظ لم يرد فى نصه هذا شىء عن الإعجاز ولا ذكر لفظه، فمن أين جاءهم أن المراد بالصرف الصرف عن الإتيان بمثل القرآن فيكون هو وجه الإعجاز..».

والمسألة صريحة واضحة لا لبس فيها ولا التواء.. العرب لا يستطيعون أن يجيئوا بمثل القرآن لأنه فوق مستواهم.. ومحال أن يرى الجاحظ أن بلاغة النبى ﷺ فوق مستوى العرب، ولا يرى بلاغة القرآن ولكى تبعد كل شبه عن القرآن رفع الله من أوهام العرب محاولة أن يجيئوا بشىء فى معارضة القرآن، أعنى شيئًا من مثل كلامهم البليغ بعنوان المعارضة هذا يفسر لنا خلو الكتب من شىء صدر عن العرب ذى بال فى معارضة القرآن.

وهذا المعنى عبر عنه ابن حزم فقال: فما منهم - أى البلغاء - أحد تكلف معارضته إلا افتضح وسقط وصار مهزأة ومعيرة يتماجن به وبما أتى به ويتطايب به عليه منهم «مسيلمة ابن حبيب الحنفى» لما رام ذلك لم ينطق لسانه إلا بما يضحك الثكلى، وقد تعاطى بعضهم ذلك غيره فصار أضحوكة للناس.

ولكن ربما يقول قائل: إن المعارضة للقرآن قد وجدت وأن الجاحظ أثبتها هنا، وذكرها هناك فى الكلام عن الضفدع فكيف تقولون إن معنى الصرفة أن الله صرف العرب عن أن يعارضوا؟

والجواب: إن معنى المعارضة هو ما ذكره صاحب الطراز عندما قال: (بل المقصود من التحدى إنما هو الإتيان بما ينطق كونه مثلاً أو غير المثل وأمارة ذلك وقوع الاختلاف بين الناس فى كونه مثلاً أو غير المثل) والجاحظ نفسه يسخر من كلام مسيلمة ويجعله مما لا يشك السامع فى نزوله عن درجة الاعتبار.

ونحن نقول: إن العرب ما كانوا ليستطيعوا أن يقولوا شيئًا فى مرتبة القرآن وإنما كان فى مقدورهم أن يقولوا كلامًا يشتبه الأمر فيه على الأعراب وأشباه الأعراب، وأنهم عجزوا عن الأولى لأنها فوق طاقتهم وصرفوا عن الثانية لئلا يكون القرآن موضوع جدل ومحاكمة وتراض، وعلى هذا نفهم رأى النظام والجاحظ فى الصرفة ونربأ بهما أن يقولا: إن بلاغة القرآن فى متناول العرب.

ولا نلزم بهذا الفهم ولا ندعى أنه الحق وحده بل نتقبل من كل من يرى أننا تعسفنا الطريق أو تنكبنا الجادة أن يرشدنا ويهدينا، ومع توالى القرون ظهر عالم من المشرق وهو ابن حزم الظاهرى[1] صاحب كتاب «الفِصَل فى الملل والنحل» وعالم من المغرب وهو ابن سنان الخفاجى صاحب كتاب: «سرُّ الفصاحة»، وكل منهما صرح بأن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن والإتيان بمثله ولكن الله تعالى صرفهم عن ذلك.. وهذا عندهما هو سر الإعجاز.

ابن حزم الظاهرى:

هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى الأندلسى أصله من فارس، أول من أسلم من أسرته هو جده الثامن وكان مولى ليزيد بن أبى سفيان؛ ولذلك كان ابن حزم يميل إلى الأمويين ويتشيع لهم، عاش ابن حزم بين سنتى ٣٨٤: ٤٥٦ هـ، ونشأ فى قرطبة فى بيت رياسة، وقد لابس جزءًا من هذه الرياسة حقبة من دهره، ودفعته همته العالية إلى التعمق فى كثير من العلوم ووجد ابن حزم عداء شديدًا من أهل الأندلس لاستقلالية آرائه

(١) حول إعجاز القرآن دكتور على العمارى ص ٧٧.

وجرأتها كما كان معتدًا بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد وكان ينال من الأئمة المتقدمين حتى إنه لم يسلم من لسانه أحد ويصور ذلك قول ابن الصريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج توأمين.

آراؤه فى القرآن :

يقول ابن حزم: القرآن المعجز هو الكتاب المتلو وإعجازه باق إلى يوم القيامة ، وكله معجز قليله وكثيرة ، والمعجز منه نظمه وما منه من الإخبار بالغيوب ، وليس هذا الأخير معجزًا وحده كما روى عن بعضهم وبرهان ذلك قول الله تعالى:

﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣] ، فنص على أنهم لا يأتون بمثل سورة من سوره ، وأكثر سوره ليس فيها إخبار بغيب ووجه إعجازه أن الله رفع القوة عن العرب وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله.

ويظهر أن ابن حزم يطرد هذه الحيلولة فى كل الآيات فهو يرى أن من أبهر الآيات وأعظمها قول النبى ﷺ لليهود الذين كانوا معه فى وقته ولعلهم كانوا ألوفًا أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين فى تكذيبهم نبوته ، وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلاً فعجزوا عن تمنى الموت وحيل بينهم وبين النطق بذلك وهذه قصة منصوص عليها فى سورة الجمعة.

وقد كان أسهل الأمور عليهم أن يكذبوا بأن يتمنوا الموت لو استطاعوا وهم يسمعونه يقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ٩٤: ٩٥].

ولم يرو عن أحد أنه قبل التحدى وعارض القرآن معارضة صحيحة ولم يتكلف أحد معارضته إلا افتضح وسقط.

قال ابن حزم: وقد تعاطى بعضهم ذلك يومًا فى كلام جرى بينى وبينه فقلت له: اتق الله على نفسك.. فإن الله قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها والله لئن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسلبنك الله هذه النعمة وليجعلنك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك، فقال: صدقت والله وأظهر الندم.

رده على مذهب البيانيين:

يقول أكثر أهل العربية - ومنهم الجاحظ - بالإعجاز البيانى فى القرآن ولكن ابن حزم يعتبر هذا رأى طائفة.. ويعتبر القول بالصرفة رأى طوائف.. وقد عنى بالرد على القائلين بأن القرآن فى أعلى درجات البلاغة فقال: وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن فى أعلى طبقات البلاغة وهذا خطأ شديد ولو كان كذلك - وقد أبى الله عز وجل أن يكون - لما كان حينئذ معجزة، لأن هذه صفة كل سابق فى طبقته والشىء الذى هو كذلك وإن كان سبق فى وقت ما فلا يؤمن؛ لأنه فى أعلى درجة البلاغة لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون والجاحظ وشعر امرئ القيس ومعاذ الله من هذا؛ لأن كل ما يسبق فى طبقته لم يؤمن أن يأتى من يماثله ضرورة فلابد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا: إن الله تعالى منع من معارضته فقط.

اعتراض .. إجابة:

وقد ساق ابن حزم اعتراض الفريق الآخر القائل بأن الأمر لو كان كما يقول أصحاب الصرفة لوجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام، فكانت تلك الحجة أبلغ، ثم يرد قائلاً: فهذا هو الكلام الغث حقًا لوجوه:

أحدها: إنه قول بلا برهان لأنه يعكس عليه قوله بنفسه فيقال له: بل لو كان إعجازه لكونه فى أعلى درجات البلاغة لكان لا حجة فيه لأن هذا يكون فى كل مكان فى أعلى طبقة.. وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود.

ثانيها: إنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل ولا يقال له: لم عجّزت بهذا النظم دون غيره؟ لم

أرسلت الرسول دون غيره؟ ولم قلبت عصا موسى حية دون أن تقلبها أسدًا؟ وكل هذا حمق لم يوجبه عقل قط وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط.

ثالثها: إنهم حين طرحوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد لزمهم أن يقولوا: هلا كان هذا الإعجاز فى كلام بجميع اللغات فيستوى فى معرفة إعجازه العرب والعجم؛ لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بإخبار العرب فقط.

القرآن وكلام البشر:

يرى ابن حزم أن القرآن ليس من نوع كلام المخلوقين لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من أوسطه.. وبرهان ذلك:

أولاً: لو أن إنسانًا أدخل فى رسالة له أو خطبة أو تأليفًا أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجًا عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك.. كما أن الأقسام التى فى أوائل السور لا عهد بها وليس هذا من نوع بلاغة الناس المعهودة.

ثانيًا: نجد فى القرآن إدخال معنى بين معنيين ليس بينهما كقوله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم٦٣: ٦٦].

وليس هذا من بلاغة الناس فى ورد ولا صدر ومثل هذا فى القرآن كثير.

ثالثًا: ما روى عن أنيس - أخي أبى ذر الغفارى رضي الله عنه - حين سمع القرآن فقال: لقد وضعت هذا الكلام على ألسنة البلغاء وألسنة الشعراء فلم أجده يوافق ذلك، أو كلامًا هذا معناه.

مناقشة قول الأشعرية :

ويتعرض ابن حزم هنا لأمور تتصل بالإعجاز ويطيل منها وغرضه أن تكون بعض حججه على رأيه فهو يتعرض للمقدار المعجز من القرآن ويناقش قول الأشعرية مناقشة عنيفة ويخلص منها إلى أن القرآن لا يمكن أن يكون معجزًا بأنه فى أعلى درج البلاغة.

فالأشعرية يقولون : إن المعجز هو مقدار أقل سورة منه وهو: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ فصاعدًا.

فيرد ابن حزم بقول الله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨] .

ولا يختلف فى أن كل شيء من القرآن قرآن ، فكل شيء من القرآن معجز وهذا هو الحق الذى عليه سائر أهل الإسلام ، ويقلّب المسألة على جميع وجوهها ثم يخلص إلى أنه ما دام القليل والكثير معجزًا فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بأن صرف الله العرب عن المعارضة ؛ لأن بعض الآيات وردت على لسان المخلوقين ولا يقال حينئذ إنها معجزة فلما صارت من كلام الله أصبحت معجزة.

وإن كل كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت أنها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبدًا وإنها متى ذكرت فى خبر على أنها ليست قرآنا فهى غير معجزة.. انتهى كلام ابن حزم..

ابن سنان الخفاجى[1] :

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجى ، الشاعر الأديب (الشيعى المتكلم- تلميذ الفيلسوف أبى العلاء المعرى ، توفى ابن سنان سنة ٩٦٦ هـ ، ويرى أن العلماء

(١) حول إعجاز القرآن – للدكتور على العمارى.

مختلفين في إعجاز القرآن على مذهبين:

الأول: أنه خرق العادة بفصاحته وجري ذلك مجرى قلب العصا حية..

الثاني: صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم – وهو هنا يذكر أن الصرف رأيه ولا يجادل عنه – وإنما يعهد لذكر المذهبين ليبين مكان الحاجة على كلا المذهبين إلى معرفة الفصاحة والبلاغة ولكنه يبادر فينفي شبهة هي أول ما يتوجه إلى مذهب الصرفة ، ذلك أن المعارضة فيما يرى – وقعت فعلاً فيرد على ذلك بأن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذى أورده خال من الفصاحة التى وقع التحدى بها فى الأسلوب المخصوص ، ويقول: إن كتابه سيبين أن فصاحة القرآن كانت من جنس فصاحة العرب.

الرد على الرماني:

وفى معرض رده على الرمانى فيما ذهب إليه من أن التأليف على ثلاثة أضرب : متنافر، ومتلائم فى الطبقة الوسطى، ومتلائم فى الطبقة العليا ، وأن القرآن كله من النوع الثالث ولا يشركه فى ذلك غيره ، فيقول فى الرد :

وهذا الذى ذكره غير صحيح والقسمة فاسدة وذلك لأن التأليف على ضربين : متنافر ومتلائم ، وقد يقع فى المتلائم ما بعضه أشد تلاؤمًا من البعض، ولا بين القرآن وبين فصيح الكلام فى هذه القضية ويصور حجته وجداله ورأيه فى الأمور الآتية:

أولها: متى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار.. وجد فى كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه.

ثانيها: يحمل على قول الرمانى ويعتبره دعوى فاسدة ويرى أن الأمر لا يحتاج إلى هذا الإبعاد الذى ينفِّر منه كل من علق من الأدب بشيء أو عرف من نقد الكلام طرفًا وأنه لا يخفى إلا على الأعاجم وأشباه الأعاجم الذين لا يميزون بين جيد الكلام وبهرجه وأن هؤلاء يقولون بأذواقهم السقيمة ، ولا يلجأون لأهل الصناعة.

ثالثها: يصرح هنا برأيه فيقول: وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك.

رابعها: وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين تأليف غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم.

خامسها: ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة وادعينا أنه أفصح من كلام جميع العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم نفتقر فى ذلك إلى ادعاء ما ادعاه من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة فى الفصيح من كلام العرب، وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحًا وإنما الفصاحة لهذا ولغيره.

سادسها: أليس التلاؤم معتبرًا فى تأليف حروف الكلمة المفردة على ما ذكرنا فيما تقدم؟ فلابد من نعم، فيقال له: فما عندك فى تأليف كل لفظة من ألفاظ القرآن بانفرادها، أهو متلائم فى الطبقة العليا، قيل له: أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده، ولولا ذلك لم يكن عربيًا ولا كانت العرب فهمته فقد أقررت الآن أن فى كلام العرب ما هو متلائم فى الطبقة العليا وهو الألفاظ المفردة، وإن قال: فى الطبقة الوسطى قيل له: إن مشاركة القرآن لطبقة ألفاظهم على هذا الوجه لا تزال أيضًا.

سابعها: إذن لا مانع أن يقال: إن فى كلامهم المؤلَّفُ من الألفاظ ما هو أيضًا مثل القرآن فى تأليفه، فإن علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر.

ثامنها: وليس تنازعنا فى كلمة من كلم القرآن وتقول ليس هذا فى الطبقة العليا إلا قلنا مثله فى تأليف الألفاظ بعضها مع بعض لأن الدليل على الموضعين واحد.

.. ويخلص ابن سنان من هذا النقاش فى تلاؤم الحروف إلى أن أسلوب القرآن وأسلوب فصيح كلام العرب متحدان فى تلاؤم التأليف وكل منهما- فى هذا فى الطبقة العليا- وعلى هذا يتقرر أن أسلوب القرآن لا يختلف عن أسلوب الفصحاء من العرب

فمعارضتهم كانت ممكنة لولا الصرفة.. ومعناها عنده على ما نقلنا أنهم سلبوا العلوم ولكى يتضح هذا المعنى نذكر الاحتمالات التى فهمها العلماء من هذا المذهب على نحو ما فى كتاب الطراز لأبن حمزة العلوى ،**وهاك بيان الاحتمالات:**

الاحتمال الأول: أن الله سلب دواعى العرب إلى المعارضة مع أن أسباب توافر الدواعى فى حقهم حاصلة من التقريع بالعجز والتكليف بالانقياد ، ومخالفة الأهواء.

الاحتمال الثانى: أن الله سلبهم العلوم التى لابد منها فى الإتيان بما يشاكل القرآن أعم من أن تكون حاصلة لهم فأزيلت عنهم أو غير حاصلة لكن الله صرف دواعيهم عن تحصيلها.

الاحتمال الثالث: أن الله منعهم بالإلجاء على جهة القسر من المعارضة مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك.. «ويظهر أنه مذهب القائلين من الشيعة».

هذا وقد ردد ابن سنان مذهبه مرة أخرى حين جعل يرد على من زعم أن القرآن لا يتفاوت فى الفصاحة ، وذكر أن من يجعل الإعجاز هو بلوغ الدرجة العليا فى الفصاحة لا يعكر عليه أن يكون بعض القرآن أفصح من بعضه ثم يقول: (لكن الصحيح أن وجه الإعجاز هو صرف العرب عن معارضته وعنده أن هذا هو المذهب المختار.. وعليه -زعم - أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم وأضاف: «وقد سطَّر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره» إلخ كلامه.. وفى [معجم الأدباء] فى ترجمة أبى العلاء المعرِّى ورد ذكرها.. قال: «قرأت بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الشاعر فى كتاب له ألفه فى الصرفة ، زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبى ﷺ وأن كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله إلا أنهم صرفوا عن ذلك ، قال فى تضاعيفه: وقد حمل جماعة من الأدباء قولُ [بالضم فى اللام] أصحاب هذا الرأى أنه لا يمكن لأحد أن يعارضه بعد زمان التحدى على أن ينظموا على أسلوب القرآن - حيث أظهر ذلك قوم وأخفاه آخرون ، ودعوى ابن سنان يعوزها الدليل ، وليس أمامنا من الأدلة إلا قوله: [إن

تأليف القرآن من منهج تأليف كلام العرب فى تلاؤم الألفاظ لأن الكلمات المفردة هى كلماتهم..] فلابد أن تكون الأساليب أساليبهم ولا ندرى كيف ذهب وخفى عنه أن الكلمات قد تكون واحدة ولكن الفصحاء يختلفون فى الصياغة».

بقى القول أن الخفاجى لم يتأثر بأستاذه فى هذا المنهج والمذهب لأن أبا العلاء لا يقول به.. وبعض العلماء يذكرون أنه عارض القرآن بكتابه (الفصول والغايات) وينفى ذلك الرافعى فى (إعجاز القرآن) وناشر الكتاب فى المقدمة.

وقد ذكر ابن سنان على الراجح - قطعتين وهو تلميذ يتحدث عن أستاذه.. فلا يبعد أن يكون أبو العلاء قصد بكتابه هذا أن يكون على خط القرآن.. دون أن يقصد الإتيان بمثله ففهم الناس أنه يقصد المعارضة فقالوا ما قالوا..وكيف يكون ذلك والكتاب كله فى تمجيد الله وتقديسه حتى الفقرات التى ذكرها له ونقلها الرافعى جاءت ناقصة ومبدلة.

ويظهر أن ما حذف منه تعمدوا حذفه ؛ لأنه يبطل دعواهم ومما حذف كلمات مثل: «شعر النابغة وهذيل.. وغناء الطائر على الفيل.... شهادة بالعظمة لمقيم الميل».

وإذا كان أبو العلاء قد قصد المعارضة على رأى ابن سنان وياقوت فلا يكون قائلاً بالصرفة على أن موقف أبى العلاء من ابن الراوندى وكتبه شهادة على عقيدة الرجل فى القرآن.. تعرض لكتب ابن الراوندى فى رسالة الغفران وسخر منها سخرية بليغة ولم يتعرض لرأى من آراء ابن الراوندى ولكنه تناول كتبه جملة إلا كلمة قالها فى القرآن.

وقد تعرض له ابن الراوندى فى بعض كتبه فقال: «إنه يجد فى كلام أكثم بن صيفى أحسن من ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ فخصه أبو العلاء بكلمة قال فيها:

(وأجمع ملحد ومهتد - وناكب عن المحجة ومقتد أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد كتاب بهر بالإعجاز، ولقى عدوه بالإيجاز، ما حذى على مثال - ولا أشبه غريب الأمثال ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطاب العرب ولا سجع الكهنة أولى الأرب، والرجل مع ذلك قلق حائر مضطرب، فلسنا نستبعد أن يكون

خضع لبعض ذلك فى بعض أيامه أما الذى نجزم به – على مبلغ ما اطلعنا عليه من كتبه – أنه لا يقول بمذهبه الصرفة)».

وخلاصة القول :

إن أول من قال بالصرفة هو إبراهيم بن سنان المعروف بالنظام فقد زعم أن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كتاب مثل سائر الكتب المنزلة لبيان أحكام الحلال والحرام، وأن العرب لم يقوموا بمعارضته لأن الله تعالى صرفهم عن هذه المعارضة[١].

وممن نسب إليه القول بالصرفة الشريف المرتضى من الشيعة وفسر الصرفة بأن الله تعالى سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى معارضة القرآن والإتيان بمثله، ومؤدَّى كلامه أنهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة، فهم قادرون على النظم والعبارات، ولكنهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن بسبب أنهم لم يعطوا العلم الذى يستطيعون به محاكاة القرآن فى معناه[٢].

وممن قالوا بالصرفة الفقيه البليغ العنيف المتشدد ابن حزم الأندلسى فقد قال فى كتاب الفصل فى سبب الإعجاز: (لم يقل أحد كلام غير الله تعالى معجز لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاما له صيره معجزًا ومنع من مماثلته ثم قال: وهذا برهان كان لا يحتاج إلى غيره)[٣].

---

(١) الرازى نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ص ٥٦ تحقيق د/ أحمد حجازى السقا نشر وتوزيع المكتب الثقافى طبعة أولى بمصر سنة ١٩٨٩م.

(٢) المصدر السابق ص٧٩.

(٣) الفصل.

أدلة القائلين بالصرفة:

قالوا: لقد عُرِفَ العربُ منذ جاهليتهم بفصاحة الكلمة ولهم فى ذلك القصيد الطويل والنشر البديع والرجز اللطيف والسجع الغريب والمعلقات وقد كانت ندواتهم ومحافلهم وأسواقهم تقام لمعرفة ما يستجد من آفانين القول فكيف يعجزون عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن بمثل سطر واحد لا تتجاوز كلماته العشرة فإن ثبت عجزهم فليس ذاك إلاصارفًا صرفهم عن الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه بأن سلب منهم العلوم التى يمكنهم معارضه القرآن بواسطتها أو صرفهم عن الاهتمام بالمعارضة ولولا ذاك لأمكنهم الإتيان بمثل القرآن(١).

الرد على القائلين بالصرفة:

وهؤلاء مردود عليهم بأدلة سمعية وأخرى عقلية أما الأدلة السمعية فهى: إن القول بالصرفة يسلب عن القرآن إعجازه الذاتى ويجعل المعجزة لهذا الصرف والمنع الذى حال بينهم وبين الإتيان بمثله وهذا مناقض لإجماع الأمة الذى انعقد قبل وجود القائلين بالصرفة على أن إعجاز القرآن ذاتى(٢).

ولقد وصف الله تعالى القرآن بأوصاف ذاتية تجعله فى منزلة لا تصل إليها المعجزات الأخرى فكانت هذه توجب أن يكون إعجازه ذاتيًا ولقد قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد:٣١].

فالأمر بالصرفة يسلب هذه الصفات الذاتية عن القرآن ويجعل الإعجاز فى المنع الذى حال بينهم وبين الإتيان بمثله.

---

(١) إعجاز القرآن: رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة ص٨٦٢.

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ١٢٣.

الأدلة العقلية:

إن قول النظام ومن تبعه: إن الله صرفهم بصرف الدواعى عن الاهتمام بالمعارضة يكذبه الواقع التاريخى كيف يقال: لم يهتموا بأمر القرآن والتوجه لمعارضته، وهم الذين لم يدخروا وسعًا فى سبيل القضاء على القرآن ومن جاء به هل يقال: إن دواعيهم كانت مصروفة عن المعارضة ولم يهتموا بشأن القرآن وهم الذين أوفدوا عتبة بن ربيعة ليفاوض محمدًا على ترك سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وله مقابل ذلك المال والجاه والنساء وكل ما يرغب.

أيقال: إن دواعيهم كانت مصروفة عن القرآن وهم الذين وجهوا أشرافهم إلى عم النبى ﷺ أبى طالب لكى يسلمهم محمدًا ليقتلوه ويعطوه بدله فتىً من قريش فكيف يقال إن دواعيهم لم تتوجه إلى معارضة القرآن، وهم الذين يئسوا من المفاوضات فقرروا إرسال فتىً من كل قبيلة لاغتيال محمد ﷺ.

ثم إن ترك المعارضة بالحرف واللسان واللجوء إلى الضرب والطعن بالسنان من أقوى الأدلة القاطعة على إحساسهم بالعجز المطلق أمام آيات الله.

وعن قول المرتضى ومن شايعه أن الله سلب من العرب العلوم التى يحتاجون إليها فى معارضة القرآن نقول: وهل تحطمت علومهم وعقولهم بعد التحدى عما كانت عليه قبل التحدى.

ثم إن الذين ادعوا أن إعجاز القرآن كان بسلب العلوم، هؤلاء يثبتون للعرب قدرةً هم لم يدّعوها لأنفسهم.

يقول الإمام فخر الدين الرازى:

«إن عجز العرب عن المعارضة لو كان لأن الله أعجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، بل كان يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك

عليهم بعد أن كان مقدورًا عليه لهم، كما أن نبيا لو قال: معجزتى أن أضع يدى على رأسى هذه الساعة ويكون ذلك متعذرًا عليكم، ويكون الأمر كما زعم، لم يكن تعجب القوم من وضع يده على رأسه بل من تعذر ذلك عليهم ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها بطل ما قاله النظام[1]».

وهذا الذى ذكره الرازى نجده عند أبى سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى البستى المولود عام (٣١٩هـ - ٩١٣م) أى قبل ولادة الرازى بأكثر من قرنين من الزمان، يقول الخطابى فى رسالة بعنوان «بيان إعجاز القرآن» .

وذهب قوم على أن العلة فى إعجازه الصرفة أى صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدورًا عليها غير معجوز عنها إلا أن العائق من حيث كان أمرًا خارجًا عن مجارى العادات صار كسائر المعجزات فقالوا: لو كان الله ﷻ بعث نبيا فى زمان النبوات، وجعل معجزته فى تحريك يده ومد رجله فى وقت قعوده بين ظهرانى قومه، ثم قيل له ما آيتك؟ فقال: آيتى أن أخرج يدى أو أمد رجلي ولا يمكن أحد منكم أن يفعل فعلي والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشىء من جوارحهم فحرك يده أو مد رجله فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه كان ذلك آية دالة على صدقه، وليس ينظر فى المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبى ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرًا خارجًا عن مجرى العادات، ناقضًا لها، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها، وهذا أيضًا وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهى قوله سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨] .

فأشار فى ذلك إلى أمر طريقة التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد والمعنى

---

(١) الرازى : نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ص ٥، ٦.

فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم[١].

ويذكر الرازى اعتراضا آخر على الصرفة فى كتابه : «نهاية العقول فى دراية الأصـول» فيقول: (إن العرب لو كانوا بحيث متى قصدوا فعل المعارضة افتقدوا العلـوم التـى لابـد منها فيها لوجب أن يعلموا ذلك فى أنفسهم بالضرورة وأن يميزوا بين أوقات المنح وأوقات التخلية ولو علموا ذلك لتذاكروه ولذاع وانتشر[٢]).

وهذا الاعتراض نجده عند أبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى عـام ٤٧١ هـ ١٠٧٨م أى قبل وفاة الرازى بأكثر من قرن من الزمان.

يقول الجرجانى فى الرسالة الشافية فى فصل تحت عنوان : «فى الـذى يلـزم القـائلين بالصرفة» : ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغى له إن كانت العرب مُنعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها.. أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك ولكانوا قد قالوا للنبى ﷺ إنا كنا نستطيع قبل هذا الذى جئتنـا بـه ولكنك قد سحرتنا واحتلْت فى شىء حال بيننا وبينه، فقد نـسبوه إلى الـسحر فى كثـير مـن الأمور كما لا يخفى، وكان أقل ما يجب فى ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويشكوه البعض إلى البعض، ويقولوا ما لنا قد نقصنا فى قرائحنا، وقد حدث كلل فى أذهاننا فبقى إن لم يروا ولم يذكروا أنه كان منهم قول فى هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، دليل أنـه قـول فاسـد ورأى ليس من آراء ذوى الفضل[٣].

إن تحدى القرآن وإثبات العجز ليس مقتصرا على عهد النبوة فقط بل هذا التحدى قائم

---

(١) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص٢١،٢٠ تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام طبعة دار المعارف.

(٢) نهاية العقول فى دراية الأصول ج٢ ورقة ١٢٨ – ١٢٩ مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٧٤٨ توحيد.

(٣) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص١٣٥.

وهذا العجز من البشر ثابت إلى يوم القيامة فمن قال بالصرفة فليحاول هل هو يحس بشيء من الصرف أو السلب في نفسه.

إن استعظام العرب بفصاحة القرآن وبلاغته وتعجبهم من ذلك لهو دليل على بطلان الصرفة فلو كانوا مصروفين عن المعارضة بنوع من الصرف لكان تعجبهم للصرف لا للبيان المعجز ولو كان هناك سلب علومهم لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن ولما لم يكن كذلك بطل القول بالصرفة[1] مثل الذين يقولون إن إعجاز القرآن بالصرفة كمثل الذين قالوا إن القرآن سحر وقد أثبت ذلك الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن» فقال: وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المدثر: من الآية٢٤].

وهذا زعم رده الله تعالى على أهله وكذبهم فيه ضربا من العمى ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الطور:١٥].

وأن التشابه بين القول بالصرفة والقول بأنه سحر أن الامتناع عن المماثلة في كليهما خارج الشيء لا من ذاته فالقول بالصرفة يفيد أن العرب لم يكونوا عاجزين، ولكن حيل بينهم وبين العمل على المماثلة وكذلك الأمر في السحر يدهشهم حتى يعجزوا[2].



(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم مطبعة السعادة ص ٢٥٢.

(٢) المعجزة الكبرى ص ٨٢.

الفصل الثانى

السَّبرُ والتقسيمُ

اتفق علماء التفسير والكلام على استخدام مصطلح السبر والتقسيم لمجاراة الخصوم فى المسائل (الخلافية) ثم جرِّهم إلى التسليم بعد إقامة الحجة عليهم بفرض إظهار الحق وإفحام الخصوم ودحضهم.

فالسَّبْر: هو امتحان[1] غور الجرح وغيره كالاستنبار والأسد والأصل واللون والجمال والهيئة الحسنة.. ويكسر فى الأربعة.

والتقسيم: هو[2] استيفاء أقسام الشيء الموجودة لا الممكنة عقلا ويعد هذا المصطلح من أشق أبواب الجدل على المعارضين والمنكرين إذ أن المجادل يتخذه حجة لإبطال كلام الخصم وذلك بذكر أقسام الموضوع - محل الجدال - ويبين أنه ليس من خواص واحد منها ما يوجب الدعوى التى يدعيها الخصم.

وأمثلة هذا الباب كثيرة فى القرآن الكريم من ذلك ما عرضه الإمام السيوطي رحمه الله

فى قول الله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ

(١) الفيروزابادى - المرجع السابق ج٢ صـ٦٤ - باب الراء فصل السين.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن ج٣ صـ٢٦٧.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣: ١٤٤].

قال السيوطى فى وجه الاستدلال (١) من الآيتين: إن الكفار لما حرَّموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى رد الله تعالى ذلك عليهم بطريق (السبر والتقسيم) ، فقال: إن الخلق لله تعالى خلق من كل زوج مما ذكر ذكرا وأنثى.. فلم جاء به تحريم ما ذكرتم؟ أى ما علته: لأنه لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو من جهة الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما..؟؟

أو يكون مما لا تُدَرى علتُه – وهو التعبدى – بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله تعالى إما بوحي وإرسال رسول، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَآ﴾ فهذه وجوه التحريم – ثم لا تخرج عن واحد منها ؟ والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حرامًا، والثانى يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراما، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معا؟ فبطل ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة وبعض فى حالة ؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضى التحريم مطلقا ، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدَّعوه..! وبواسطة رسول كذلك..! لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبى ﷺ وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعَى وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال.

وقال القرطبى (٢) رحمه الله: الآية احتجاج على المشركين فى أمر البحيرة وما ذكر معها وقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

---

(١) الجدل – الإمام محمد أبو زهرة دار الفكر العربى صـ٦٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ١١٤-١١٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فدلت على إثبات المناظرة فى العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأن يناظرهم ويبين لهم فساد قولهم وفيها إثبات القول بالنظر والقياس وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به ، وقيل: إذا ورد عليه النقض لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة وأمرهم بطرد علتهم – ثم ساق القرطبى المعنى على ما ذكر السيوطى.

وتعقب الألوسى[1] ذلك بقوله: (إنه بعيد جدا لأن للقائل أن يقول: هب أن هذه الأجناس الأربعة محصورة فى الذكورة والإناث إلا أنه لا يجب أن يكون علة تحريم ما حكموا بتحريمه محصورة فى الذكورة والأنوثة بل علة تحريمها كونها بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو غير ذلك من الاعتبارات كما إذا قلنا: إن الله تعالى حرم ذبح بعض الحيوانات لأجل الأكل. فإذا قيل: إن ذلك الحيوان إن كان قد حُرِّم لكونه ذكرا وجب أن يحرَّم كل حيوان ذكر – وإن كان قد حُرِّم لكونه أنثى وجب أن يحرَّم كل حيوان أنثى ، ولما لم يكن هذا الكلام لازما عليه فكذا هو الوجه الذى ذكره المفسرون.

قال الإمام فخر الدين الرازى[2]: يجب على العاقل أن يذكر فى تفسير كلام الله تعالى وجها صحيحا فأما تفسيره بالوجوه الفاسدة فلا يجوز ثم قال: والأقرب عندى فيه وجهان:

الوجه الأول: أن يقال: إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار مضى أنكم لا تقرون بنبوة نبى ولا تعرفون شريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم.

الوجه الثانى: أن حكمهم بالبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام مخصوص بالإبل فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة ، فلمَّا لم تحكموا بهذه الأحكام فى الأقسام الثلاثة وهى: الضأن والمعز والبقر ، فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم على التعيين.. انتهى كلامه رحمه الله.

---

(١) روح المعانى (٥ / ٦٣) دار الفكر.

(٢) التفسير الكبير للرازى (ج٦ / ٦٠٨ – ٦٠٩) مكتبة الإيمان.

ومن التقسيم أيضًا: ما جاء فى قول الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢] .

إذ ليس[1] فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع فى الأمطار ولا ثالث لهذين القسمين.. وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

فإن الظالم لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة: إما عاص ظالم لنفسه، وإما سابق مبادر للخيرات، وإما متوسط بينهما مقتصر فيها ، ونظير ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة: ٧: ١٠].

وكذا قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [مريم: ٦٤] .

استوفى أقسام الزمان ولا رابع لهما وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ﴾ [النور: ٤٥].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] استوفى جميع هيئات الذكر. وكذلك قول الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩: ٥٠] .

---

(١) الإتقان (٣ / ٢٦٧).

استوفى جميع أحوال المتزوجين ولا خامس لها ، وقيل : قسَّم الله سبحانه وتعالى حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود لأنه سبحانه إما أن يفرد[1] العبد بهبة الإناث أو بهبة الذكور أو يجمعها له.. أو لا يهب شيئا.

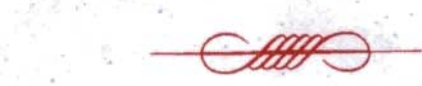
وقد جاءت الأقسام في هذه الآية لينتقل منها إلى أعلى منها وهي هبتها جميعا.. وجاءت كل أقسام العطية بلفظ الهبة، وأفرد معنى الحرمان بالتأخير وقال فيه (ويجعل) فعدل عن لفظ الهبة للتغاير بين المعاني كقوله تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) ﴾ [الواقعة: ٦٣: ٦٥].

فذكر لفظ (الزرع) للدلالة على الإنماء والامتداد.. ومعنى الحرمان بلفظ الجعل.

وقيل: بدأ سبحانه بالإناث إما جبرًا لهن ، وأنه فاعل لما يشاء لا ما يشاء الأبوان وأنه تعالى بدأ بالصنف الذى يشاؤه ولا يريده الأبوان غالبًا – وكانوا فى الجاهلية يئدوهن – وقيل: قدمهن لضعفهن ، ولينتقل الأبوان من الغم إلى الفرج بالتسلية.

وتأمل كيف عرف سبحانه الذكور بعد تنكير فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص المتأخر بالتعريف فإن التعريف تنويه. انتهى.



(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى (٣ / ٤٧٣) دار التراث.


الباب السابع
الكتب السماوية

الفصل الأول

دراسة مقارنة بين
القرآن – التوراة – الإنجيل

أولاً: القرآن الكريم:

نص القرآن على أن المسلمين(١) الأولين كانوا خير الأمم كما أشار فى ذلك إلى قوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران:١١٠].

فهو يخاطب جميع المسلمين من عرب وفرس وديلم وزنج إلخ ، وفرق بين تقديس الجنسية وتقديس الهيئة الاجتماعية – ولذا فهو لم يقل: أنتم أيها العرب خير الأمم كما أن القرآن علل تلك الخيرية بعلل ومنها: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلخ.. وكذلك الحال فى أمر المسلمين بالتخلق بالعدل فى حروبهم حيث قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢].

وقد اتهم أعداء الإسلام القرآن بأنه جاء بأصول حربية.. لكن القرآن علل لتلك الأصول بمسألة عمرانية فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج٧ – محمد فريد ص ٦٨٤ وما بعدها – دار الفكر.

لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥١] وهذه حقيقة لا ينكرها من لديه مسكة من علم الاجتماع البشرى.

القرآن لم يسد الطريق فى وجه الداعين للسلام العام مشيرًا بذلك إلى أنه لو توصل الناس إلى إلقاء السلاح على قاعدة عادلة كان المسلمون أول من يضعون أيديهم فى أيدى الأمم المتحابة حيث قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١].

وأقر الإسلام الأحكام الدستورية بطريقة لم يعرفها الأقدمون :

قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

فالأحكام هنا شورية وتناول القرآن قضايا العدل بين جميع البشر.. كما اهتم بحقوق المرأة كذلك فقال: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٥٨].

قال تعالى: ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ [المائدة: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾ [الروم: ٢١].

قال تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ ﴾ [الطلاق: ٦].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد قرر القرآن أن الله تعالى يتعالى عن العقول فلا يدركه كنه وأن غاية ما كتب لها من إدراكه هو العجز عن إدراكه فقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قال كبار الماديين: إنه قوة الوجود وتظهر فيه بمظهر نواميسه وقواه العاملة.

وبينما الأمم على حال من التسلط والتكبر إذ بالقرآن يخاطب العقل بصوت جهوري وهو يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فرفع الحرج وفتح الباب ومنح القبول والرجاء.. وبين القرآن أن كل جيل مسئول عن نفسه لا يجديه أن يتابع سابقه شيئًا وعلى أن التابعين يحملون على المتبعين يوم القيامة فيتبرءون منهم..

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

والقرآن يقرر ويؤكد مطالبته لكل معتقد بالدليل على عقيدته وعلى أن مجرد التسليم لا يجديه نفعًا.

فقال : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل: ٦٤].

كما أكثر من ذكر العقل وضرورة الرجوع إلى أحكامه فقال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

ومن تلك الأصول المعجزة التى لم يكن يعدها البشر قبل القرآن حكمه بأن المقصود من الدين منفعة البشر لا تعذيبهم وفائدتهم لا تسخيرهم فقال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ([البقرة: ١٨٥] .

كما أبطل الآمال التى يعلقها المتدينون على شفاعة الشافعين فى الآخرة إلا بأمر الله ومراده فقال: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر: ٤٨] .

ولقد نص القرآن على ناموس الترقى فى العلوم والفنون التى تفيد فى المعاد والمعاش فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه: ١١٤] .

وبين القرآن تسخير الكون للعلماء ممن لم يدعوا مظنة من مظان التغلب على قوى الكون إلا حاولوها واكتشفوها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣] .

ونص القرآن فى بيانه وإعجازه القوى على أن السعادة الروحية فى الآخرة لا تنافى السعادة المادية فى الدنيا وأن المدنية إذا قصد بها خير البشرية ، وتسهيل المنافع الحيوية وإظهار البدائع الموجودة فهى مما ندب الشرع إليه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ

ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص: ٧٧].

كما أن القرآن وهو يحارب الأحقاد التي تنشأ بسبب اختلاف الناس في الأديان والأجناس قد أسس ذلك على أصول اجتماعية جليلة فقرر أن الاختلاف بين الأمم أمر لابد منه لنظام الوجود، وأن تخالف الشعوب في المعتقدات من مقتضيات الطبائع البشرية.

فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ولقد أمر الإسلام بدعوة الناس إلى الدين بإحسان وبما يحتمله حسن المعاشرة من التلطف والبر فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ثم شدد النكير على من يتعالى في سبيل الدعوة فقال زاريًا على ذلك التغالي:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٦].

ومن عظيم تنبؤات القرآن تقريره بأن الأمم كالآحاد تنهض ثم تسقط وتموت فقال:

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

[يونس:٤٩].

وكذلك بين أن هلاك الأمم لا يكون إلا باستحقاقها لذلك بما تكون قد تقمصته من روح الظلم وفساد السرائر فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف:٥٩].

وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾[الأنبياء:١١].

وقرر بعد ذلك أن مناط بقاء الأمم هو الصلاحية للبقاء بالعلم والعمل لا بتمني الأماني الباطلة فقال عز من قائل: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[الأنبياء :١٠٥].

وهذا واقع مشهود ومن المعجزات ذات الدلالة الكونية أن لكل شيء في عالم الطبيعة قدرًا معينًا وناموسًا ضابطًا له وأن الأمور لا تسير بالأهواء والاتفاق بل على سنة مدبرة ومقدرة فقال تعالى شأنه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[القمر:٤٩].

وقال: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ [الفرقان: ٢].

وأثبت أن السعادة كل السعادة مرتبطة بالعلم فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ ﴾ [الزمر: ٩].

وضرب القرآن الأمثال للناس على أن قوانين الخير لا يعقلها إلا العالمون ولا يفقهها إلا العقلاء فقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨ ﴾ [فاطر ٢٧: ٢٨].

ولقد شنع القرآن على الآخذين بكل ما يقال بدون نقد ولا تمحيص فقال:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦ ﴾ [يونس: ٣٦].

وكذلك قال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

طوّف القرآن الكريم فى أكثر من ثلثى سوره وآياته حاكيًا عن بنى إسرائيل فى عقيدتهم ومعاملاتهم وانتماءاتهم وتصرفاتهم وكيف تحولوا من كونهم أفضل الأمم إلى صيرورتهم

أخسَّ الأمم وأوكسها وكيف استحقوا العذاب والشتات بسبب ذنوبهم وإجرامهم حتى مسخهم الله قردة وخنازير.. فرصد لهم القرآن أولاً هذا الحال: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٧) ﴾ [البقرة:٤٧].

ثم رصد لهم ثانيًا: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ (٨١) ﴾ [المائدة ٧٨: ٨١]..

هذا غير آيات أخرى كثيرة، ولم يغفل القرآن الكريم في إعجازه البياني جانب العطاء في كل شيء حتى الماعون.. حيث ذم أقوامًا بأعيانهم وصفهم بالمرائين، والساهين عن الصلاة لدرجة جعلتهم على درجة من البخل والشح حتى إنهم منعوا ما يتعاون الناس به في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة على قول ابن مسعود رضي الله عنه وعن عائشة رضي الله عنها الماء والنار والملح.

هذا هو القرآن في توجيهاته وإعجازه في البيان والعرض الجدلي قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ (٧) ﴾ [الماعون٦: ٧].

ثانيا: التوراة: (العهد القديم).

وتطلق على الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس ومعنى التوراة فى اللغة العبرية (القانون) وأنزلت جملة واحدة على عكس القرآن الذى نزل منجمًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة:٤٤].

مقتطفات من التوراة

جاء فى كتاب ميثاق النبيين[1]:

سفر اللاويين ٢٠/ ٤: ٢٦ ما نصه: (قلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها أنا الرب إلهكم الذى ميزكم من الشعوب فلا تدنسوا نفوسكم بالبهائم والطيور ولا بكل ما يدب على الأرض مما ميزته لكم ليكون نجسًا وتكونون لى قديسين لأنى قدوس أنا الرب وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى إلخ).

نلاحظ هنا أن اليهود بالغوا فى تفخيم أنفسهم وذكروا أن الفرق بينهم وبين سائر البشر كالفرق بين الإنسان والحيوان.

وفى سفر التكوين الباب السادس عشر فى قصة هروب هاجر من سارة ما يلى: ١٦ /

---

(١) ميثاق النبيين، عبد الوهاب عبد السلام عطية، دار القبلة – للثقافة الإسلامية جدة – م علوم القرآن بيروت – مجلد صـ ١٨٥ – ١٩٣ – ١٩٧.

٦: (فأذلتها ساراى فهربت من وجهها)، ٧: (فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية) ٨ :(فقال يا هاجر جارية ساراى: من أين أتيت وإلى أين تذهبين؟ فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى) ٩: (فقال لها ملاك الرب: ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها) ١٠: (وقال لها ملاك الرب: تكثيرًا أكثر نسلك.. فلا يُعَدُّ من الكثرة): وقال لها ملاك الرب: (ها أنت حبلى فتلدين ابنًا وتدعين إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك[1]) إلخ..

وفى سفر التكوين أيضًا فى الباب السابع عشر ما يلي: ١٧ / ١٥ ما نصه: (وقال الله لإبراهيم: ساراى امرأتك لا تدع اسمها ساراى بل سارة) ، ١٦: (أباركها وأعطيك أيضًا منها ابنًا أباركها.. فتكون أممًا وملوك شعوب منها يكونون) ، ١٧: (فسقط إبراهيم على وجهه) ١٨: (قال إبراهيم: ليت إسماعيل يعيش أمامك) ، ١٩: (فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدى معه عهدًا أبديًا لنسله من بعده) ، ١٠: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك منه.. ها أنا أباركه وأثمِّره وأكثِّره جدًا. اثنى عشر رئيسًا يلد وأجعله أمة كبيرة إلخ..).

وفى كتاب إظهار الحق[2]:

فى مقام الاستهزاء من جانب بنى إسرائيل من تكَلُّمِ أتان[3] بلعام جاء فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر العدد هكذا:

٢٨: (ففتح الرب فم الأتانة وقالت لبلعام: ما الذى فعلت بك؟ هذه ثلاث مرات قد ضربتنى) ٢٩: (فقال بلعام للأتان لأنك أستأهلت ذلك منى إلخ) ، ٣٠: (فقالت الأتان لبلعام: ألست أنا أتانك التى تركب منذ كنت غلامًا إلى يومنا هذا؟ فهل فعلت بك مثل هذا؟ فقال: لا إلخ .

---

(١) الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط عام ١٩٨٤م.

(٢) إظهار الحق ج٢ رحمت الله الهندى ص١٥٥ ، دار التراث العربى.

(٣) أنثى حمار.

ومعروف أنه بلعام الذى كان مستجاب الدعوة وهو المشار إليه بقول الله تعالى:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٥]..

فى الإصحاح الرابع من سفر حزقيال عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ رقم ٤: (وأنت تنام على جنبك الأيسر وتجعل أثام بيت إسرائيل عليها على عدد أيام ترقد عليها وتتخذ أثمهم) ٥: (أما أنا أعطيتك سنىّ آثامهم على عدد أيام ثلثمائة وتسعين يومًا وتحمل أثم آل إسرائيل).

كما جاء كذلك فى ١٠: (وطعامك الذى تأكله يكون بالوزن عشرين مثقالاً فى كل يوم من وقت إلى وقت تأكله) ١١: (وتشرب ماءً بمقدار السدس من القسط من وقت إلى وقت تشربه). ١٢: (وكخبز ملة من شعير تأكله وتلطخه بزبل يخرج من الإنسان فى عيونهم).

وفى كتاب المسيحية الحقه كما جاء بها المسيح[1]:

جاء فى سفر التثنية قوله: ٧- (أقيم لهم نبيًا من وسط إخوانهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع كلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه.. وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلامه لم أوصه أن يتكلم بـه ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى وإن قلت فى قلبك: كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيانٍ تكلم به النبى.. فلا تخف منه)... إلخ.

وفى سفر أشعياء ٢٩ / ١٢ – عن النبى المنتظر جاء: (يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة. ويقال له: اقرأ هذا – فيقول لا أعرف الكتابة).

وفى نفس السفر - أشعياء ٤٩ / ٢١ – فى البشارة قوله: (اسمعى لى أيتها الجزائر، واصغوا أيها الأمم من بعيد الرب من البطن دعانى.. من أحشاء أمى ذكر اسمى.. وجعل فى كسيف حاد[2].. فى ظل يده خبأنى وجعلنى سهمًا مبريًا فى كنانته أخفانى) ... إلخ.

---

(١) المسيحية الحقة كما جاء بها المسيح، علاء بكر – مكتبة وهبة إيداع ٩١٥١، ٩٧ ص ٣٧٨.

(٢) فمى .

ثالثًا: الإنجيل: (العهد الجديد).

الإنجيل: كلمة يونانية الأصل عربت عن كلمة (إنكليون)[1] وهى تعنى (من أتاك ببشرى) ثم امتد معناها ليشمل (البشرى) نفسها.. كما استعمل أيضًا بمعنى (ملخص تعاليم المسيح).. ويرد بعضهم الكلمة على الأصل اليونانى (إيفا نجليوس) وهى كلمة مكونة من مقطعين (إيف) وتعنى السرور.. و(نجليوس) تعنى: الخبر، وتعنى الكلمة بأسرها (الخبر السار المفرح).

مقتطفات من الإنجيل

فى كتاب إظهار الحق[2]:

الإصحاح الخامس من سفر أيوب الآية الأولى جاء: (فادع الآن إن كان لك مجيب وإلى أحد من القديسين التفت) فالمراد بالقديسين المؤمنون الموجودون على الأرض... إلخ.

فى الإصحاح الرابع من إنجيل متَّى جاء قوله / ١٢: (ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل) ١٧: (من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات..) ٢٣: (وكان يسوع يطوف كل الجليل ويعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارات الملكوت).. إلخ.

فى كتاب القرآن الكريم والتوراة[3] والإنجيل والعلم:

جاء فى إنجيل متَّى الإصحاح العاشر الآيتان ٥/ ٦ ما نصُّه: (إلى طريق الوثنيين لا تمضوا إلى مدينة السامريين لا تدخلوا - بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة)..

---

(١) المسيحية الحقة علاء أبو بكر ص ٤١.

(٢) إظهار الحق ، رحمت الله الهندى.

(٣) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - الدكتور موريس بوكاى.

.. وفى الإصحاح ٢٨ / ٢٩ متَّى: (فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم) وعن حادثة يونس النبى يسرد الإنجيل فى الإصحاح ١٢ من الآيات ٣٨: ٤٠ قوله: (يا معلم نريد أن نرى منك آية.. فأجابهم المسيح: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا يعطى له آية أخرى إلا آية يونس النبى لأنه كما جاء يونس فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال.. إلخ).

ومن كتاب اقتباسات من كتاب الأناجيل[1] من التوراة:

جاء فى إنجيل متَّى ١٩ / ٣-٨ ما نصه فى كلام جرى مع عيسى عليه السلام: (فدنا إليه بعض الفريسيين وقالوا له ليحرجوه: أيحل لأحد أن يطلق امرأته لأية علة كانت؟ فأجاب: أما قرأتم: (أن الخالق منذ البدء جعلهما ذكرًا وأنثى) .

وقال: (لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ويصير الاثنان جسدًا واحدًا) فلا يكونان اثنين بعد ذلك، بل جسد واحد فما جمعه الله لا يفرقه إنسان) ، فقالوا له: (فلماذا أمر موسى أن تعطى كتاب طلاق وتسرح؟ قال لهم: (من أجل قساوة قلوبكم رخص لكم موسى فى طلاق نسائكم، ولم يكن الأمر منذ البدء هكذا).

يقول بولس: (فإننا نحن الأحياء نسلم فى كل حين إلى الموت من أجل يسوع لتظهر فى أجسادنا الفانية حياة يسوع أيضًا، فالموت يعمل فينا والحياة تعمل فيكم ولما كان لنا من روح الإيمان ما كتب فيه: (آمنت ولذلك تكلمت فنحن نؤمن ولذلك نتكلم) من الإصحاح الأول آية ١١: ١٣.

وفى نفس الإصحاح الأول ٥/ ٩: ٦ يقول بطرس: (فتواضعوا تحت يد الله القادرة ليرفعكم فى حينه وألقوا عليه جميع همكم فإنه يُعْنَى بكم كونوا قنوعين ساهرين إن إبليس خصمكم كالأسد الزائر يرود فى طلب فريسة له فقادموه راسخين فى الإيمان ... إلخ).

(١) اقتباسات من كتاب الأناجيل من التوراة: دكتور/ أحمد حجازى السقا مكتبة الإيمان.

ومن كتاب: المسيحية الحقة[(١)]:

نصوص من الإنجيل يصف المسيح فيها إله السماء والأرض فيقول: (إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم) يوحنا المعمدان ٢٠ / ١٧ .

وكذا: (الرب إلهنا رب واحد) مرقس ١٢: ٢٩ وأيضًا: (لأنه الله واحد وليس آخر سواه) مرقس ١٢: ٣٢ ، وجاء: (هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل) متَّى ٢١: ١١ ، (قد قام فينا نبى عظيم) لوقا ٧: ١٦ ، (وأنا الإنسان قد كلمتكم بالحق الذى سمعه من الله) يوحنا ٨: ٤٠: (إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم) يوحنا ٦: ١٤ (لا يمكن أن يهلك بنى خارجًا عن أورشليم يا أورشليم يا أورشليم - يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين) لوقا ٣٣: ٣٤ (ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوننى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله) يوحنا ٨: ٤٠ ، فقالوا له: (إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله) يوحنا ٨: ٤١ (الذى من الله يسمع كلام الله) يوحنا ٨: ٤٧ .

وفى مقام البشارة جاء ما يأتى: (إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى) متَّى ١١: ١٤: (قوِّموا طريق الرب كما قال أشعياء النبى) يوحنا ١ / ١٩: ٢٣ ، (أنا أعمِّدكم بماء التوبة ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى الذى لست أهلاً أن أحمل حذاءه) متى ٣: ١١: (وكان يكرز قائلاً: يأتى بعدى من هو أقوى منى الذى لست أهلاً أن أنحنى وأحل سيور حذائه) مرقس ١: ٧ (الذى لست أهلاً لأن أحل سيور حذائه) لوقا ٣: ١٦ .

ومن كتاب: ميثاق النبيين[(٢)]:

جاء فى إنجيل يوحنا فى البشارة ٤/ ٢٥: ٢٦: (أن عيسى عليه السلام مر بمدينة من مدن السامرية فقالت له امرأة: أنا أعلم أم مسيا الذى يقال له المسيح يأتى ، فمتى جاء ذلك يخبرنا

---

(١) المسيحية الحقة: المصدر السابق.

(٢) ميثاق النبيين: عبد الوهاب عبد السلام طويلة دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة ... مؤسسة علوم القرآن ببيروت.

بكل شيء: قال لها يسوع: أنا الذي أكلمه هو).

وفي ١٤: ٢٦: (وأما الفارقليط الروح القدس[١] الذي سيرسله الرب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم..).

وفي ١٤: ٢٦ (وقلت لكم[٢] الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون) ومن ١٤: ٣٠ جاء: (لا أتكلم أيضًا معكم كثيرًا لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس[٣] له فيَّ شيء).

ومن إنجيل برنابا هذه المقتطفات[٤]:

في الفصل الرابع والثلاثون:

(كان أمام الباب واحد كانت يده اليمنى متيبسة إلى حد لم يتمكن معه من استعمالها..) ٢: (فوجه يسوع قلبه لله وصلى ثم قال: (لتعلموا أن كلماتي حتى أقول: (باسم الله (ث) أمدد يا رجل يدك المريضة) ٣: (فمدها صحيحة كأن لم تصبها علة) ص٧٠.

وفي الفصل الرابع والخمسون:

١: (فمتى مرت هذه العلامات[٥] تغشى العالم ظلمة أربعين سنة ليس فيها من حي (ت) إلا الله وحده الذي له الإكرام والمجد إلى الأبد) ١٧: (ارجو الله أن لا أرى هذه الهوّلة في ذلك اليوم) ١٨: (أن رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظرة لأنه لا يخاف إلا الله (خ) وحده) ص ٩٥.

---

(١) المرجع السابق: ص ٤٢٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٤٤٢.

(٣) المرجع السابق: ص ٤٤٥.

(٤) إنجيل برنابا: ترجمه من الإنجليزية د. خليل سعادة، المكتبة التوفيقية ص ٧٠.

(٥) ص ٩٤.

وفى الفصل التاسع والستون:

١: (لعمر الله (ب) الذى أقف فى[1] حضرته إنكم لا تنالون منى تملقا بل الحق)
٢: (لذلك أقول لكم: توبوا وارجعوا إلى الله كما فعل آباؤنا بعد ارتكاب الذنب ولا تقسوا قلوبكم) ص ١٠٩.

وفى الفصل الثالث بعد المائة (أ):

١: (إن بكاء الخاطئ يجب أن يكون كبكاء أب[2] على ابن مشرف على الموت)
٢: (ما أعظم جنون الإنسان الذى يبكى على الجسد الذى فارقته النفس ولا يبكى على النفس التى فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة) ص ١٤٨.

وفى الفصل السادس والأربعون بعد المائة[3] (ب).

٢: (حينئذ قال يسوع: (اليوم حصل خلاص لهذا البيت) ٣: (حقا حقا إن كثيرين من العشارين والزوانى والخطاة سيمضون إلى ملكوت الله) ٤: (وسيمضى الذين يتحسبون أنفسهم أبرارًا إلى اللهب الأبدية) ص ١٩٥.



(١) ص ١٠٩.
(٢) ص ١٤٨.
(٣) ص ١٩٤.

الفصل الثانى

العلاقة بين هذه الكتب

بعد عرضنا لسرد هذه المختارات والمقتطفات من القرآن، والتوراة، والإنجيل كان من المنطقى القول بأن هذه الكتب فيها من الأساليب والتعبيرات مالا يمكن حصره من البلاغة والتوجيهات والمضامين(١) القوية، **وهى تتفق من وجوه وتختلف من وجوه:**

وتنحصر أوجه الاتفاق فى الآتى:

أولاً: أنها كتب سماوية من عند الله تعالى وصلت إلينا عن طريق أنبياء معصومين فيها أخبار الماضين وأخبار عن المغيبات كما أن فيها إلزام دينى وتعبدى واجتماعى مما يعنى أنها تمثل الشرائع السماوية عمومًا.

ثانيًا: أن هذه الكتب لا ينهض أى كتاب أو تشريع أن يكون حجة أو حتى شبه حجة عليها.. مما يجعلها مقدسة وسامية.

ثالثًا: تعد تلك الكتب السماوية هادية ومرشدة وموجهة تدور حول معتقدات ومقتضيات خاصة ليُهتَدَىَ بها إلى الله.

رابعًا: كما أنها هى المنشأ لتصنيف الأديان السماوية الثلاثة وهى (اليهودية، والنصرانية والإسلام) بشرائع خالصة.

خامسًا: ليس فيها أى تعارض أو ما يشبه التعارض فكلها تهدى إلى توحيد الله جل شأنه – وتخليص النفوس من الأرجاس.

سادسًا: وهذه الكتب نزلت بطرق خاصة وكيفية خاصة عن طريق الوحى أو الوعد

---

(١) بعد طرحنا للكتب المحرَّمة والمحرَّفة واستثنائها.

لرجال ذوى مكانة خاصة.

سابعًا: تعد هذه الكتب ذات قيمة عليا فكلامها نور وحفظها نور كما أنها تصل الأرض بالسماء – والعباد بالإله الواحد.

ثامنًا: وهى تدور حول جميع المحاور الإنسانية والطبيعية والملكوتية بيانًا وجدلاً وتفصيلاً فى صور مختلفة.

تاسعًا: لا يذهب العقل فى هذه الكتب إلى مذاهب مختلفة فأولها هو البداية المطلقة لكلام الله تعالى.. وآخرها هو النهاية المطلقة لكلام الله تعالى، ولا يستطاع مضاهاتها أو محاكاتها إطلاقًا.

عاشرًا: فى دلالتها إعجاز لا يوصف قد يتفاوت ويتباين ولكنها تجمع على أن هناك قدرة وعلوا لا نهاية له ولا وصف.

وتنحصر أوجه الاختلاف فى الآتى:

أولاً: اختلاف نزولها باختلاف الزمان والمكان والأحكام والشرائع.

ثانيًا: نزلت التوراة أولاً بالشريعة الموسوية جملة واحدة وتلقاها الكليم موسى عليه السلام فى طور سيناء قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقيل: إنها احتوت سورة النجم بكاملها نصًا.

ثالثًا: وكان الإنجيل ثانيًا ونطق به روح الله عيسى عليه السلام وحبره الحواريون وكان ذلك بأرض فلسطين (القدس).

رابعًا: ثم القرآن الكريم ونزل به الأمين جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ منجمًا ومفرقًا فى شبه الجزيرة العربية على مدى (٢٣) عامًا بأسلوب معجز وبيان واضح..

خامسًا: تعددت أسماء القرآن ولم تختلف أحكامه، واختلفت أسفار التوراة وآيات الإنجيل.. ويعتبر إنجيل برنابا أقرب إلى الصواب.

سادسًا: اقتصرت التوراة على خطاب بني إسرائيل وتبشيرهم بالعالمية والأفضلية، وإخبارهم عن نبي آخر الزمان.

سابعًا: كما اقتصر الإنجيل على خطاب بني إسرائيل أيضًا وتحذيرهم من الخطايا، وإخبارهم عن النبي الخاتم محمد ﷺ وبه تمت رسالات السماء.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران:٣، ٤].

ولا يخفى الفرق بين نزَّل، وتكرار أنزل ... إلخ.

تاسعًا: القرآن لم يدخله التحريف ولا التبديل قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩].

عاشرًا: التوراة والإنجيل دخلهما التحريف والتبديل قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥].

ولقوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤١].

أحد عشر: اختلفت درجات الإعجاز بدرجات من نزل عليهم الكتاب فكان القرآن الكريم هو أعظم الكتب على أعظم الأنبياء والأمم.

اثنا عشر: عموم رسالة القرآن قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثلاثة عشر: فى القرآن آيات فيها جدال لأهل الكتاب وسَوْق الحجج والبراهين على الوحدانية لله تعالى، وختام الرسالات.

أربعة عشر: فى التوراة والإنجيل (جدال) فيه (إنقاص) من الذات العلية – حاش لله – كمصارعة يعقوب للرب، ومحاولة الزج بعقيدة (التثليث) والقول بالأقانيم الثلاثة قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠].

خمسة عشر: أثبت القرآن الكريم جميع الأنبياء والرسل كما اعترف بجميع الكتب السماوية وتحدث عن جميع الأمم – وهذا ليس موجودًا بهذا الوصف فى الكتب السابقة.

قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦].

وبهذا الاعتبار فقد كفر الذين حرفوا الكتب السابقة.

الفصل الثالث

هل هناك جامع بين هذه الكتب؟ أم لا؟

احتوت التوراة على أخطاء ذات طابع تاريخى(١) اكتشفها عدة مفسرين من اليهود والمسيحيين ولكنهم قللوا من أهمية هذه الأخطاء حيث يرون أنه من الطبيعى أن يقدم الكاتب أمورًا تاريخية بحسب وجهة النظر الدينية.

ولقد لوحظ أن كثيرًا من المصادر المختلفة التى استخدمت فى تأليف النص هى أصل رواية حدث واحد بشكلين مختلفين، بل إن التعديلات المختلفة والإضافات اللاحقة إلى النص نفسه كالتعليقات التى أضيفت استدلاليا ثم دخلت فيما بعد على النص عند نسخه مرة أخرى مما جعل الأب (ديفو) يقدم تفصيلاً بكثير من النقاط المتنافرة التى لا يبدو لنا أن الفكرة العامة التى نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء هو أنه لا يجب أن نأخذ النص مأخذًا حرفيًا.

وتعد الموضوعات التى عرضتها التوراة خاصة بالأنبياء: نوح وإبراهيم وإيليا ويونس وأيوب وموسى، وبملوك إسرائيل طالوت وداود وسليمان، وعرضت كذلك بشكل نوعى لروايات وأحداث كبرى تدخلت الخوارق فى مجراها، فهناك مثلاً: خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان والطوفان وخروج موسى، وهى موضوعات لها روايات مشتركة بين القرآن والتوراة، وهناك موضوعان لهما روايات مشتركة بين القرآن والتوراة ويستحقان الدراسة وهذان الموضوعان هما: ١ - الطوفان ٢ - خروج موسى من مصر.

والأول مهم لأنه لم يترك فى تاريخ الحضارات الآثار التى تضمنتها رواية التوراة على حين أن المعطيات الحديثة لا تثير أى نقد بالنسبة إلى رواية القرآن.

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، د/ موريس بوكاى.

أما الثانى فهو مهم أيضًا لأن رواية القرآن ورواية التوراة تبدوان متكاملتين فى خطوطها العريضة ولأن المعطيات الحديثة تأتى لكل من الروايتين بدعم تاريخى ملحوظ، انتهى كلامه.

أما عن القرآن والأناجيل فيجب أولاً ملاحظة(١) أنه ليس هناك أى موضوع من موضوعات الأناجيل قد أثار انتصارات من وجهة النظر العلمية دون أن نجده فى القرآن، والمسيح فى القرآن موضوع إشارات عديدة منها على سبيل المثال إعلان ميلاد مريم إلى أبيها، وإعلان معجزة ميلاد المسيح لمريم، وطبيعة المسيح فهو نبى يحتل المكانة الأولى من بين كل الأنبياء، وصفته كمسيح، والوحى الذى توجه به للبشر مؤكدًا ومعدلاً التوراة، وتبشيره وتلامذته الحواريون، والمعجزات، وصعود الأخير إلى جانب الله ودوره فى اليوم الآخر.

إن سورة آل عمران وسورة مريم تخصصان فقرات طويلة لأسرة المسيح وهما ترويان مولد أمه مريم وصباها وإعلانها بأمومتها الخارقة والمسيح يسمَّى دائمًا فى القرآن (ابن مريم) والقرآن يعطى نسب المسيح من جهة أمه أساسًا وذلك أمر منطقى تمامًا إذ ليس للمسيح أب بيولوجي.

وهنا ينفصل القرآن عن إنجيلي متَّى ولوقا اللذين يعطيان للمسيح نسبين من جهة الذكور وهى بالإضافة إلى ذلك مختلفة. إن القرآن يضع المسيح من خلال نسب أمه وفى سلسلة نوح وإبراهيم ولأبى مريم ويسمَّى فى القرآن (عمران) ففى القرآن يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾ [آل عمران:٣٤].

المسيح إذن سليل نوح وإبراهيم من أمه مريم ومن أبى هذه - أى عمران - ولا يجد قارئ القرآن أخطاء فى الأسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل وتعنى الأخطاء الخاصة

(١) المصدر السابق.

بأسلاف المسيح واستحالات الأنساب فى العهد القديم.

أما من ادعوا بغير أساس أن محمدًا ﷺ هو مؤلف القرآن وأنه قد نقل كثيرًا من التوراة فادعاؤهم باطل ؛ لأن ذلك لو كان حقا لتساءلنا من الذى دفعه أو ما الحجة التى أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح وبإدخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيدًا عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبول بالمرة من وجهة النظر هذه.

افتراءات، والرد عليها

وقد تولى الأستاذ الدكتور/ عبد العظيم المطعنى(١) الرد على الادعاءات الكاذبة المجملة فى الآتى:

١- أن محمدًا ﷺ ألف القرآن من عنده وهو منعزل فى غار حراء وزعم أنه أُوحِىَ إليه به من قبل السماء.

٢- أن محمدًا ﷺ صادق ولكنه مخدوع ؛ لأن رسالته كاذبة؟!.

٣- أن القرآن مقتبس من التوراة وليس له مصدر سماوى مستقل.. بل إن البعض تمادى فى تطاوله فقال:

(ما فى القرآن من جديد فليس صحيحًا..وما فيه من صحيح فليس جديدًا) ؟!

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف: ٥].

فكان ردُّ فضيلته - حفظه الله - عليها:

أن هؤلاء ليس لهم حجة فيما قالوا سوى شبهة واهية ومع علمهم بضعفها بل ببطلانها

(١) مجلة الأزهر، الجزء العاشر السنة ٧٤ - شوال ١٤٢٢ هـ، يناير ٢٠٠٢م.

فإنهم «بنوا من حبَّتها قُبَّة» لأنهم لا يبحثون عن الحق ليتبعوه وإنما همهم كله محاربة الإسلام والقضاء عليه ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وافتراض حسن النية فيهم مستحيل لأن البغضاء بدت من كل كلمة تفوهوا بها فى هذا المجال والشبهة فى التوراة.

ومن أبرزها الجانب القصصى وبعضهم يضيف على التوراة باعتبارها، عندهم مصدرًا للقرآن يضيف الإنجيل كمصدر ثانوى مساعد للتوراة فى تكوين القرآن وهذا هو المسمَّى «بالاقتباس».



الفصل الرابع

الاقتباس[1]

وفنَّد فضيلته هذه المزاعم بتوضيح معنى الاقتباس ، فقال: الاقتباس عملية فكرية لها ثلاثة أركان وهى:

١- الشخص المقتَبِسُ ٢- الشخص المقتَبَسُ منه.

٣- المادة العلمية المقتَبَسَةِ... وتطبيق هذا على ما نحن بصدده يسفر عن الآتى:

أ- محمد ﷺ هو المقتَبِس ب- موسى ﷺ أو (التوراة) هوالمقتَبَسُ منه.

ج- المادة القصصية فى القرآن (المقتبَسَةِ) ويطرح هذا السؤال:

هل القرآن عندما اقتُبِسَ من التوراة أو الإنجيل - كما تدَّعون - كان خاضعًا لشروط الاقتباس المتقدم ذكرها والتى ترتب على هذا النحو:

أولاً : نقل الفكرة بلفظها ومعناها ، أو بمعناها دون لفظها.

ثانيًا : نقل جزء من الفكرة بلفظها ومعناها، أو بمعناها دون لفظها.

ثالثًا : عجز المقتبس عن الإتيان بجديد لم يكن له وجود فى المصدر الذى حدث الاقتباس منه بل يتحتم عليه أن يدور فى فلكه دائمًا.

إذا قارنا بين مواضع التشابه فى القرآن وفى التوراة لاحت لنا «حقيقة ضخمة» لا يمكن عقلاً إنكارها تلك الحقيقة أن القرآن كان أطول باعًا.. وأرحب أفقًا.. وأوسع

---

(١) الاقتباس هنا خاص برد دعوى أهل الكتاب بمصدريه التوراة والإنجيل للقرآن ، وله باب آخر خاص يتضمن الشعر أو النثر بعض القرآن فى كتاب الإتقان وكتاب البرهان.

مساحة مما عليه التوراة والإنجيل وملحقاتها التى يدرجها القوم فى مفهوم «الكتاب المقدس» ذلك أن القرآن الكريم:

١- عرض الوقائع عرضًا يختلف عن عروض التوراة لها.

٢- أضاف جديدًا لم تعرفه التوراة ولا أسفار الكتاب المقدس جميعها.

٣- صحح أخطاء فاحشة حفلت بها أسفار التوراة.

٤- انفرد القرآن بحقائق خاصة ليس لها فى الوجود مصدر سواه.

٥- فى حالة اختلاف القرآن مع التوراة يكون الصواب هو ما فى القرآن والخطأ هو ما فى التوراة بشهادة العقل والنقل والعلم والواقع!!.

صور التشابه بين: القرآن - والتوراة - والإنجيل.

وقد استند الدكتور المطعنى إلى ثلاث صور وناقشها وقام بمقارنتها وهى كالتالى:

الصورة الأولى: مراودة زوجة عزيز مصر ليوسف وسجنه عليه السلام.

الصورة الثانية: واقعة لبنى آدم: قابيل وهابيل.

الصورة الثالثة: بشارة زكريا بيحيى عليهما السلام.

مراودة زوجة عزيز مصر ليوسف وسجنه:

أولاً: نص حديث التوراة:

وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت: اضطجع معى.. فأبى وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدى لا يعرف معى ما فى البيت.. وكل ما له قد دفعه إلى يدى.. ليس هو فى هذا البيت أعظم منى.. ولم يمسك عنى شيئًا غيرك لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله.. وكان إذا كلمت يوسف يومًا فيومًا أنه لم يسمح لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها.

ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت فأمسكت بثوبه قائلة: اضطجع معى فترك ثوبه فى يدها وخرج إلى خارج وكان لما رأت أنه ترك ثوبه فى يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة:

(انظروا قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا.. دخل إلىَّ ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم.. وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى خارج.. فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده على بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل إلىَّ العبد العبرانى الذى جئت به إلينا ليداعبنى.. وكان لما رفعت صوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى خارج.. فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك أن غضبه حمى فأخذ يوسف ووضعه فى بيت السجن المكان الذى كان أسرى محبوسين فيه).. سفر التكوين الاصحاح ٣٩ - من ٧: ١٩.

ثانيًا: نص حديث القرآن :

قال الله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ

مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يوسف ٢٣: ٣٥].

المقارنـة:

بعد عرض هذين النصين من التوراة والقرآن يمكننا المقارنة بينهما على هذا النحو:

التوراة: المراودة حدثت مرارًا.. ونصح يوسف لامرأة العزيز كان قبل المرة الأخيرة.

القرآن: المراودة حدثت بعد مرة واحدة وقد اقترنت بعزم امرأة العزيز على يوسف لينفذ رغبتها.

التوراة: تخلو التوراة من الإشارة إلى غلق الأبواب وتقول: إن يوسف ترك ثوبه بجانبها وهرب.. وانتظرت هى قدوم زوجها العزيز وقصت عليه القصص بعد أن أعلمت بها أهل بيتها.

القرآن: يشير إلى تغليق الأبواب وأن يوسف همّ بالخروج فقدّت قميصه من دبر وحين وصلا إلى الباب وهى تطارد يوسف فوجئا بالعزيز يدخل عليهما فبادرت المرأة فى الحال بشكوى يوسف عليه السلام على زوجها واقترحت على زوجها سجن يوسف أو تعذيبه.

التوراة: لم يكن يوسف موجودًا فى البيت حين دخل العزيز ولم يدافع عن نفسه حين اتهمته امرأة العزيز واقترحت عليه سجنه أو تعذيبه.

القرآن: يوسف كان موجودًا فى البيت لما دخل العزيز وقد دافع عن نفسه أمامه وقال يوسف للعزيز: هى التى راودتنى عن نفسى.

التوراة: تخلو التوراة من حديث الشاهد وتقول: إن العزيز حمى غضبه على يوسف ثم أودعه السجن فورًا دون عرض أمره على حاشيته.

القرآن: يذكر القرآن شهادة الشاهد تفصيلاً كما يشير على اقتناع العزيز بالشهادة مع توجيه اللوم إلى امرأته ويثبت يوسف على العظة والطهارة ويؤكد أن امرأته أخطأت وأن إدخال يوسف السجن كان بعد مشاورة حاشية العزيز.

التوراة: تخلو التوراة من حديث النسوة باتهامهن امرأة العزيز بمراودة فتاها يوسف عن نفسه ووصفها بأنها كانت من الضالين.

القرآن: يذكر حديث النسوة بالتفصيل وتوجيه الدعوة إليهن من امرأة العزيز وحضورهن إلى بيتها مع ما دار فى هذا اللقاء من أحداث مذهلة.

التوراة: تعبر التوراة عن مراد امرأة العزيز من يوسف بالاضطجاع معها وهو كناية مبتذلة لفظًا ومعنى لأنها تجسيم مكشوف لعمل الفاحشة.

القرآن: يعبر القرآن عن مراد المرأة من يوسف عليه السلام بالمراودة وإغرائها إياه (هيت لك) وهما كنايتان عفيفتان تومئان إلى المعنى المراد وراء حجاب.

نتيجة المقارنة:

القرآن الكريم أتى بجديد لم تعرفه التوراة ومنه حديث النسوة ومدحهن ليوسف والهمّ بين المرأة ويوسف.. كما سجَّل القرآن دعاء يوسف ربه واستجابة الله دعاء يوسف وقدُّ قميصه من الخلف – ثم عرض الواقعة على حاشية العزيز، ولو كانت التوراة هى مصدر

القرآن فأين نجد هذا الجديد فى التوراة؟! وهذه كافية فى إبطال الدعوى القائلة باقتباس القرآن من التوراة ثم زعم أنه وحى نزل عليه من الله عليه السلام كما أن القرآن قام بتصحيح أخطاء وردت فى حديث التوراة عن هذه الواقعة من قصة يوسف عليه السلام ومن تلك الأخطاء:

أن يوسف عليه السلام لم يترك ثوبه بيد المرأة فى بيت العزيز بل كان مرتديًا ثوبه وهو يحاول الإفلات من الوقوع فى الفاحشة التى كانت المرأة تطارده من أجلها - وهذا ما أثبته القرآن الكريم - كل ما فى الأمر أن المرأة قدَّت قميصه من الخلف وهذا هو الأليق بسمعة رسول كريم - ورسل الله جميعًا منزهون عن الخطايا مبرءون من الدنايا - قد يزعم الخصم أن الذى ذكره القرآن هو الخطأ.. وأن الذى ورد عن التوراة هو الصواب..؟ ولكن يجاب عن ذلك: بأننا لم نتحيز للقرآن لأنه كتاب المسلمين ؛ ولكن دعانا إلى هذا داعيان:

الأول: لم يرد فى القرآن قط خلاف ما هو الحق وعلى كثرة ما طعن فيه الطاعنون - قديمًا وحديثًا - لم يعثروا فيه على ما يخالف الحق والصواب.

الثانى: يقرر القرآن أن يوسف عليه السلام لم يترك ثوبه بل فرَّ هاربًا من كيد المرأة فأمسكته من الخلف ومزَّقته بينما تقول التوراة إن يوسف ترك ثوبه كله بيد المرأة وذهب فإذا سلمنا برواية التوراة فيوسف ليس عفيفًا - حاش لله - وفى هذه الحالة تكون امرأة العزيز على صواب فى إلقاء التهمة عليه.. أما رواية القرآن ففيها إدانة قوية لامرأة العزيز وبراءة قوية ليوسف عليه السلام.

أما ادعاؤهم بأن القرآن زوَّر الواقع حيث أثبت شهادة شاهد للواقعة من أهل المرأة بينما كان يوسف وامرأة العزيز وحدهما فى البيت فأين كان يختبئ الشاهد.

وأجيب عن ذلك بأنه: لا يلزم من إثبات الشهادة فى القرآن وجود أحد معهما فى البيت فهذا أمر مسكوت عنه فى القرآن لا يثبته ولا ينفيه ومع هذا فالشهادة مقبولة لأنها قد تكون إدلاء رجل من أهلها حضر مع العزيز فأدلى برأيه وأشار على العزيز بتحكيم هذه (الإمارة) بعد اقتناعه بإدانة المرأة.

(واقعة ابنىْ آدم : قابيل وهابيل)

أولاً: نص حديث التوراة:

«حدث بعد أيام أن قدّم قابيل من أثمار الأرض[1] قربانًا للرب وقدّم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها.. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قابين وقربانه لم ينظر..! فاغتاظ قابين جدًا وسقط وجهه فقال الرب لقابين: لماذا اغتظت؟ ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أملاً رفع.. إن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها.. وكلم قابين هابيل أخاه وحدث إذ كانا فى الحقل أن قابين قام على هابيل أخيه وقتله.. فقال الرب: لقابين أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم.. أحارس أنا لأخى؟ فقال ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلىَّ من الأرض فالآن ملعون أنت التى فتحت فاها.. لتقبل دم أخيك من يدك - متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها.. تائهًا وهاربًا تكون فى الأرض.. فقال قابين للرب: ذنبى أعظم من أن يحتمل أنك طردتنى اليوم على وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائهًا وهاربًا من الأرض فيكون كل من وجدنى يقتلنى.. قال له الرب: لذلك كل من قتل قابين فسبقه أضعاف ينتقم منه.. وجعل الرب لقابين علامة لكى لا يقتله كل من وجده.. فخرج قابين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن» سفر التكوين الإصحاح الرابع (٣: ١٦).

ثانيًا: نص حديث القرآن:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ

---

(١) مجلة الأزهر الجزء ١١ (السنة ٧٤) ذو القعدة ١٤٢٢ هـ فبراير ٢٠٠٢ م.

أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) ﴾ [المائدة ٢٧: ٣٣].

المقارنـــة:

ونعرض للمقارنة هنا أيضًا بعد عرض النصين الماضيين فنقول:

التوراة: تسمى أحد ابنى آدم قابين (بالنون) وهو القاتل وتسمى الآخر هابيل.. وهـو المقتول.

القرآن: لم يطلق أسماء على ابنى آدم واكتفى بأنهما ابنان لآدم عليه السلام.

التوراة: تحدد نوعية ما قدمه الابنان من قرابين.

القرآن: لم يحدد نوعى القربان بل اكتفى بذكرهما إجمالاً.

التوراة: تروى حوارًا مباشرًا بين الابن القاتل (قابين) وبين الرب.. وأنه حدث مرتين:

قبل القتل وبعده.

القرآن: يخلو من ذكر هذا الحوار بين الابن القاتل والرب قبل القتل وبعده لا مباشرًا ولا غير مباشر.

التوراة: تقول إن الرب طرد قابين ولعنه.

القرآن: يخبر أن القاتل أصبح من الخاسرين بعد قتل أخيه.

التوراة: تصرح بأن الرب عفا عن قابين القاتل وحقن دمه وغلظ عقوبة من يعتدى عليه ووضع عليه علامة تحذر من قتله.

القرآن: يخلو من هذا العفو والتغليظ فى عقوبة من يعتدى على القاتل (قابين) أو من وضع علامة عليه تحذر من قتله.

التوراة: الحوار الذى روته احتوى على عدة أفكار ثانوية منها قول قابين للرب: أحارس أنا لأخى؟.

القرآن: لم يرد شىء من أفكار الحوار الذى روته التوراة فى حديث القرآن الكريم. فضلاً عن عبارة – أحارس أنا لأخى؟ مع ما فيها من سوء أدب مع الله..

التوراة: خلت من الحوار الذى دار بين ابنى آدم.. وحولته إلى حوار بين الرب وبين ابن آدم القاتل.

القرآن: يروى حوارًا دار بين ابنى آدم صور فيه الواقعة تصويرًا مقبولاً.

التوراة: تحدد التوراة المكان الذى آوى إليه قابين بعد جريمته.

القرآن: يغفل القرآن هذا الجانب تمامًا لأنه لا يضيف شيئًا على جوهر الواقعة.

التوراة: تجعل ندم قابين نتيجة للعن الرب إياه وطرده من وجه الأرض.

القرآن: يجعل ندم ابن آدم القاتل نتيجة لإحساسه بقبح جريمته التى اقترفها.. وهى

قتل أخيه.

التوراة: أوردت الواقعة مجرد سرد لحادثة وقعت ولم توظفها تربويًا ولا تشريعيًا وفي روايتها عبارات غامضة وأغرب ما فيها محاماة الله عن قابين وصون دمه.. وتغليظ عقوبة من يعتدى عليه..

القرآن: يوظف القرآن الواقعة توظيفًا تربويًّا وتشريعيًّا ويهول من جريمة قتل النفس البريئة ويجعلها بمثابة قتل للناس جميعًا ، كما يعظم من فضل حماية النفس من الاعتداء عليها ويجعلها بمثابة إحياء الناس صونًا للدماء.

نتيجة المقارنة:

انفرد القرآن بذكر حقائق لم يرد لها ذكر فى التوراة كالحوار الذى دار بين الأخوين وجاء فى نهايته قتل أحدهما للآخر وهذا الحوار ليس له وجود فى التوراة مما يدفع ويبطل مصدرية التوراة للقرآن تعرض القرآن لقصة (الغراب) الذى بعثه الله معلمًا ومرشدًا للقاتل ليوارى سوأة أخيه.. بينما لم يرد للغراب ذكر فى التوراة أصلاً.

ومما نستخلصه من أحكام وردت فى هذه الآيات فى القرآن الكريم:

١- تحريم قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

٢- الحث والترغيب فى رعاية الحرمات.

٣- سن العقوبات لمن يحارب الله ورسوله ويسعى فى الأرض فسادًا.

٤- حدد نوعية العقوبات مثل: التقتيل والتصليب وتقطيع الأيدى من خلاف والنفى من الأرض (التغريب) أو الحبس.

بشارة زكريا بيحيى عليهما السلام

أولاً: نص حديث الانجيل:

«ولم يكن لهما ولد – أى لزكريا وامرأته[1] – إذ كانت الياصابات – يعنى امرأة زكريا عاقرًا وكانا كلاهما متقدمين فى أيامهما فبينما هو يكهن فى نوبة فرقته أمام الله – حسب عادة الكهنوت – أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخِّر وكان جمهور الشعب يصلون خارجًا وقت البخور وظهر له ملاك الرب واقفًا على يمين مذبح البخور فلما رأى زكريا اضطرب ووقع عليه خوف فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت.. وامرأتك الياصابات ستلد لك ابنًا وتسميه (يوحنا) ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه سيكون عظيمًا أمام الرب وخمرًا ومسكرًا لا يشرب ومن بطن أمه يمتلئ بروح القدس ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم.. يرد قلوب الآباء على الأبناء.. والعصاة إلى فكر الأبرار لكى يهيئ للرب شعبًا مستعدًا فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا؟ لأنى أنا شيخ وامرأتى متقدمة من أيامها فأجاب الملاك وقال له: أنا جبريل الواقف أمام الرب وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا.. وها أنت تكون صامتًا ولا تقدر أن تتكلم على اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته.. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه فى الهيكل فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل فكان يومئ إليهم وبقى صامتًا» إنجيل لوقا: الإصحاح الأول من (١: ٢٢).

ثانيًا: نص حديث القرآن:

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ

---

(١) مجلة الأزهر – العدد السابق.

أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٨: ٤١].

وقال أيضا: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم١: ١٥].

المقارنة :

بعد عرض هذين النَّصين نورد تلك المقارنة فيما يأتى:

الإنجيل: يجعل الصمت الذى حل بزكريا عليه السلام عقوبة من ملاك الرب لأنه لم يصدق كلامه.

القرآن: صحح هذا الخطأ وجعل الصمت استجابة من الله لدعاء زكريا عليه السلام بقول الله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران: ٤١].

قوله فى سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ [مريم: ١٠].

الإنجيل: حدد مدة الصمت من خروج زكريا من الهيكل إلى يوم أن يولد يحيى.. وهذا خطأ بيِّن صححه القرآن وجعل المدة ثلاثة أيام بلياليها.

القرآن: قدَّم على قصة البشارة بيحيى قصة نذر امرأة آل عمران ما فى بطنها محررًا لله تعالى أنها ولدت أنثى وكأنها تعتذر بعد الوفاء بنذرها لأن الإناث لا يصلحن للنذر.

الإنجيل: يجعل البشارة على لسان ملاك واحد وجعل القرآن على لسان الملائكة.

القرآن: يثبت كفالة زكريا عليه السلام للمولودة ووجوده رزقها عندها دون أن يعرف مصدره. كما يربط بين دعاء زكريا ربه أن يهب له ذرية طيبة.. وبين مولودة آل عمران.. والدعاء ذكر فى القرآن.

الإنجيل: يجعل التسمية بيحيى أو يوحنا من اختيار زكريا وأن الملاك قد نبأ.. أما القرآن فيعزو التسمية إلى الله تعالى.

القرآن: جعل دعاء زكريا لربه أن يهبه يحيى ليرثه ويرث آل يعقوب.

الإنجيل: يقول إن زكريا حين جاءه ملاك الرب وقع عليه خوف واضطراب.. مع أن ذلك لو حدث لأثبته القرآن الكريم.

القرآن: فيه أمر من زكريا عليه السلام لقومه بتسبيح الله بعد خروجه من المحراب كما أن فيه ثناء على يحيى بأنه بار بوالديه وبأنه سلام من الله وفيه إخبار بأن الله أتاه الحكم صبيًّا وأمره بأخذ الكتاب.

نتيجة المقارنة:

انفرد القرآن بحقائق ودقائق لا وجود لها فى الإنجيل أصلاً فضلاً عن كثير من الأخطاء التى صححها القرآن فى التوراة..

اتضح من عدم إثبات الخوف لزكريا عليه السلام فى القرآن عند تلقيه البشارة أن ما ثبت فى التوراة من ذلك محض افتراء ولا وجود له وأن دعاء زكريا عليه السلام لربه لم يكن بذنب كما أثبتته التوراة.

وإذن:

فكل ما ورد من نصوص مختلفة فى القرآن والتوراة والإنجيل يجعل من القرآن المصدر الوحيد والأمين على واقع الأحداث وسردها من جميع الوجوه. وما ذكر غيض من فيض واختيارات معينة أريد بها البيان وبأن القرآن لا يمكن بأن «يستورد» من التوراة أو الإنجيل شيئًا – أى شيء – ويصدق هذا قول الله عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

والسبب فى ذلك واضح فالقرآن كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يمكن تحريفه أو تبديله مهما جند أهل الباطل لذلك ومهما حشدوا لذلك من طاقات، ومن

عجيب الحكمة الإلهية أن يبرز من بين أعداء الإسلام بعض المنصفين فيكتبون بأقلامهم كلمات منصفة عندما أذهلهم وأفحمهم ما وجدوه في القرآن والإسلام.

أقلام منصفة :

جاء في دائرة معارف (لاروس) ما يلي:

«العلم العصري ولا سيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى وأنها عمل أحبار لم يذكرو اسمهم عليها ألفوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل.. بل ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الأسفار الخمسة ليس فيها كل الروايات الإسرائيلية ولكنها تحتوى فقط على إشارات ورموز وحكايات وأن هجرة مصر إن هي إلا قصة وهمية أو حادثة رمزية ليس لها أي أصل حقيقي».

«السامرة لهم توراة تخالف توراة اليهود وليس يعرف زمن ظهور هذه التوراة السامرية.. وقد اجتهد العلماء في تحديد زمانها فلم يوفقوا له والذي يعرف أنه كان إلى القرن السادس عشر مجهولاً وفي السابع عشر جلب العالم (إيسريوس) نسخًا منه من الشرق وفي الوقت نفسه جلب المسيو (هارلي روسانس) سفير فرنسا لدى تركيا نسخة منه مع كتب أخرى[1]».

وعلق الأستاذ / أنور فريد وجدي على ذلك بقوله :

(لا نقول بداية إن القرآن قد سلم من التحريف فقط بل نقول أيضًا أنه لا يعقل أن يكون قد حُرِّف أصلا، وإذا ساغ لنا أن نشك في سلامة القرآن من التحريف وقد أتانا بالتواتر العملي جيلاً بعد جيل وحفظ في عهد نزوله في الصدور والسطور وجمع في المصاحف في حياة حافلة بالمشتغلين بتلاوته تعبدًا أناء الليل وأطراف النهار فأي كتاب بعده يحتمل أن يكون قد سلم من التحريف وخصوصًا من الكتب الدينية وكلها مقطوع

(١) دائرة معارف القرن العشرين (٢ / ٧٠٢).

السند غير متواتر النقل وموجود من أصولها نسخ فيها مـن الزيـادة والـنقص والتحريـف والتبديل مالا وجه للتوفيق بينها وليس من بينها نسخة يمكن الاعتماد عليها فى أنها الأصل وما بعدها محرَّف عنها ولم يحفظها أحد عـن ظهـر قلـب فى أثنـاء نزولهـا إلى غـير ذلـك مـن مرجِّحات التحريف بل موجباته... انتهى...).

قال الفيلسوف الألماني (جيبزلر[1]) :

«الدين مخلد خلود الإحساس الذى ينتجه ولكن علوم الدين هى مثل سـائر العلـوم الأخرى يجب أن تكون قابلة للرقىِّ على قدر الرقىِّ العقلىِّ وذلك مثل العلاقة الموجودة دائمًا بين الحقوق وبين علم التشريع.. فـالحقوق لا تتغـير ولكـن علـم التـشريع يجـب أن يتغـير ويتهذب على الدوام..».

وقال الفيلسوف الفرنسى (أرنست رينان) فى كتابه : تاريخ الأديان:

من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبـه وكـل شيء نعـده مـن مـلاذٍّ الحيـاة ونعيمها ومن الممكن أن تبطل حرِّيـة اسـتعمال القـوة العقليـة والعلـم والـصناعة ولكـن يستحيل أن ينمحى الدين أو يتلاشى بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية.

وقال الفيلسوف (أجوست سباتييه[2]) في كتاب : فلسفة الأديان:

(لماذا أنا متدين؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا رأيتنى مسوقًا للإجابة عليه بهـذا الجواب وهو:

أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى.. يقولون لى: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج فأقول لهم: قد اعترضت عـلى نفـسى كثـيرًا بهذا الاعتراض نفسه.. ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها.. وإن ضرورة التـدين التـى

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين (٧ / ٧٠٩) .

(٢) نفس المصدر ص ٧٠٩.

أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية.. فهى ليست أقل تشبثًا منى بأهداف الدين.. فالدين باق وغير قابل للزوال وهو - فضلاً - عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمان نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعًا وعمقًا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة).

وهكذا بشرنا الرسول ﷺ :

عن الفلتان[1] بن عاصم رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ فى المجلس فشخص ببصره إلى رجل يمشى - فقال: «**أبا فلان**» - قال: لبيك يا رسول الله، ولا ينازعه الكلام إلا قال: يا رسول الله - قال: «**أتشهد أني رسول الله؟**» قال: لا - قال: «**أتقرأ التوراة؟**» قال: نعم - قال: والإنجيل؟ قال: نعم - قال: والقرآن - قال: والذى نفسى بيده لو أشاء لقرأته، ثم ناشده: «**هل تجدنى فى التوراة والإنجيل؟**» قال: نجد مثلك ومثل مخرجك ومثل هيئتك فكنا نرجو أن يكون فينا فلما خرجت خفنا أن تكون أنت هو، فنظرنا فإذا أنت لست هو، قال: «**ولم ذلك؟**» قال: معه من أمته سبعون ألفًا ليس عليهم حساب ولا عذاب وإنما معك نفر يسير - فقال: «**والذى نفسى بيده لأنا هو - وإنهم لأمتى.. وإنهم لأكثر من سبعين ألفًا وسبعين ألفًا..!!**» رواه البزار.. قال فى مجمع الزوائد: ورجالة ثقات.



(١) ميثاق النبيين عبد الوهاب عبد السلام طويلة: دار القبلة جدة مؤسسة علوم القرآن بيروت- ص١٦٥ وما بعدها.


الباب الثامن
حقائق وأباطيل

الفصل الأول

ذكر ما ورد عن الرسول ﷺ في النهى عن الجدل

فإن[1] هذه الأمة لم يؤتوا في دينها من شيء ما أوتوا فيه من قبل التكلف والجدال ، وهما داء الأمم السالفة ، ولم يأتيا بخبر قط وكتاب الله أنهى شيء عنهما ، والرسول المصطفى ﷺ أكره الخلق لهما وأن الله لم يقبض إليه رسوله حتى خارَ له وأغنى به، وأكمل له الدين ، وأتم به النعمة ، فترك الأمة على واضحة ليلها كنهارها ، وما من طائر يقلب جناحيه إلا وعندها فيه من تنبيه وعلم فكان من أواخر ما أنزل على نبيه:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣] .

قال شيخ الإسلام إسماعيل الهروى : سمعت أحمد بن المحسن بن محمد البزاز الفقيه الحنبلى الرازى يقول : كل ما حدث بعد نزول هذه الآية فهو فضل وزيادة وبدعة ، فضل أى (فضول مذموم).

ثم أخرج حديثاً عن عبد الله بن عمر[2] قال: قال رسول الله ﷺ : **«العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة»** أخرجه أبو داود[3] فى سننه قال

---

(١) كتاب صَوْنُ المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للإمام جلال الدين السيوطى – الجزء الأول تحقيق الدكتور على سامى النشار والأستاذة سعاد على عبد الرازق، مجمع البحوث الإسلامية سلسلة إحياء التراث العربى دار النصر للطباعة (بتصرف).

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب من أعلام الصحابة وقد عرف بتتبع الأثر مات سنة ٦٣هـ.

(٣) أحد رجال السنن المشهورين.

عبد الله بن عروة[١]: الفريضة العادلة ما اتفق عليه المسلمون وسمعت علي بن بشرى الدمشقى[٢] وغيره يقولون : سمعنا عبد الله بن عدى الصابونى يقول: الكتاب والسنة والإجماع أو الزنار والغل والجزية.

ثم أخرج فى حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» أخرجه الشيخان قال أبو مروان العثمانى[٣] يعنى البدع.

وقال أبو عبيد[٤]: جمع النبى ﷺ جميع أمر الآخرة فى كلمة «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**» [٥] وجميع أمر الدنيا فى كلمة «**إنما الأعمال بالنيات**» يدخلان فى كل باب.

إن الأمم السالفة إنما استقاموا على الطريقة ما اعتصموا بالتسليم والإتباع وأنهم لما تكلفوا وخاصموا اختلفوا وهلكوا ، وأخرج من حديث أبى هريرة[٦] مرفوعًا: «**وإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**» [٧].

وأخرج عن طريق أبى عمران الجونى[٨] عن أبى فراس ، رجل من أسلم قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا، إياى والبدع والذى نفسى بيده ، ما ابتدع رجل في الإسلام شيئًا ،**

---

(١) عبد الله بن عروة بن العوام أبو بكر. بقى إلى أواخر دولة بنى أمية – وكان مولده سنة ٤٥هـ.

(٢) علي بن بشرى: الدمشقى العطارى توفى سنة ٤١هـ.

(٣) أبو مروان العثمانى : محمد بن عثمان بن خالد الأموى مات سنة ١٤١هـ.

(٤) أبو عبيد . مولى النبى ﷺ .

(٥) حديث متفق عليه : رواه البخارى (٢٥٥٠) ، ومسلم (٤٥٨٩) .

(٦) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسى الصحابى. وقيل عبد الله بن عائذ وكان كثير الرواية مات سنة ٥٧ ، أو ٥٨ ، أو ٥٩.

(٧) حديث حسن صحيح : أخرجه مسلم رقم (٣٣٢١) ، والترمذى ، وأحمد ، والنسائى ، انظر السلسلة الصحيحة حديث رقم(٨٥٠) .

(٨) هو عبد الملك بن حبيب البصرى الأزدى أو الكندى أبو عمران الجونى مات سنة ١٢٨ هـ وقيل بعدها .

ليس في كتاب الله منزلاً، إلا لما خلف خير له مما ابتدع إن أملتتك الأعمال خواتمها، ومن شق شق عليه، فدعوني ما ودعتكم إنما هلكت الأمم باختلافهم على أنبيائهم».

وأخرج عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» (١) ثم تلا رسول الله ﷺ:

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

وأخرج من طريق عمرو بن شعيب (٢) عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم، وهم يتراجعون فى القدر، فخرج مغضبا، حتى وقف عليهم، فقال يا قوم: بهذا أضلت الأمم قبلكم باختلافهم علي أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه بعض، وإن القرآن لم ينزل لنضرب بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضًا ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به.

وأخرج عن أبى هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه، ثم قال: ((أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم أن لا تنازعوا)) (٣).

---

(١) حديث حسن: رواه الترمذى (٣١٧٦)، وابن ماجه، وأحمد، والطبرانى فى الكبير، انظر صحيح وضعيف الترغيب والترهيب رقم (١٤١)، وصحيح الجامع رقم (٥٦٣٣).

(٢) عمرو بن شعيب: بن محمد عبد الله بن عمرو بن العباسى القرشى البهى – أبو إبراهيم ويقال له أبو عبد الله -: المنى – ويقال الطائفى – توفى سنة ٣٥هـ.

(٣) حديث حسن: رواه الترمذى (٢١٣٣)، وكنز العمال (١ / ١٩١)، انظر صحيح وضعيف سنن الترمذي للألبانى رقم (٢١٣٣).

وأخرج عن أبى الدرداء [١] وأبى أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى شىء من الدين فغضب غضبًا شديدًا لم يغضب مثله ثم انتهرنا وقال: ((**يا أمة محمد لا تهيجوا على أنفسكم وضح النهار ، ثم قال: أبهذا أمرتكم أوليس عن هذا نهيتكم. إنما هلك من كان قبلكم بهذا**)) [٢].

ثم قال: ((**إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء: قالوا: يا رسول الله ، ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ولا يمارون فى دين الله**)) [٣].

وأخرج عن مرة الهمذانى أن أبا قرة الكندى أتى ابن مسعود بكتاب فقال: إنى قرأت هذا بالشام فأعجبنى ، فإذا هو كتاب من كتب أهل الكتاب.

فقال ابن مسعود: إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتاب الله ، فدعا بطست وماء فوضعه فيه وأماته بيده حتى رأيت سواد المداد.

وأخرج عن زيد بن رفيع قال: بعث الله نوحًا وشرع له الدين ، فكان الناس فى شريعة نوح ، فما أطفأها إلا الزندقة.

ثم بعث الله عيسى ، وشرع له الدين فما أطفأها إلا الزندقة.

قال زيد بن رفيع: ولا يخاف على هذا الدين إلا الزندقة. وأخرج عن منصور بن المعتمر [٤] قال: ما هلك (أهل) دين قط حتى يخلف فيهم الزنادقة.

---

(١) أبو الدرداء – عويمر بن مالك بن قيس بن أمية صحابى من جلة الصحابة عاش فى الشام وتوفى سنة ٣٥هـ.

(٢) انظر : كنز العمال رقم (٨٣١٩) .

(٣) حديث صحيح : رواه الترمذى واللفظ له رقم (٢٥٥٣) ، وابن ماجه رقم (٣٩٧٨) ، والطبرانى ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، انظر السلسلة رقم (١٢٧٣) .

(٤) منصور بن المعتمر بن عبد الله أبو عتاب السامى الكوفى من كبار التابعين توفى سنة ١٣٢ هـ.

وأخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما هلكت بنو إسرائيل حين حدَّث فيه المولدون أبناء سبايا الأمم، فوضعوا الرأى فضلوا**»(١).

وأخرج عن عروة: أن بنى إسرائيل لم يزل أمرهم معتمدًا حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم فأخذوهم بالرأى فهلكوا.

وقال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن محمد الفراش ثنا شافع بن محمد ثنا أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى ثنا المزنى ثنا الشافعى سمعت عبد الله بن المؤمل المخزومى يحدث عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: لم يزل أمر بنى إسرائيل مستقيما، حتى حدث فيهم المولودون أبناء سبايا الأمم، فقالوا فيهم بالرأى فضلوا وأضلوا.

وأخرج عن إبراهيم النخعى فى قوله تعالى: ﴿ **فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ** ﴾ [المائدة: ١٤]، قال: أغرى بعضهم بعضًا فى الجدال فى الدين، أخرجه سعيد بن منصور فى سننه.

وأخرج عن عمر بن الخطاب قال: أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله.

وأخرج عن ابن سيرين قال: كانوا يروون أن بنى إسرائيل إنما ضلوا بكتب قرءوها، وأخرج عن ابن عمرو قال: لتركبن سنة من كان قبلكم. حلوها ومرها.

كان رسول الله ﷺ يخاف على هذه الأمة من الأئمة المضلين والمجادلين فى الدين، وأخرج فيه عن أبى جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما يهلكون بعد البينات بالمحدثات المخالفات، وتزيين الضالات المضلات، وبالأهواء المغريات وتحريف المحكمات**».

---

(١) حديث ضعيف: رواه ابن ماجه رقم (٥٥)، وابن شيبة فى مصنفة رقم (١٣٨)، الدار قطنى رقم (٤٣٢٦)، انظر السلسلة الضعيفة رقم (٤٣٣٦)، وضعيف الجامع (٤٧٦٠).

وأخرج عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشد ما أتخوف على أمتى ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم فاخشوها على أنفسكم**»[١].

وأخرج عن معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنى أخاف عليكم ثلاثا وهى كائنة: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تعم عليكم**»[٢].

وأخرج عن عمر بن الخطاب قال: «**يهدم الإسلام ثلاث: زلة العالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون**». وأخرج عن عثمان بن أبى شيبة قال: فُسَّاقُ أصحاب الحديث خير من عباد غيرهم.

وأخرج فيه عن أبى ذر[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم اليوم فى زمان كثير علماؤه، قليل خطباؤه، ويأتي من بعد زمان كثير خطباؤه قليل علماؤه**»[٤].

وأخرج عن مجاهد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لم يبعث نبيا إلا مبلغا وإن تشقيق الكلام من الشيطان**» أخرجه الطبرانى من حديث حزام بن حكيم.

وأخرج عن معاوية قال: لعن رسول الله ﷺ الذين يشققون الكلام تشقيق الشعر.

وأخرج عن فاطمة الزهراء قالت: قال رسول الله ﷺ: «**شرار أمتى الذين يتشدقون فى الكلام**».

وأخرج عن سعد بن أبى وقاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**فى هذه الأمة أقوام يتخللون الكلام كما تتخلل الباقورة الخلا بألسنتها**».

---

(١) انظر المقاصد الحسنة للسخاوى (١ / ٥٨).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط (٨٧١٥)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٩٨٢٩).

(٣) أبو ذر الغفارى – جندب بن جنادة بن عبيد الغفارى صحابى توفى سنة ٣٢ هـ.

(٤) انظر السلسلة الصحيحة حديث رقم (٢٥١٠).

وأخرج عن أبي هريرة رفعه قال: «**ألا أخبركم بشرار هذه الأمة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون**»[1].

وأخرج عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون غريب الكلام وغريب الحديث. وأخرج عن الأوزاعي[2] قال: عليك بآثار السلف وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها بالقول.

قال شيخ الإسلام إسماعيل الهروي في ذم الجدال والتغليظ فيه وذكر شؤمه وأخرج فيه حديث عائشة مرفوعا: «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[3] روته أم المؤمنين عائشة في صحيح مسلم، وحديث علي أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة ليلا فقال: ألا تصليان؟ قال فقلنا: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فولى - وهو يضرب فخذه ويقول: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف: ٥٤].

وحديث أنس وكعب وابن عمر وجابر أن رسول الله ﷺ قال: «**من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»[4].

وأخرج عن ابن مسعود قال: «**لا تعلموا العلم لثلاثة: لتماروا به العلماء، أو تجادلوا به السفهاء، أو تصرفوا به وجوه الناس إليكم**»[5].

---

(١) البيهقي في السنن الكبرى (٢١٣٢١)، وفي شعب الإيمان (٤٦١٧)، كنز العمال (٧٨٨٩).

(٢) الأوزاعي : عبد الرحمن عمرو الأوزاعي أبو عمرو الفقيه وصاحب المذهب المشهور مات سنة ١٧٥ هـ.

(٣) حديث صحيح : أخرجه البخاري رقم (٢٣٢٥)، ومسلم (٦٩٥١)، والترمذي والنسائي، وأحمد، والبيهقي، وابن حبان.

(٤) حديث حسن : رواه الترمذي (٢٦٥٤)، المشكاة (٢٢٣ - ٢٢٥)، التعليق الرغيب (١ / ٦٨).

(٥) حديث حسن : كنز العمال رقم (٢٩٠٥٦)، والطبراني في الكبير (١٦٤٥٤٥)، والدرامي (٣٨٢)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٠٩)، وصحيح الجامع: (٦٣٨٢).

ثم قال «باب» ذم اتباع متشابه القرآن والجدال به .. وأخرج فيه عن عائشة قالت: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[آل عمران: ٧].

فقال: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه. فأولئك سمَّى الله، فاحذروهم**»[١].

وأخرج عن ابن عباس فى قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾[آل عمران: ٧] قال: هم أصحاب الخصومات والمراء فى دين الله.

وأخرج عن أبىٍّ قال: ما استبان لك فاعمل به وانتفع به، وما شبه عليك فآمنْ به وكلْه إلى عالمه.

وأخرج عن عثمان حاضر قال: سألت ابن عباس عن شىء فقال عليك بالاستقامة واتباع الأثر وإياك والبدع.

وأخرج من طريق عطاء عن عباس قال: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك فى قلوبكم، قلت هذه العلة التى علل بها ابن عباس منع النظر فى المتشابه بها علل النووى فى الشرح المهذب منع النظر فى علم الكلام، وهو أنه يثير الشكوك وها قد سبقه إلى ذلك. هذا المؤلف.

وأخرج عن جبير بن نفير عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجادلوا بالقرآن، ولا تكذبوا كتاب الله بعضه ببعض، فوا الله إن المؤمن ليجادل به فيغلب**»[٢].

وأخرج عن إياس بن عامر أن علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه قال: (**إنك إن بقيت فسترى القرآن على ثلاثة أصناف: صنف لله، وصنف للدنيا، وصنف للجدال**).

---

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (٦٩٤٦)، والترمذى (٢٩٩٤)، وابن حبان (٧٣).

(٢) حديث صحيح: رواه صاحب مسند الشاميين للطبرانى رقم (٩١٦)، انظر السلسة الصحيحة حديث رقم (٣٤٤٧).

وأخرج عن حميد الأعرج قال: سمع أنس بن مالك ابنه عبد الله يخاصم الأشتر فقال: لا تخاصم بالقرآن وخاصم بالسنة.

وأخرج عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (**إنه سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله**).

وأخرج عن مسروق قال: ما أجد من أصحاب الأهواء إلا وفى القرآن ما يرد عليهم ولكنا لا نهتدى له.

ثم قال وأخرج عن أبى قلابة قال: إذا حدَّث الرجل بالسنة فقال: دع هذا وهات كتاب الله. فاعلم أنه ضال، وأخرج عن قتادة فى قوله: ﴿ **مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ** ﴾ [طه: ١١٤] ، قال: يبين لك بيانه.

وأخرج عن حسان بن عطية قال: كان جبريل عليه السلام ينزل بالسنة ، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن ، وأخرج عن إسماعيل بن عبيد الله قال: ينبغى لنا أن نتحفظ ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه بمنزلة القرآن.

وأخرج عن مجاهد: فى قوله تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ** ﴾ [النساء: ٥٩] ، قال: إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عن ابن عيينة قال: أدب الله رسوله ، حتى إذا عقل عنه فوض إليه الأمر فقال:

﴿ **مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠].

وأخرج عن المعتمر بن سليمان قال: سمعت أبى يقول: أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم عندنا كالتنزيل، وقال: ثنا عبد الواحد بن أحمد ثنا محمد بن عبد الله الحافظ قال: سمعت أحمد بن إسحاق بن أيوب الفقيه الصيفى يناظر رجلا فقال: ثنا فلان قال له الرجل: دعنا من حدثنا

إلى من حدثنا. فقال له الشيخ: قم يا كافر فلا يحل لك أن تدخل داري بعد.

وأخرج عن أحمد بن سنان قال: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، وإذا ابتدع الرجل بدعة نزعت حلاوة الحديث من قلبه.

وقال: ثنا عبد الواحد بن أحمد ثنا بن محمد بن عبد الله: سمعت أبا نصر أحمد بن سهل الفقيه البخاري يقول سمعت أبا نصر بن سلام البخاري الفقيه يقول: ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث ورواية إسناده.

وقال: ثنا غالب بن علي ثنا محمد بن الحسين ثنا أبو محمد بن أبي حامد ثنا عبد الملك بن محمد بن عبد العزيز ثنا يوسف بن يعقوب ثنا الحسين بن حرب عن الحسين بن بشر الآدمي قال: قال لي حسين: الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا.. ما هو بعد الكتاب؟ قلت: السّنة قال: صدقت كان جبريل يختلف إلى رسول الله ﷺ بالسُّنة كما يختلف إليه الكتاب.

وأخرج عن ابن مسعود أنه قال: يا أيها الناس إن الله بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الفرقان، وفرض عليه الفرائض، وأمره أن يعلم أمته فبلغ رسالته، ونصح لأمته. وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وبين لهم ما يجهلون، فاتبعوه ولا تبتدعوا فقد كفيتم، كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

وأخرج عن جابر بن عبد الله[1] قال: كان القرآن ينزل على رسول الله ﷺ ويبينه لنا كما أمره الله، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾** ﴾ [القيامة: ١٨ : ١٩] - وقال: ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ**

---

(١) جابر بن عبد الله: بن عمرو بن حرام صحابي - ابن صحابي - غزا تسع عشرة غزوة ومات بالمدينة بعد السبعين وهو ابن أربع وتسعين.

إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

وأخرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « **تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله ثم تعمل بعد ذلك برهة بسنة رسول الله ، ثم تعمل بعد ذلك بالرأى ، فإذا عملوا الرأى فقد ضلوا** »[١].

وأخرج عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «**من قال بالرأى فقد اتهمنى بالنبوة** » لعله أراد – أنه شكك فى النبوة – وأخرج عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول ﷺ : «**من تكلم فى الدين برأيه فقد اتهمه**» وأخرج عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «**من قال فى ديننا برأيه فاقتلوه**»[٢] .

وأخرج عن سعيد بن المسيب[٣] قال: قام عمر بن الخطاب فى الناس فقال: أيها الناس ألا أن أصحاب الرأى أعداء السنة أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلت منهم أن يعوها فعاندوا السنن برأيهم فضلوا وأضلوا كثيرًا ، والذى نفس عمر بيده ما قبض الله نبيه ، ولا رفع الوحى عنهم ، حتى أغناهم عن الرأى ، ولو كان الدين يؤخذ بالرأى ، لكان أسفل الخف. أحق بالمسح من ظاهره فإياكم وإياهم ثم إياكم وإياهم.

وأخرج عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لأن أسمع من ناحية المسجد بنار تشتعل

---

(١) حديث ضعيف : انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة للألبانى (٧ / ٤١٨) ، وصحيح وضعيف الجامع رقم (٢٤٥٧) .

(٢) انظر : أسنى المطالب لمحمد بن درويش الحوت (١ / ٢٧٩) ، وجملة من الأحاديث الضعيفة لشمس الدين محمد بن عبد الهادى الحنبلي (١ / ٩) ، وكشف الخفاء (٢ / ٢٧٠) .

(٣) سعيد بن المسيب حزن بن أبى وهب عمرو بن عابد بن عمران بن عزوم – القرشى. وكان أحد الفقهاء السبعة من أعلام التابعين توفى عام ٩٤هـ.

أحب إليَّ من أن أسمع فيه ببدعة ليس لها معين .

وأخرج عن سهل بن حنيف [١] قال: يا أيها الناس اتهموا رأيكم فلقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم أبي جندل ولو نستطيع أن نرد على رسول الله ﷺ أمره لرددناه [٢].

وأخرج عن عمر بن الخطاب قال: يا أيها الناس اتهموا الرأى على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأيي اجتهادًا ، والله ما آلوا عن الحق وذلك يوم أبي جندل.

وأخرج عن ابن عباس قال: إياكم والرأى فإن الله رد على الملائكة الرأى قال:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال لنبيه ﷺ :﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥] ولم يقل بما رأيت.

وأخرج عن ابن عباس [٣] قال: من أخذ رأيا ليس في كتاب الله ، ولم تمض به سنة من رسول الله لم يدر على ما هو منتهٍ إذا لقى الله، وأخرج عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**» [٤]، وإن رآها الناس حسنة .

---

(١) سهل بن حنيف بن واهب الأنصارى الأوسى - صحابي من أهل بدر - استخلفه علي على البصرة - ومات في خلافته.

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد رقم (١٥٤٠) ، والمعجم الكبير للطبراني رقم (٥٤٦٧) .

(٣) ابن عباس: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وينسب إليه أول تفسير للقرآن في الإسلام ، كذلك كان من أوائل من ناقشوا الخوارج - مات سنة ثمان وستين.

(٤) حديث صحيح :رواه ابن ماجه ، وأحمد ، انظر صحيح الترغيب والترهيب رقم (٣٧) ، والسلسلة الصحيحة رقم (٢٧٣٥)

وأخرج عن بلال بن سعد [١] قال: ثلاث لا يقبل معهن عمل: الشرك، والكفر والرأى، وأخرج عن سفيان الثورى فقال: إنما الدين الآثار.

وأخرج عنه قال: ينبغى للرجل أن لا يحك رأسه إلا بأثر، وأخرج عن العلاء بن المسيب عن أبيه قال: أن نتبع ولا نبتدع ونقتدى ولا نبتدى لن نضل ما تمسكنا بالآثار، وأخرج عن ابن سيرين [٢] قال: كانوا يقولون ما دام على الأثر. فهو على الطريق.

وأخرج عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار»** [٣].

وأخرج عن أبى أمامة [٤] قال: قال رسول الله ﷺ: **«طوبى لمن وسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة»**.

وأخرج عن الحسن [٥] قال: قال رسول الله ﷺ: **«عمل قليل فى السنة خير من كثير فى بدعة»** [٦].

---

(١) بلال بن سعد بن تميم الأشعرى أو الكندى أبو عمر أو أبو زرعة الدمشقى مات فى خلافة هشام بن عبد الملك.

(٢) ابن سيرين محمد الأنصارى أبو بكر بن أبى عمرة البصرى وينسب إليه أيضاً تفسير الأحلام. مات سنة عشر ومائة.

(٣) حديث صحيح: رواه النسائى رقم (١٥٦٠)، وصاحب كنز العمال، والطبرانى فى الكبير والأوسط، والبيهقى فى شعب الإيمان، انظر صحيح وضعيف سنن النسائى للألبانى رقم (١٥٧٨).

(٤) أبو أمامة: البلويّ حليف بنى حارثة وقيل عبد الله بن ثعلبة – وقيل ابن عبد الله بن سهل: صحابى وله أحاديث.

(٥) الحسن بن علي بن أبى طالب سبط الرسول محمد ﷺ مات سنة خمسين وقيل بعدها.

(٦) انظر: شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوى (٤ / ٢٧).

وأخرج عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، وأخرج عن الحسن أنه تلا :

﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢] .

قال: قاس إبليس وهو أول من قاس. وأخرج عن أحمد بن حنبل[١] قال: سألت الشافعي عن القياس فقال: عند الضرورات، وأخرج عن الربيع[٢] قال: سمعت الشافعي يقول: لولا المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر.

وأخرج عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من رغب عن سنتي فليس مني**»[٣].

وأخرج عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «**أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته**»[٤] .

وأخرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[٥].

---

(١) أحمد بن حنبل – الشيباني الإمام المشهور وشهد محنة خلق القرآن ، وقد ترك أثراً كبيراً في العالم الإسلامي بمواقفه الرائعة في هذه المحنة – توفي سنة ٢٤١هـ.

(٢) الربيع بن سليمان بن داود الجيزي المرادي أبو محمد البصري مات سنة ٢٥٦هـ.

(٣) حديث صحيح : كنز العمال (١٨١٤٦) ، وصحيح ابن خزيمة ، انظر حديث رقم (٤٩٤٦) في صحيح الجامع .

(٤) حديث ضعيف : سنن ابن ماجه رقم (٤٩) ، انظر : السلسلة الضعيفة والموضوعة (٣/ ٦٨٤) ، وانظر السلسلة الضعيفة رقم (١٤٩٢) .

(٥) حديث صحيح : رواه أبوداود رقم (١٢٣٥) و، وابن أبي شيبة في مصنفه ، والطبراني في الأوسط ، انظر حديث رقم (٦١٤٩) في صحيح الجامع .

وأخرج عن سعيد بن جبير[1] في قوله تعالى:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢]

قال لزم السنة.

وأخرج عن سليمان[2] بن حرب قال: من زاغ عن السنة شعرة فلا تعتدن به، وأخرج عن سفيان قال: وجدت الأمر الاتباع.

وأخرج عن الزهري قال: كان رجال من أهل العلم يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، وأخرج عن زيد بن أرقم[3] قال: من تمسك بالسنة ثبت ونجا، ومن أفرط مرق ومن خالف هلك، وأخرج عن ابن عباس قال: (من خالف السنة كفر).

وأخرج فيه عن قتادة[4] في قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

[الأنعام: ٧١]، قال: خصومة علمها الله محمدًا ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلال.

وأخرج عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قال: إن أمتك لا يزالون يتساءلون ما كذا ما كذا»**[5]، حتى يقولون: الله خلق كل شيء فمن خلق الله؟

وأخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال الناس يتساءلون**

---

(١) سعيد بن جبير: الأسدي الكوفي من أكبر أئمة المسلمين. قتل سنة ٩٥هـ بيد الحجاج

(٢) سليمان بن حرب: الأزدي الواشجي البصري القاضي بمكة. مات سنة ٢٢٤هـ.

(٣) زيد بن أرقم: بن قيس الأنصاري. الخروجي. مات سنة ست أو ثمان وستين.

(٤) قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الظفري مات سنة ثلاث وعشرين.

(٥) حديث صحيح: رواه مسلم (٣٨٦)، وأحمد في مسنده (١١٥٥)، انظر حديث رقم (٤٣١٩) صحيح الجامع.

حتى يقول أحدهم: **هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فإن سئلتم فقولوا: الله قبل كل شيء وهو كائن بعد كل شيء وهو خالق كل شيء**»[١].

وأخرج عن مطرِّف قال: عقول الناس على قدر زمانهم، وأخرج عن أنس أن رجلا سأل عمر بن الخطاب عن قوله: «وأبًّا» ما الأبُّ؟ فقال: نهينا عن التعمق والتكلف.

وأخرج عن ابن مسعود قال: ما رأيت أحدًا كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ ولا من أبي بكر وعمر.

وأخرج عن رجل من الصحابة قال: نهى رسول الله ﷺ عن الأغلوطات قال الأوزاعي: يعني شرار المسائل، وأخرج عن ابن مسعود قال: «**إياكم وصعاب القول**».

وأخرج عن الحسن قال: «**شرار عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل يعمون بها عباد الله**»، وأخرج عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإسلام ذلول لا يركبه إلا ذلول**»[٢].

وأخرج عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: إياك والبدع والتبدع والتنطع وعليك بالأمر العتيق، وأخرج عن ابن مسعود: إنكم ستحدثون ويحدث لكم فإذا رأيتم محدثًا فعليكم بالأمر الأول؛ وأخرج عن كثير بن عبد الله[٣] عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**إنكم ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله وإلى محمد**».

---

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (٣٦٠)، وأبوداود في مسنده (٤٠٩٨)، وصاحب كنز العمال، انظر حديث رقم (٧٦٩٦) في صحيح الجامع.

(٢) حديث ضعيف: انظر: السلسلة الضعيفة و الموضوعة (٥/ ٤٨٩).

(٣) كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف المزني المدني.

وأخرج عن عمران بن حصين[١] أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الحياء لا يأتى إلا بخير**»[٢].

فقال بشير بن كعب[٣]: إنا نجد فى بعض الكتب أن منه سكينة ووقارا ومنه ضعفًا فغضب عمران حتى احمرت عيناه وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثنى عن كتبك الخبيثة.

وأخرج عن حفصة أنها جاءت إلى النبى ﷺ بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرأ عليه والنبى ﷺ يتلوَّن وجهه فقال: «**والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا معكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم**»[٤].

وأخرج عن ابن عمران أن رسول الله ﷺ قال: «**من اقتراب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويوضع فى القوم المثناة، ليس أحد يغيرها. قلت: ما المثناة؟ قال كتاب كتب سوى كتاب الله** ﷻ»[٥].

وأخرج حديث العرباض[٦] بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ الحديث وفيه: «**فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ – وإياكم**

---

(١) عمران بن حصين، بن عبد الله بن خلف الخزاعى مات سنة ٥٢ هـ بالبصرة.

(٢) انظر: كنز العمال رقم (٥٧٤٨)، والمعجم الكبير للطبرانى (١٤٦٥٨)، وشعب الإيمان للبيهقى رقم (٧٤٤٤).

(٣) بشير بن كعب بن أبى الجبرى – العدوى أبو أيوب البصرى – ثقة – مخضرم من الثانية.

(٤) انظر: إرواء الغليل (٦ / ٣٧).

(٥) انظر: كنز العمال (١٤ / ٢٤٣)، والمستدرك على الصحيحين (٨٨١٠).

(٦) العرباض بن سارية السامى أبو نجيح – صحابى – من أهل الصفة نزل حمص – ومات بعد السبعين.

وبحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

ثم قال: وأخرج فيه عن أبى الدرداء وأبى ذر قالا: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طير فى السماء جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا.

وأخرج عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة، حتى يكفر بالله جهارًا، وذلك عند كلامهم فى ربهم**»[1].

وأخرج عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تكون خصوماتهم فى ربهم**».

وأخرج عن محمد بن الحنفية قال: لا تهلك هذه الأمة حتى تتكلم فى ربهم. وأخرج عن المقدام بن معد يكرب[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا حدثتم الناس عن ربهم، فلا تحدثوهم بالذي يفزعهم ويشق عليهم**»[3].

وأخرج عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان سحرًا وإن من الشعر حكمًا وإن من القول عيا**[4] **وإن من طلب العلم جهلا**»[5]، قال أبو منصور

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير رقم (٧٦٦) والأوسط رقم (٣٨٤٣) ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦١)، وكنز العمال (١١٨٧).

(٢) المقدام بن معد يكرب عمر.

(٣) حديث ضعيف: رواه الطبرانى فى الأوسط رقم (٨١٩٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٦٣١)، وكنز العمال (٥٣٠٧)، انظر فى ضعيف الجامع رقم (٤٦٢).

(٤) أى جهلًا.

(٥) حديث ضعيف: رواه أبوداود (٤٣٥٩)، وكنز العمال، انظر مشكاة المصابيح رقم (٤٨٠٤).

الأزهري في قوله: «**وإن من طلب العلم جهلاً**» معناه: علم النجوم وعلم الكلام.

وأخرج عن الحكم بن عمير الثمالي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن هذا القرآن صعب مستصعب لمن كرهه ، ميسر لمن اتبعه وإن حديثي صعب مستصعب لمن كرهه، ميسر لمن اتبعه من سمع حديثي فحفظه، وعمل به جاء يوم القيامة مع القرآن، ومن تهاون بحديثي فقد تهاون بالقرآن ومن تهاون بالقرآن خسر الدنيا والآخرة آمر أمتي أن خذوا بقولي أطيعوا أمري واتبعوا سنتي لأن الله يقول:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]»[١].

وأخرج عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والركون إلى أصحاب الأهواء فإنهم بطروا النعمة وأظهروا البدعة وخالفوا السنة ونطقوا بالشبهة وتابعوا الشيطان**»[٢].

وأخرج عن محمد بن الحنفية قال: (إن قومًا ممن كانوا قبلكم أوتوا علمًا كانوا يكتفون به فسألوا عما فوق السماء وما تحت الأرض فتاهوا فكان أحدهم إذا دعى من بين يديه أجاب من خلفه، وإذا دعى من خلفه أجاب من بين يديه) .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت عبد الله بن أبي[٣] يشتد قدام النبي ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب والنبي ﷺ يقول له: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥].

---

(١) انظر : كنز العمال رقم (٢٤٦٨) .

(٢) انظر : الموضوعات لابن الجوزي (١ / ٢٦٩) .

(٣) ابن سلول رأس المنافقين في المدينة – مات قبل وفاة النبي.

وأخرج عن أنس رضي الله عنه قال: أرسل رسول الله ﷺ مرة رجلا من أصحابه إلى رأس من رءوس المشركين يدعوه إلى الله فقال له المشرك: هذا الإله الذى تدعو إليه ما هو ؟ أمن ذهب هو أو من فضة؟ فأنزل الله صاعقة من السماء فأهلكته، وأخرج عن مجاهد قال: جاء يهودى إلى النبى ﷺ فقال: (يا محمد من أى شيء ربك؟ أمن لؤلؤ هو؟ فأرسل الله عليه صاعقة قتلته ونزلت :﴿ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣].

وأخرج عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاءوا إلى النبى ﷺ فسألوه عن شيء من أمر الرب فلعنهم، وأخرج عن ابن عمر قال لنا عن رسول الله ﷺ فجاء رجل أقبح الناس ثيابا وأنتن الناس ريحًا، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يدى رسول الله ﷺ فقال: من خلقك؟ قال: «الله».. فمن خلق الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله سبحان الله**»، وأمسك بجبهته وقام الرجل فذهب فقال رسول الله ﷺ: «**علىَّ بالرجل**»، فطلبناه فكأن لم يكن فقال رسول الله ﷺ: «**هذا إبليس جاء يريد أن يشككم فى دينكم**».



الفصل الثانى

مرويات جدلية

وأخرج شيخ الإسلام[1] عن ابن محمد المرتعش قال: سئل أبو حفص ما البدعة؟ قال: التعدى فى الأحكام والتهاون بالسنن واتباع الآراء والأهواء وترك الاقتداء والإتباع.

وأخرج عن أبى على الجوزجانى أنه سئل كيف الطريق إلى الله؟ قال: أصح الطريق وأعمرها وأبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولا وفعلا وعزما وعقدا ونية ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ ﴾ فسأله كيف الطريق إلى اتباع السنة قال: مجانبة البدع، واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله، والتباعد من مجالس الكلام، وأهله ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع بذلك أُمر النبى ﷺ بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ ﴾[النحل: ١٢٣].

وأخرج عن ابن أبى حاتم قال: كان أبى وأبو زرعة يقولان: من طلب الدين بالكلام ضل.. وأخرج عن أبى سعيد الاصطخرى أن رجلا قال له: أيجوز الاستنجاء بالعظم؟ قال: لا: قال لم ؟ قال: لأن رسول الله ﷺ قال: هو زاد إخوانكم من الجن، قال: فقال له: الإنس أفضل أم الجن؟ قال: بل الإنس قال: فلم نجوز الاستنجاء بالماء وهو زاد الإنس؟ فنزل عليه وأخذ بحلقه وهو يقول: يا زنديق تعارض رسول الله ﷺ وجعل يخنقه، فلولا أنهم أدركوه لقتله.

وأخرج عن أبى العباس بن سريج أنه سئل ما التوحيد؟ قال: توحيد أهل العلم

---

(١) صوْن المنطق والكلام لجلال الدين السيوطى.

وجماعة المسلمين «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله» وتوحيد أهل الباطل الخوض فى الأغراض والأجسام، وإنما بعث النبى ﷺ بإنكار ذلك.

وأخرج عن أحمد بن محمد بن أبى سعد أنه قال: من جلس للمناظرة على الغلبة فأوله جدال وصياح، وأوسطه حب العلو على الخلق، وآخره حقد وغضب، ومن جلس للمناصحة فأول كلامه موعظة، وأوسطه دلالة وآخره بركة.

وأخرج عن أبى عمر بن مطر قال: سئل ابن خزيمة عن الكلام فى الأسماء والصفات فقال: بدعة ابتدعوها ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين مثل مالك وسفيان والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحق(١) ويحيى بن يحيى(٢) وابن المبارك ومحمد بن يحيى وأبى حنيفة ومحمد بن الحسن(٣) وأبى يوسف(٤) يتكلمون فى ذلك وينهون عن الخوض فيه ويدلون أصحابهم على الكتاب والسنة، فإياك والخوض فيه والنظر فى كتبهم بحال.

وأخرج عن أبى بكر بن بسطام قال: سألت أبا بكر بن سيار عن الخوض فى الكلام، فنهانى عنه أشد النهى. وقال: عليك بالكتاب والسنة وما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين فإنى رأيت المسلمين فى أقطار الأرض ينهون عن ذلك، وينكرونه ويأمرون بالكتاب والسنة.

وأخرج فيه من طريق أبى عبد الله الحاكم قال: سمعت أبا زيد الفقيه المروزى يقول: أتيت أبا الحسن الأشعرى(٥) بالبصرة فأخذت عنه شيئا من الكلام، فرأيت من ليلتى فى المنام

---

(١) إسحق: بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن مطر الحنظلي - أبو يعقوب المروزى عالم نيسابور ولد سنة ١٦٦ - توفى سنة ٢٣٨ هـ طبقات الشافعية ج١ صـ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) يحيى بن يحيى النيسابورى توفى ٢٢٦ هـ.

(٣) محمد بن الحسن الشيبانى توفى سنة ١٨٩هـ .

(٤) أبو يوسف - توفى سنة ١٨٩ هـ .

(٥) أبو الحسن الأشعرى - الإمام الأكبر على بن إسماعيل المتكلم المشهور وشيخ الأشاعرة ولد سنة ٢٦٠ وتوفى ما بين ٣٢٠ - ٣٣٠.

كأنى عميت فقصصتها على المعبِّر فقال: إنك تأخذ علما تضل به فأمسكت عن الأشعرى فرآنى بعد فى الطريق فقال لى. يا أبا زيد أما تأنف أن ترجع إلى خراسان عالما بالفروع جاهلا بالأصول فقصصت عليه الرؤيا فقال: اكتمها علي ههنا.

وأخرج عن أبى الأشعث قال: قال رجل لبشر بن أحمد أبى سهل الأسفرايينى: إنما أتعلم الكلام لأعرف به الدين فغضب وقال: أو كان السلف من علمائنا كفارًا؟ وأخرج عن أبى محمد الحسن بن أحمد البغدادى الحريرى قال: الجلوس للمذاكرة فتح باب الفائدة.

وأخرج عن أبى منصور الأزهرى[1] فى قولهﷺ : «**إن مِن طلبِ العلمِ جهلا**» قال: يعنى علم الكلام وعلم النجوم.

وأخرج عن أبى يعقوب بن زوران الفقيه الفارسى مفتى الحرم بمكة قال: أجبت عن مسألة فى الكلام فرجعت إلى بيتى وما فى قلبى من كل ما مَنَّ الله به على المؤمنين من شىء حتى قمت فاغتسلت وسجدت وتضرعت وتبت وبكيت حتى رُدَّ عَلَيَّ.

وأخرج عن إبراهيم الخوَّاص قال : ما كانت زندقة ولا كفر ولا بدعة ولا جرأة فى الدين إلا من قبل الكلام والجدال والمراء.

وقال: سمعت الثقة يحكى أن عبد الله بن عدى الصابونى لما حمل إلى بخارى أحضر أبو بكر الشاشى القفال ليكلمه فقال: لا أكلمه إنه متكلم فقيل له من تكلم؟ قال الأردئى.

وسمعت أحمد بن حمزة وأبا على الحداد يقولان : وجدنا أبا العباس أحمد بن محمد النهاوندى على الإنكار على أهل الكلام. وهجر أبا الفوارس القرمسينى[2] لذلك، قال أحمد ابن حمزة: لما اشتد الهجران بين النهاوندى وأبى الفوارس سألوا أبا عبد الله الدينورى، فقال: لقيت ألف شيخ على ما عليه النهاوندى وقال : سمعت محمد بن عمر الفقيه أبا الفوارس

---

(١) أبو منصور الأزهرى: محمد بن أحمد بن الزهر بن طلحة البروى – ولد ٢٨٢ هـ وتوفى ٣٧٠ هـ طبقات الشافعية(٣ / ١٠٦).

(٢) وهى مدينة بالعراق.

يقول: سمعت سهل بن محمد الصعلوكي يقول: أقل ما في الكلام من الخسار سقوط هيبة الله من القلب، سمعت منصور بن العباس يقول: ما أحصى ما سمعت أبا الطيب يقول: أنهاكم عن الكلام وتعودون إليه والله الموعد سمعت عبد الواحد بن أحمد سمعت أبا الطيب يقول: لما توفي أبي وعقدت مجلس الفقه عاودني في مجلس الكلام وقالوا: هو من مجالس أبيك فلا تقطعه فمازالوا بي حتى حضرت مجلس الكلام فجرى مسألة فقمت ورجعت عن ذلك.

وسمعت عبد الواحد بن ياسين المؤدب يقول: رأيت بابين قلعا من مدرسة أبي الطيب بأمره (فأخرجت) من بيتي شابين حضرا أبا بكر بن فورك[١].

وسمعت عبد الرحمن بن محمد بن الحسين يقول: وجدت أبا حامد الإسفراييني وأبا الطيب الصعلوكي وأبا بكر القفال المروزي وأبا منصور الحاكم على الإنكار على الكلام وأهله وسمعت أحمد بن أبي رافع وخلقا يذكرون شدة أبي حامد على الباقلاني[٢] قال: وأنا بلغت رسالة أبي سعيد إلى ابنه سالم ببغداد: إن كنت تريد أن ترجع إلى (هراه) فلا تقرب الباقلاني.

وسمعت أبي يقول: سمعت أبا المظفر جبال بن أحمد الترمذي إمام أهل ترمذ يخشى على أهل الكلام الزندقة، وسمعت محمد بن عبد الرحمن الدباسي يقول: رأيت أبا منصور الحاكم ذُكِرَ بين يديه شيء من الكلام فأدخل إصبعيه في أذنيه.

وسمعت عبد الرحمن بن محمد البجلي[٣] يقول: سمعت هيثم بن محمد بن إبراهيم بن

---

(١) أبو بكر بن فورك أبو بكر الأنصاري الأصبهاني محمد بن الحسن بن فورك توفي ٤٠٦هـ أحد أعلام الأشاعرة الكبار طبقات الشافعية (٣ / ٥٣).

(٢) الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم الباقلاني إمام الأشاعرة العظيم – توفي ٤٠٢ هـ ترجمته وفيات الأعيان لابن خلكان (١ / ٦٧٤).

(٣) نسبة إلى بجلة – بالفتح وبالسكون رهط من سليم.

هيثم يقول: كنت نظمت فى شيء من كلام الأشعث وعلقنى فمررت بالصابونى: أبى نصر فسمعته يقول وهو يزكيها :رجل البينة وراء الحجة فرجعت وسمعت يحيى بن عمار النيهى يقول: العلوم خمسة: علم هو حياة الدين وهو علم التوحيد، وعلم هو قوت الدين وهو العظة والذكر، وعلم هو دواء الدين وهو الفقه، وعلم هو داء الدين وهو أخبار فتن السلف، وعلم هو هلاك الدين وهو علم الكلام.

قال المؤلف: ووجدت هذا الكلام لأبى منصور المالينى البستى[١] قال: ورأيت يحيى بن عمار ما لا أحصى على المنبر ينكر على أهل الكلام. وكذلك رأيت عمر بن إبراهيم ومشايخنا سمعت الحسن بن أبى أسامة المكى سمعت أبى يقول: لعن الله أبا ذر يعنى عبد بن أحمد الهروى فإنه أول من حمل الكلام إلى الحرم وأول من بثه فى المغاربة، وسمعت منصور بن إسماعيل[٢] سمعت الحسين بن شعيب[٣] الفقيه يقول ليحيىٰ بن عمار: سمعت سالما يقول: من لم يقرأ الكلام لم يدن لله دينه فقلت هل ورثت أباك؟ وسمعت على بن محمد الأنصارى يقول: سمعت الحسن بن هانى يقول: كلنا قرأ الكلام ولكنا عقلنا فسكتنا، وحَمُقَ أبو الجودى[٤] والدينارى فافتضحا وسمعت طاهر بن محمد المالينى[٥] يقول: شهدت الدينارى يستتيبه أبو سعد الزاهد فما رأيته كذلك اليوم فى الذل، وأدركت مجلس سالم فى الجامع يغسل فى عهد يحيىٰ بن عمار وعمر بن إبراهيم عن شورى، وسمعت منصور بن إسماعيل الفقيه يحمد الله على ذلك وجاء سالم يتوب فقال يحيى بن عمار للحاجب: قل له ائتنا بكتب الكلام نحرقها بالنار ولم يأذن له.

قال المؤلف: ثم إنى لا أعلم أنى سمعت فى عمرى بشرا واحدا فى بلدتنا يقر على نفسه

---

(١) نسبة إلى آلين، من قرى مرو.

(٢) منصور بن إسماعيل بن عمر التميمى – أبو الحسن. توفى سنة ٣٠٦ هـ ٩١٨ م

(٣) الحسين بن شعيب بن محمد السنجى – مات نحو ٤٣٢ هـ – ١٠٤٠م.

(٤) واسمه الحارث بن عمير توفى بعد المائة – وروايته عن أبى ذر مرسلة.

(٥) المالينى: نسبة إلى مالين قرى مجتمعه من هراء.

أو يصرح بشىء من الكلام وهو يعرفه أو يظهر شيئا من كتبهم إلا من أحد وجوه أربعة:

أحدها: أن يكون رجلاً عُلِم منه أنه قرأ الكلام فهو يحلف أنه إنما قرأه ليصول به على خصمه لا ليدين به دينا.

والثانى: رجل أُخِذَ عنه أنه إنما أَخَذَ عن النقل لا الكلام.

والثالث: قوم لحقهم داء من العُجْب حتى لَحَظَتْهُمُ الأعين بالهوان بصيحة أهل التهمة والركون إليهم فهم إذا خلوا يتناجون. وإذا برزوا يتناجون.

والرابع: رجل ظهر عليه شىء من كتب الكلام بخطه أو قراءته أو أخذه حيا أو ميتا فكلهم يحمل من أعباء الذل والهجران والطرد مالا يحمله عيَّار ولا تعاد مرضاهم ولا تشيع جنائزهم على أنك لا تعدم منهم قلة الورع وقسوة القلب وقلة الود وسوء الصلاة والاستخفاف بالسنة والتهاون بالحديث والوضع من أهله وترك الجماعة.

وقد سمعت بعض المتهمين يقول: وما الكلام؟ كل ما خرج من الفم من النطق فهو كلام فهو والله حمق ظاهره أن يكون تلبسه بالشافعى الإمام المطَّلبى بافترائه الكاذب إليه وزعمه الباهت عليه. وهو من أشد خلق الله تعالى على المتكلمين وأثقله عليهم كما نظمنا عنه من أقاويله الغر فى ذمهم. ثم هذا المراوغ يدعى أنه لا يدرى ما الكلام وهؤلاء أئمة الإسلام وكل هذا التحذير وإيذائه قديما بالضرر الكبير فليبرزوا به إذن من الخباء وليخرجوا الطبل من الكساء ويقيموا الخطأ على أولئك السادة الهداة ويسيروا بنا إلى مسلم أدركه فى الكلام رشدا ولقى به خيرا فلا والله لا دين المتناجين دين، ولا رأى المتسارِّين[1].

ثم أخرج عن عمر بن عبد العزيز قال: إذا رأيت قوما يتناجون فى أمر دينهم بشىء فاعلم أنه تأسيس ضلالة.

وسمعت إسماعيل بن على يقول: سمعت فاخر بن معاذ يقول لبعض أهل الكلام: إن

---

(١) من السِّتر.

جئتنى بالكلام هشمت أسنانك.

وقرأت كتاب محمود الأمير يحث فيه على كشف أستار هذه الطائفة والإفصاح بعيبهم ويقول فيه: لم يخف أن القرآن يصرح به فى الكتاتيب ويجهر به فى المحاريب وحديث المصطفى ﷺ يقرأ فى الجوامع ويسمع فى المجامع وتشد إليه الرحال والفقهاء فى القلانس مفصحون فى المجالس وأن الكلام فى الخفايا يدس به فى الزوايا قد ألبس أهله ذله وأشعرهم ظلمه يرمون بالألحاظ ويخرجون من الحفاظ يُسَبُّ بهم أولادُهم ويُتبرَّأُ منهم من أهل ودِّهم.

وأخرج عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا وابن عباس موقوفًا: «**إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه**»[1].

وأخرج أبو أمية اللخمى أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر**»[2]، قال ابن المبارك: هم أهل البدع.

وأخرج عن محمد بن إبراهيم الماستوى[3] أنه ذكر أهل الكلام فقال: أما استفتاء أخذ منهم أو أخذ حديث عنهم فهو من عظائم أمور الدين.

وأخرج عن على بن عبد الله بن نجيح المدينى[4]: قال يوسف بن خالد[5] سقط حديثه من أجل الكلام وكل من كان صاحب كلام فليس بشىء.

---

(١) حديث صحيح: رواه مسلم رقم (٢٦)، والدرامى (٤٣٢)، انظر مشكاة المصابيح (٧٦).

(٢) حديث صحيح: كنز العمال (١٤/ ٢١٠)، انظر السلسلة الصحيحة (٦٩٥) وصحيح الجامع رقم (٢٢٠٧).

(٣) لعلها الماستينى — نسبة إلى ماستين قرية ببخارى، أو المشتولى نسبة إلى مشتول قرية بمصر

(٤) على بن عبد الله بن نجيح السعدى — أبو الحسن بن المدينى البصرى. مات سنة ٢٣٤ هـ

(٥) يوسف بن خالد بن عمير السمنى. مات سنة ٢٨٩ هـ

قلت: هذا آخر ما لُخّصَ من كتاب ذم الكلام للهروى وقد اشتمل على نصوص أعيان أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين وأتباعهم والمجتهدين أرباب المذاهب وأقرانهم وأصحابهم وأتباع مذاهبهم والمحدثين والصوفية ، والهروى هذا شيخ الإسلام الحافظ الإمام الزاهد أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى من ذرية أبى أيوب الأنصارى كان حنبليا حافظا للحديث بارعًا فى اللغة آية فى التصوف والوعظ إماما متفننا قائما بنصر السنة ورد المبتدعة وهو صاحب كتاب : «منازل السائرين» مات فى ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

قال الحارث المحاسبى[1] فى كتابه : (الرعاية) باب العزة بالجدال وحسن البصر بالاحتجاج والرد على أهل الأديان:

وفرقة جدِلة خصِمة مغترة بالجدال والرد على المختلفين من أهل الأهواء وأهل الأديان يتأول فى ذلك أنه: لا يصح لأحد عمل حتى يصح إيمانه والقول بسنة النبى ﷺ فليس عند أحدهم أحد يعرف ربه ولا يقول عليه الحق غيره أو من كان مثله.

ثم هم فرقتان: فرقة ضالة مضلة لا تفطن لضلالتها لا تساعها فى الحجاج ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام وحسن العبارة بالرد على من خالفها فهم عند أنفسهم من القائلين على الله بالحق والرادِّين لكل ضلالة لا أحد أعلم منهم بالله ولا أولى به منهم.

والفرقة الثانية من المغترين بالجدال والبصر بالحِجَاجِ تقول بالحق ولا تدين بغيره وقد اغترت بالجدل ترى أنه لا يصح لها قول دون الفحص والنظر وقيام الحجة على من خالفها فقد اغترت بذلك حتى قطعت أعمارهم بالاشتغال عن الله وعمى عليها أكثر ذنوبها وخطاياها وهى تظن أن ذلك أولى بها وأقرب لها إلى ربها وهى أيضًا لا تَسْلَمُ فى مجادلتها من أن تخطئ فى تأويلها وقولها.

---

(١) الحارث المحاسبى. توفى سنة ٢٤٢. طبقات الشافعية – ج ٢ صـ٤٢ انظر الرعاية طبع فى لندن فى أوائل الحرب: ثم نشره الأستاذ الدكتور عبد الحليم والأستاذ طه عبد الباقى سرور [بالقاهرة] .

ثم قال: أما الفرقة الضالة فإنها تنفى ذلك بأن ترجع إلى نفسها فتعلم أن من القرآن محكما ومتشابها وكذلك من السنة فلا يقضى بمتشابه على محكم ويقضى بالمحكم على المتشابه والجماعة قد مضت على الهدى وسنة نبيها ﷺ فلا تخرج من إجماعها ، ولم تغتر بشدة حجابها إذ علمت أن غيرها ممن خالفها شديد الحجاج بصير بالجدل وهو عندها ضال مضل وكذلك لا نأمن أن تكون هى عند الله كذلك وإن أبصرت الجدل والخصومة فإن اتهمت نفسها على الآراء والتأويل وتثبتت عند المتشابه فقضت بالمحكم عليه وأوقعت فيها لم يجعل لها النظر فيه ولم تخرج عن إجماع من مضى ، وثابت إلى ربها من ضلالها.

وأما الفرقة المصيبة للحق مع غرتها -عن الله- بالخصومات والجدل عما هو أولى بها فإنها تنفى غرتها بذلك بأن تعلم أن الله تعبَّد من مضى بما تعبَّدها وقد أدرك كثير منهم أهل البدع والأهواء فما جعل عمره ولا دينه غرضا للخصومات ولا اشتغل بذلك عن النظر لنفسه والعمل ليوم فقره إلا أن يرى موضع حاجة يظن أنه إن تكلم بالحق قبل منه فيقول بالحق ويحذر أن يخطئ على الله فيرد الباطل بالباطل فكانوا على ذلك وذموا الجدل والخصومات.

ورووا ذلك عن النبى ﷺ ما رواه عنه أبو أمامة أنه قال: «**ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل**» ، وذم الله تعالى ذلك فقال: ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وقال لقريش: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

فذم المراء والجدل ، فليرجع إلى نفسه فيقول لها: إنما تدعيننى إلى الاتباع والسنة بجدلك لأهل الأهواء ودعائك لهم بالجدل.. والمراء ترك السنة ؛ لأن النبى ﷺ نهى بسنته عن الجدل والخصومات وغضب على أصحابه حتى كأنما فقئ فى وجهه حب الرمان — حمرة الغضب — إذ خرج عليهم وهم يختصمون وهم أوّلى الخلق بالفهم والبصر بالحِجَاجِ فقال: (أهذا بعثتم أم بهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمرتم به فاعملوا به وما نهيتم عنه فانتهوا عنه)انتهى قوله.

كلام البخارى صاحب الصحيح[١]

قال فى كتاب: خلق أفعال العباد :

المعروف عن أحمد[٢] وأهل العلم أنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء فيه العلم وبينة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٩].

ثم أخرج من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبى ﷺ قوما يتدارون فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا فلا تضربوا بعضه ببعض ما علمتم منه فقولوا وما أشكل عليكم فكلوه إلى عالمه**»[٣].

وأخرج من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال: «**إنكم ما اختلفتم فى شىء فمرده إلى الله وإلى محمد ﷺ** ».

وأخرج من حديث عائشة: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٤] قال: وأمر عمر أن ترد الجهالات إلى الكتاب والسنة.

قال البخارى : فكل من لم يعرف الله بكلامه أنه غير مخلوق فإنه يُعرَّفُ ويُرَدُّ جهلُه إلى

---

(١) كتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للإمام لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى وقد طبع فى الهند سنة ١٣٠٥ هـ.

(٢) المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق وما سواه مخلوق.

(٣) حديث حسن : رواه أحمد (٦٧٤١) ، والطبرانى فى الأوسط (٧٠٥٢) ، انظر مشكاة المصابيح .

(٤) متفق عليه : رواه البخارى رقم (٢٠) ، ومسلم رقم (٤٥٩٠) .

الكتاب والسنة. فمن أبى بعد العلم به كان معاندا قال الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥]

قال البخاري: وكل من اشتبه عليه شيء فأولى له أن يكله إلى عالمه لحديث ابن عمرو ولا يدخل في المتشابهات إلا ما بين له، ثم أخرج حديث عائشة في قوله: فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فهم الذين عنى الله فاحذروهم.

كلام السمعاني

في كتاب: الانتصار لأهل الحديث

وقال الخطيب: كان ابن جرير أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره فكان عارفا بكتاب الله عارفا بالقراءات بصيرا بالمعاني فقيها في أحكام القرآن عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين عارفا بأيام الناس وأخبارهم وله كتب كثيرة في التفسير والآثار وأصول الفقه وفروعه.

وقال ابن السبكي في الطبقات: كان مجتهدا مطلقًا أحد أئمة الدنيا وكان تفقه أولا للشافعي وأخذ عن الزعفراني والربيع المرادي ثم استقل وألف كتبا في مذهب نفسه مات سنة عشر وثلاثمائة.

وهو المبعوث على رأس المائة الثالثة وقد بُسِطت ترجمتُه في طبقات المفسرين بالنقل والحديث بمتابعة الأخبار التي رواها الثقات والعدول من هذه الأمة عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة من بعده فنشرح الآن قول أهل السنة:

إن طريق الدين هو: السمع والأثر وإن طريقة العقل والرجوع إليه وبناء السمعيات عليه مذموم فى الشرع ومنهى عنه ونذكر مقام العقل فى الشرع والقدر الذى أمر الشرع باستعماله وحرم مجاوزته.

ثم قال: وقد سلك أهل الكلام فى رد الناس من الأحاديث إلى المعقولات طريقا شبهوا بها على عامة الناس قالوا: إن أمر الدين أمر لابد فيه من وقوع العلم ليصح الاعتقاد فيه فإن المصيب فى ذلك عند اختلاف المختلفين واحد والمخالف فى أمر من أمور الدين الذى مرجعه إلى الاعتقاد إما كافر أو مبتدع وما كان أمره على هذا الوجه فلابد فى ثبوته من طريق توجب العلم حتى لا يتداخل من حصل له العلم بذلك شبهة وشك بوجه من الوجوه والأخبار التى يرويها أهل الحديث فى أمور الدين أخبار آحاد وهى غير موجبة للعلم وإنما توجب الأعمال فى الأحكام خاصة وإذا سقط الرجوع إلى الأخبار فلابد من الرجوع إلى دليل العقل وما يوجبه النظر والاعتبار فهذا من أعظم شبههم فى الإعراض عن الأحاديث والآثار وسيأتى الجواب عنها وقد قال عمر بن الخطاب: إنه سيأتى أناس يأخذونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

ما ورد عن الأئمة فى ذم الكلام

ثم قال: ونذكر الآن ما ورد عن الأئمة فى ذم الكلام فذكر طائفة مما تقدم عن الأئمة مخرجا من ذم الكلام للهروى ومما لم يتقدم ما أسند عن سهيل بن نعيم قال: قال الشافعى: كل من تكلم بكلام فى الدين أو فى شىء من هذه الأهواء ليس فيه إمام متقدم من النبى ﷺ وأصحابه فقد أحدث فى الإسلام حدثا.

وقال: قال النبى ﷺ : «**من أحدث حدثا أو آوى محدثا فى الإسلام فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرفا ولا عدلا**»[1].

---

(١) حديث متفق عليه: رواه البخارى (٣٠٠١)، ومسلم (٣٣٨٩).

وأسند من طريق حرملة قال: سمعت الشافعى يقول: إياكم والنظر فى الكلام فإن رجلا لو سئل عن مسألة فى الفقه فأخطأ فيها أو سئل عن رجل قتل رجلا فقال ديته بيضة كان أكثر شيء أن يضحك منه ولو سئل عن مسألة فى الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة.

قال: فهذا كلام الشافعى فى ذم الكلام والحث على السنة وهو الإمام الذى لا يجارى والفحل الذى لا يقاوم فلو جاز للرجوع إليه وطلب الدين من طريقه لكان بالترغيب فيه أولى من الزجر عنه وبالندب إليه أولى من النهى عنه فلا ينبغى لأحد أن ينصر مذهبه فى الفروع ثم يرغب عن طريقته فى الأصول.

وروى عن قبيصة قال: كان سفيان الثورى يبغض أهل الأهواء وينهى عن مجالسهم أشد النهى ويقول: عليكم بالأثر وإياكم والكلام فى ذات الله.. وكان أحمد بن حنبل يقول: أئمة الكلام زنادقة.

ثم ساق جملة من كلام السلف فى النهى عن النظر فى الكلام وقد أيد هذا كله الحديث الذى حدثنا أبو صالح فذكر بسنده عن أبى هريرة فقال: قال رسول الله ﷺ: **«تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله»**[1].

ثم قال: وإنما ترد البدعة بالأثر لا ببدعة مثلها فإنه روى عن عبد الرحمن بن مهدى الإمام المقدم قال: إنما يرد على أهل البدع بآثار رسول الله ﷺ وآثار الصالحين فأما من رد عليهم بالمعقول فقد رد باطلا بباطل.

ثم قال: فهؤلاء الأئمة هم المرجوع إليهم فى أمر الدين وبيان الشرع ومن سلك طريقا فى الإسلام بعدهم فإياهم يتبع وبهم يقتدى وموافقتهم تُتَحَرَّى فلا يجوز لمسلم أن يظن بهم ظن السوء قالوا ذلك عن جهل وقلة علم وخبرة فى الدين وما هذا إلا من الغل الذى أمر الله بالاستعاذة منه فقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) انظر كنز العمال حديث رقم (٥٧٠٥، ٥٧٠٨).

فتبين لنا أن الطريق عند الأئمة الهادية اتباع السلف والاقتداء بهم دون الرجوع إلى الآراء ومن هنا قال بعضهم: العلم علمان: علم نبوى، وعلم نظرى والعلم النظرى محتاج إلى العلم النبوى لأن العلم النبوى جاء من الله وهو مقرون بالصواب على كل حال والعلم النظرى ما يستنبط ويجوز أن يكون صوابا ويجوز أن يكون خطأ ومثال ذلك ما قيل : الماء ماءان.. ماء نزل من السماء وماء نبع من الأرض فالماء النازل من السماء على طعم واحد من اللذة والطيب وعلى لون واحد من الصفاء والنقاء وعلى جوهر واحد من الطهارة والنظافة كذلك العلم النازل من السماء كالوحى والماء النابع من الأرض فعلى أنواع منه صاف طاهر على موافقة وحى الله ومنه خبيثٌ كدِرٌ لمخالفته وحى الله.

وقال بعضهم: الحديث أصل والرأى فرع ولا يجوز أن يكون الأصل والفرع سواء ولا حالهما فى الرتبة والتقدمة واحدة ألا ترى إلى قوله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن **«بم تحكم؟»** قال: بكتاب الله قال: **«فإن لم تجد»** قال: فبسنة رسول الله قال: **«فإن لم تجد؟»** قال: أجتهد رأيى ولا آلو.. قال: **«الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ»**[(١)].

فكان المصير إلى الحديث بمنزلة الماء فى الطهارات والقياس والرأى بمنزلة التراب وإنما يصار إلى التراب عند عدم الماء كذلك لا يصار إلى الرأى إلا عند عدم الحديث فكان مَثَل من آثر الرأى والقياس وقدمهما على الحديث والأثر مثَل من يعدل عن الطهارة بالماء فى وقت السعة ويؤثر التيمم بالتراب الذى وضع للضرورة ، والعدم ولقد أحسن سعيد بن حميد[(١)] حين يقول:

فإنك حين تطرحنى لقوم ... هم عدم وفى صور الوجود
كمن هو تارك ماء طهورا ... وراض بالتيمم بالصعيد

(١) حديث : رواه أبو داود (٣٥٩٥) ، والترمذى (١٣٢٧) ، وأحمد (٢٢٤١١) ، والطبرانى فى الكبير .
(١) سعيد بن حميد أبو عثمان كان كاتبا شاعرا مترسلا عذب اللفظ ج١ صـ ٣٦٥ وفيات الأعيان.

وأنشدوا أيضًا:

دين النبي محمد آثار — نعم المطية للفتى الأخبار
لا تغفلن عن الحديث وأهله — فالرأى ليل والحديث نهار
ولربما غلط الفتى سبل الهدى — والشمس بازغة لها أنوار

وأنشدوا أيضًا:

أهل الكلام وأهل الرأى قد جهلوا — علم الحديث الذى ينجو به الرجل
لو أنهم عرفوا الآثار ما انحرفوا — عنها إلى غيرها لكنهم جهلوا

وأنشدوا أيضًا:

أهل الكلام دعونا من تعسفكم — كم تبتغون لدين الله تبديلا
ما أحدث الناس فى أديانهم حدثا — إلا جعلتم له وجها وتأويلا

ولأبى بكر بن أبى داود السجستانى:

تمسك بحبل الله واتبع الهدى — ولا تك بِدعيًّا لعلك تفلح
ولذ بكتاب الله والسنن التى — أتت عن رسول الله تنجو وتربح
ودع عنك آراء الرجال وقولهم — فقول رسول الله أزكى وأشرح

وأنشد أيضًا:

خذ ما أتاك به الأخبار من أثر — شبها بشبه وأمثالا بأمثال
ولا تميلن يا هذا إلى بدع — تضل أصحابها بالقيل والقال

فصل

فيما روى عنهم من ذم الجدال والخصومات فى الدين وما كرهوا من ذلك

أخرج عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «**هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون هلك المتنطعون**»(١).

وأخرج عن على بن الحسين قال: قال رسول الله ﷺ : «**من حُسْنِ إسلام المرء تركُه مالا يعنيه**»(٢).

وعن الحسن البصرى أنه كان ينهيه عن الخصومة ويقول إنما يخاصم الشاكُّ فى دينه.

وعن ابن سيرين قال: إنى لأدع المراء وإنى لأعلمكم به. وقد جاء فى تفسير قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾[آل عمران: ٧] ،يعنى حب الجدل، وقال الأوزاعى: المنازعة والجدال فى الدين محدث.

ثم قال: واعلم أنك متى تدبرت سيرة الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح وجدتهم ينهون عن جدال أهل البدعة بأبلغ النهى ولا يرون رد كلامهم بدلائل العقل وإنما كانوا إذا سمعوا بواحد من أهل البدعة أظهروا التبرى منه ونهوا الناس عن مجالسته ومحاورته والكلام معه وربما نهوا عن النظر إليه وقد قالوا: إذا رأيت مبتدعا فى طريق فخذ

---

(١) حديث صحيح : رواه مسلم (٦٩٥٥) ، وأبوداود ، وأحمد ، والطبرانى فى الكبير .

(٢) حديث صحيح : رواه الترمذى (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) ، وأحمد (١٧٣٧) ، وابن حبان ، والطبرانى ، انظر حديث رقم (٥٩١١) فى صحيح الجامع .

فى طريق آخر.

ولقد ظهرت هذه الأهواء الأربع التى هى رأس الأهواء أعنى - القدر والإرجاء - ورأى الحرورية والرافضة فى آخر زمان الصحابة فكان إذا بلغهم أمرهم أمروا بما ذكرنا ولم يبلغنا عن أحد منهم أنه جادلهم بدلائل العقل أو أمر بذلك وقد كانوا إلى عهد رسول الله ﷺ أقرب وقد شاهدوا الوحى والتنزيل وعدلهم الله فى القرآن وشهد لهم بالصدق وشهد لهم النبى ﷺ بالخيرية فى الدين وكانت طاعتهم أجلَّ وقلوبهم أسلم وصدورهم أطهر وعلمهم أوفر وكانوا من الهوى والبدع أبعد ولو كان طريق الرد على المبتدعة هو الكلام ودلائل العقل والجدال معهم لا شتغلوا به وأمروا بذلك وندبوا إليه.

وإنما ظهرت المجادلات فى الدين والخصومات بعد مضىٍّ قرن التابعين ومن يليهم حين ظهر الكذب وفشت شهادات الزور وشاع الجهل واندرس أمر السنة بعض الاندراس وأتى على الناس زمان حذر منه النبى ﷺ والصحابة من بعده.

ولقد صدق إبراهيم النخعى حيث يقول: إن القوم لم يؤخر عنهم شىء خبئ لكم لفضل عندكم وإنما كان غايتهم التبرى وإظهار المجانبة والأمر بالتباعد.

والمشهور عن ابن عمر أنه لـَمَّا بلغه قول أهل القدر قال: أبلغوهم أنى منهم برىء ولو وجدت أعوانا لجاهدتهم.

وقال ابن عباس: لو رأيت بعضهم لضربت رأسه.

وأتى رجل على بن أبى طالب فقال: أخبرنى عن القدر؟ قال: طريق مظلم فلا تسلكْه قال: أخبرنى عن القدر؟ قال: بحر عميق فلا تلجْه قال: أخبرنى عن القدر؟ قال: سر الله

فلا تكلفه.. وعن القاسم بن محمد بن أبى بكر قال: يستتاب القدرى فإن تاب وإلا نفى من بلاد المسلمين.

وقال عمر بن عبد العزيز: ينبغى أن نتقدم إليهم فيما أحدثوا من القدر فإن كفوا وإلا استُلَّت ألسنتهم من أقفيتهم استلالاً.

فهذا طريق القوم فى أمر البدع وأهلها قال رجل من أهل البدع لأيوب السختيانى: يا أبا بكر أسألك عن كلمة.. فولىَّ وهو يقول: ولا نصف كلمة، وقال ابن طاووس لابن له وتكلم رجل من أهل البدع: يا بنى أدخل إصبعيك فى أذنيك ثم قال: أشدد أشدد، وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل. وقال رجل للحكم بن عتيبة: ما حمل أهل الأهواء على هواهم؟ قال: الخصومات. وقال معاوية بن قرة وكان أبوه من أصحاب النبى ﷺ: لا تجالسوا أصحاب الأهواء أو قال: أصحاب الخصومات ولا تكلموهم فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم أو يُلبِّسوا عليكم بعض ما تعرفون.

ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: نقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال لا، لتقومان أو لأقومن.

وكانوا يقولون: إن القلب ضعيف وإنا نخاف إن استمعت منهم شيئا أن يميل قلبك إلى قولهم.

وقال إسحق بن إبراهيم الحنظلى: اعلموا أن اتباع الكتاب والسنة أسلم والخوض فى أمر الدين بالمنازعة والرد حرام والاجتناب عنه سلامة وأرجو أن يجوز القياس على الأصل الثابت من العالم الفطن المتيقظ ولا تكاد تجد شيئا من تأويل الكتاب مخالفا لسنة النبى

ﷺ إذا صحت الرواية وعامة تاركى العلم والسنة وأصحاب الأهواء والرأى والمقاييس لثقل السنة عليهم ولا أعرف حديثين يخالف أحدهما الآخر ولكل ما روى من الأحاديث المختلفة معان يعلمها أهل العلم بها فهذا الذى نقلناه طريقة السلف وما كانوا عليه.

واعلم أن الأئمة الماضين وأولى العلم من المتقدمين لم يتركوا هذا النمط من الكلام وهذا النوع من النظر عجزًا عنه ولا انقطاعًا دونه وقد كانوا ذوى عقول وافرة وأفهام ثاقبة وقد كانت هذه الفتن قد وقعت فى زمانهم وظهرت وإنما تركوا هذه الطريقة وأضربوا عنها لما تخوفوه من فتنتها وعلموه من سوء عاقبتها وسيِّئ مغبتها، وقد كانوا على بينة من أمورهم وعلى بصيرة من دينهم لما هداهم الله بنوره وشرح صدورهم بضياء معرفته فرأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته وتوقيف السنة وبيانها غناء ومندوحة عما سواها وأن الحجة قد وقعت وتمت بهما وأن العلة والشبهة قد أزيحت بمكانهما.

فلما تأخر الزمان بأهله وفترت عزائمهم فى طلب حقائق علوم الكتاب والسنة وقلَّت عنايتهم بها واعترضهم الملحدون بشبههم والطاعنون فى الدين بجدلهم حسبوا أنهم إن لم يردوهم عن أنفسهم بهذا النمط من الكلام ودلائل العقل لم يقووا عليهم ولم يظهروا فى الحِجَاجِ عليهم فكان ذلك صلة من الرأى وخدعة من الشيطان لو سلكوا سبيل القصد ووقفوا عندما انتهى بهم التوقيف لوجدوا برد اليقين وروح القلوب ولكثرت البركة وتضاعف النماء وانشرحت الصدور وأضاءت فيها مصابيح النور.

وإنما وقعوا فيما وقعوا فيه عن أهل الحق بعد ما تدبروا وظهر لهم بتوفيق الله سبب ذلك وهو أن الشيطان صار اليوم بلطيف حيلته يسوِّل لكل من أحس من نفسه زيادة فهم وفضل ذكاء وذهن يوهمه أنه إن رضى فى عمله ومذهبه بظاهر من السنة واقتصر على واضح بيان

منها كان أسوة العامة وعُدَّ واحدا من الجمهور والكافة وأنه قد ضل فهمه واضمحل عقله وذهنه فحركهم بذلك على التنطع فى النظر والتبدع لمخالفة السنة والأثر ليمتازوا بذلك عن طبقة الدهماء ويتبينوا فى الرتبة عمن يرونه دونهم فى الفهم والذكاء فاختدعهم بهذه المقدمة حتى استزلهم عن واضح الحجة وأورطهم فى شبهات تعلقوا بزخارفها وتاهوا عن حقائقها ولم يخلصوا منها إلى شفاء نفس ولا قبلوه بيقين علم ولما رأوا كتاب الله ينطق بخلاف ما انتحلوه ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه ضربوا بعض آياته ببعض وتأولوها على ما يسنح لهم فى عقولهم واستوى عندهم على ما وضعوه من أصولهم ونصبوا العداوة لأخبار رسول الله ﷺ ولسنته المأثورة عنه وردوها على وجوهها وأساءوا فى نقلها القالة ووجهوا عليهم الظنون ورموهم بالتزيد ونسبوهم إلى ضعف المنة وسوء المعرفة بمعانى ما يرونه من الحديث ولو أنهم أحسنوا الظن بسلفهم وآثروا متابعتهم وسلموا حيث سلموا وطلبوا المعانى حيث طلبوا واجتهدوا فى رد الهوى وخداع الشيطان لانشرحت صدورهم وظهر لهم من برد اليقين وروح المعرفة وضياء التسليم ما ظهر لسلفهم وبرز لهم من أعلام الحق ما كان مكشوفا لهم غير أن الحق عزيز والدين غريب والزمان مفتن :

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: ٤٠].




الباب التاسع
قبل البدع

الفصل الأول

أدوات الجدل

بعد عرضنا لما يجب أن يكون عليه المجادل من مقدرة علمية وثقافية بقى أن نعرض للأدوات التى يجب أن تتوفر لدى من جلس للجدال والنزال وأُولى هذه الأدوات (الاجتهاد) لأن المجادل من حيث الواقع هو (مجتهد) فيما لا نص فيه أو غير مقطوع به أو مظنون وهو مؤهل لتكوين فكر ثاقب ورأى صائب يستطيع به النفاذ إلى العقول والقلوب ولكن مرتبة (المجادل) أعلى من حيث الوازع والتكليف إذ يأخذ (الاجتهاد) حيزًا من الوقت أما الجدال ففيه إعمال البديهة وسرعة الإجابة ولهذا فإن (آلياته وأدواته) سلاح ماضٍ لتعزيز موقف (المجادل) المنوطُ به الدفاع والرد وتتمثل فى الآتى :

أولاً: أن يكون عالما بالعربية :

حدد الإمام الغزإلى القدر الواجب[1] من الإلمام باللغة العربية بقوله: (إنه القدر الذى يفهم به خطاب العرب وعاداتهم فى الاستعمال حتى يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه.. ومنطوقه ومفهومه وهذا لا يحصل إلا لمن بلغ فى اللغة درجة الاجتهاد) وفى موطن آخر يقول: (إذا فرضنا مبتدئا فى فهم اللغة العربية فهو مبتدئ فى فهم الشريعة.. أو متوسطا فهو متوسط فى فهم الشريعة.. والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية فإذا انتهى إلى الغاية فى العربية كان كذلك فى الشريعة فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة.. فمن لم يبلغ شأوه فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم.. وكل من قَصُرَ فهمُه لم يكن حجة ولا كان فيه مقبولاً) والعلم بالعربية يساعد على استخراج

(١) تأريخ المذاهب الإسلامية – أبو زهرة – المرجع السابق صـ ٣٢٢ – دار الفكر العربى.

الأحكام وإدراك ما اشتملت عليه من ألفاظ لها مدلولات كلفظ (القرء): بمعنى الحيض وبمعنى الطهارة وإيراد الأحكام الشرعية المترتبة على كلٍّ، وتجويز اللغة لهذا التفسير، وكَذَبَ من قال: إن العلم بالعربية ليس شرطا من شروط المناظرة لاسيما وأن ترجيح المعانى اللفظية بعضها من بعض يفتح مجال المحاورة.

ثانيا: أن يكون حافظا وعالما بالخطاب القرآنى:

وذلك لما تضمنته آيات القرآن الكريم من بيان الأحكام والتشريعات الإلهية وبيان الناسخ والمنسوخ وهو أداة (جدلية) مفحمة للخصم وقاطعة للحكم وكما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : (قال العلماء إنه يجب أن يكون عالما بدقائق آيات الأحكام فى القرآن وهى نحو خمسمائة آية وعلمه بها يوجب أن يكون محصلا لمعانيها.. عارفا للخاص والعام فيها – وبيان السنة لها – وأن يكون عالما بما نسخت أحكامه منها على فرض أن فيها ناسخا ومنسوخا.. وأنه مع علمه الخاص بآيات الأحكام يجب أن يكون عالما إجماليا بما عدا ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم غير منفصل بعضه عن بعض).

وقد قال الأسنوى : إن تمييز آيات الأحكام من غيرها يتوقف على معرفة الجميع بالضرورة، ولم يشترط العلماء بخصوص الحفظ أن يكون محفوظا كله.. بل يكفى العلم والمعرفة بمواقع آيات الأحكام حتى يمكن الرجوع إليها فى وقت الحاجة والضرورة الملحة ورأى البعض أن يكون (المجادل) حافظا للقرآن حفظا كاملا فاهما لمعانيه دارسا ما اشتمل عليه من أحكام ودراسات تفصيلية تعينه على إفحام الخصم، وقد عنى الجصاص والقرطبى رضي الله عنهم بدراسة آيات الأحكام ومدلولاتها ومعرفة زمانها ومكانها والغرض منها.

ثالثا: أن يكون عالما بالسنة ومراميها:

والسنة قولية وفعلية وتقريرية والمجادل العالم بها والدارس لها يستطيع استيعاب الجزئيات من الكليات فمن المعروف أن السنة هى المصدر الثانى للتشريع السماوى وما جاء فى القرآن الكريم مجملا جاء فيها مفصلا.. ويجب العلم بكل السنة التى تشتمل على

الأحكام التكليفية بحيث يكون المجادل فاهما لها مدركا لمراميها عالما بقوة الرواية وطرقها وطرق الرواة وأحوال رواة الأحاديث من حيث الجرح والتعديل لأن المجادل لا يكفيه الحذق والبداهة ولكن - أيضًا - يلزمه حسن الضبط والدراية ودراسة السنة بشكل عام وشامل فيه نوع إحاطة وإجادة إذ قد تعطى الأحاديث بُعدا دينيا مختلفا من حالة إلى حالة أخرى ومن موقف إلى موقف آخر ، وفى القرآن الكريم إشارات تفسرها السنة وهذا واضح فى قول الله تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٧].

ومن المفيد تتبع أفعال النبى ﷺ وموقفه من أصحابه والوفود التى كانت تتوالى عليه ومواقفه مع أهل الكتاب وبيان أن الرسالة الخاتمة جاءت جامعة ومفصلة رسمت جميع الأحكام ووقفت عند كل الحدود وفصَّلت كل مجمل وأحكمت كل متشابه ، واستخراج الأحكام من السنة القولية والفعلية كاستخراجها من القرآن الكريم ، ولم يشترط العلماء حفظ ما يتعلق بالأحكام بل اشترطوا معرفتها ومعرفة مواضعها - أى السنة - وطرق الوصول إليها والعلم بدرجة الحديث ولقد بُذِلَ جهدٌ كبير ومخلص فى شرحها وتفنيدها والتفقه فيها والمرجعية فى صحيح البخارى ومسلم وسائر كتب الصحيح.

رابعًا: أن يكون قوى الحجة والاستنباط:

بديهى أن يكون المجادل عالما بالأصول، ذا قدرة على الاستنباط من النصوص المبينة للأحكام بقدر يمكِّنه من أن يختار من هذه الأحكام أقربها للموضوع الذى يجتهد فيه ويتعرف حكمه والمعيار المناسب لهذا الحكم والعلل التى لها تأثير فى أحكام هذه النصوص.. كما يجب معرفة القياس وضوابطه ومعرفة أوصاف العلة التى ينبنى عليها القياس الذى يستوعب جميع الأصول والفروع وضرورة التعرف على منهج السلف الصالح فى حسن استنباطهم للأحكام وإقامة الحجج التى تستخرج بها الأحكام لإسكات

الخصوم ومثال ذلك: رد أصحاب أبى حنيفة رضي الله عنه على جواز قضاء الحاكم فى حق من حقوق العباد قبل ولايته أو فى غير محل ولايته بأن الحاكم قبل ولايته كان شاهدا لا حاكما وشهادة الفرد لا تقبل وصار كما إذا علم بالبينة العادلة ثم وَلِىَ القضاء فإنه لا يعمل بها.. وقد يستوحى المجادل من كلام الخصم ما ينبهه ويزيد من دائرة فكره والإلمام بالقضية المطروحة حتى يستوفيها ثم يعرض رأيه.

خامسا: أن يكون مُلمًا بالتاريخ:

وذلك لأن رصد الأحداث تاريخيا ورصد الاختلافات الزمانية والمكانية المتعاقبة ترسخ مفهوم القواعد الخلافية عند المجادِل فيعلم أن الأحكام العامة والمفاهيم العامة تدرجت فى بعض الأقطار أو تمازجت فى أقطار أخرى.. واعتبار التاريخ شاهدا على الحضارات المختلفة التى كان يصلح فيها مالا يصلح فى غيرها وتفاوت الردود بين مجادل ومجادل آخر خلال وجود الأمم المتعاقبة واستدراك الخلل الحاصل من السابقين لتنقيته ودرء المفاسد عنه وتقديمه بمعاصرة وواقعية وإقناع.

سادسًا: أن يكون عارفًا بالأصول والفروع:

إن مما أوقع الناس فى الحرج والشطط هو عدم فهمهم لروح الدين والشريعة فقد يبالغون ويتشددون فيما يجدر فيه اللين وقد يفرِّطون فيما يجدر فيه الحزم والإمساك، ومعرفة المجادل بكل ما يتصل بالدين - أصوله وفروعه - تقوِّى جنابه وتؤيد رأيه فما أقره الكتاب وفصلته السنة وحث عليه الشارع فهو الملزم وإلا فلا.. فالتمسك بالكتاب دون السنة أو السنة دون الكتاب أو تجاهل الإجماع أو عدم إقرار القياس يؤدى إلى الشطط ويوقع فى الجهالة ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم من هذا فيقول «**ألا يوشك رجل شبعان على أريكته** - السرير الفاخر - **يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من**

حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله »[١].

ويقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالما اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» رواه الشيخان[٢].

ولقد نهى الإسلام عن اختيار العبادات الشاقة على الإنسان ولم يأمر بها كدوام الصيام والقيام والتبتل وترك التزوج أما إذا اشتبه الأمر على المجادل لتعارض الروايات فعليه أن يلتزم بالأحوط والأيقن فيما فيه فسحة ويسر في دين الله قال ﷺ: «يسروا ولا تعسّروا وبشِّروا ولا تنفِّروا»[٣]، ويقول أيضًا: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق»[٤].

كما روى كذلك أنه ﷺ قال: «لن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه»[٥]، والأحاديث مروية في البخاري ومسلم.

سابعًا: أن يكون عالما بمقاصد الشريعة:

يجب على المجادل أن يعرف المصلحة الإنسانية التي يقدرها الشارع لمصلحة المسلمين باعتبارها أصلا من الأصول المقررة الثابتة لكي يفرق بين المصالح الوهمية والمصالح الحقيقية، وما يسعى الإسلام إلى إقراره من أمور نافعة، أو محاربته من أمور ضارة ويوازن بينهما فيقدم ما يدفع المضرة على ما يجلب المصلحة وما ينفع عموم الناس على ما ينفع

---

(١) حديث صحيح: رواه أبوداود (٣٩٨٨)، وكنز العمال (١/ ١٧٤)، والطبراني في مسند الشاميين (١٠٣١)، انظر مشكاة المصابيح رقم (١٦٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٦٩٧١).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٩)، وكنز العمال، السنن الكبرى للنسائي، والمعجم الكبير للطبراني.

(٤) حسن: أخرجه أحمد (١٣٠٥٢)، وقال الألباني: حسن [صحيح الجامع (٢٢٤٦)].

(٥) صحيح: رواه البخاري (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤) وابن حبان.

خواصهم.. والمجادِل فى كل حالاته: (عالما بأحوال الناس ومميزًا لأعرافهم وقوانينهم والشريعة الغراء لا ينقصها شيء أبدا لأنها تستطيع التعامل مع كل الظروف والطوارئ.. ففى عام الرمادة لم يُقِمْ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحدود على من اشتهى طعاما أو ثمرة فسرقها ليسد جوعه وهذه عدالة الإسلام إذ أن المضطر لا يعاقبه الشرع ولا المكره ولا الناسى وتلك هى الرحمة العامة التى كفلها الله تعالى لعباده فمقاصد الشريعة: بعث الطمأنينة ونشر الفضيلة وحفظ النفس والمال والعرض ، وغايتها: تحقيق آمال البشر فى الحياة الطيبة والتعايش السلمى تحت راية الاعتصام بحبل الله المتين وإقامة الفرائض والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. والمجادِل هنا هو الحامى لهذه المقاصد بتبصير الناس وتوعيتهم وهو المكلف بحراسة الثوابت الدينية ، من منطلق دراسته وفقهه وقدرته ومقاصد الشرع مرسومة ومبينة ومنصوص عليها فى الكتاب والسنة وتفهم من مجموع النصوص ولا تقف عند نص واحد أو جزئية معينة ،وفهم الغرض فى الجزئيات يتوقف عليه فهم النصوص التى تكون فى الكليات. كما أن للعرف قوة -أى قوة- على المجادل أن يضعها فى الاعتبار ويبحث لها عن مناسب.

ثامنًا: أن يكون مميزا وعالما بالمنطق:

ويعتبر هذا من أدوات الجدل الناجحة إذ على المجادل أن يكون قادرا على تمييز زيف الآراء من جيدها وغثها من سمينها وقويها من ضعيفها يقول الأسنوى: (يشترط أن يعرف شرائط الحدود والبراهين، وكيفية ترتيب مقدماتها، واستنباط المطلوب منها ليأمن الخطأ فى نظره) فالمجادل يناظر مجادلا آخر يسعى إلى تحقيق الظفر والنصر وله أدوات يستخدمها هو أيضًا وله معارفه وقواعده التى يجيد منها اصطياد الخصم عند نقطة بعينها أو رأى بعينه لذلك كان التمييز بين الفروق أمرا جوهريا فى الخطاب الجدلى.. وكذلك يشترط دراسة علم المنطق لأنه العلم الذى يعرف به الحدُّ والرَّسم والبرهان ومقدماته وإن كان بعض العلماء لم يجعلوه شرطا حيث إنهم رأوا فقهاء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وصلوا إلى المراتب العالية فى الاجتهاد والطلب ولم يكونوا على علم به ولا دراية وقال بعضهم: إنه مكروه

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تبغيضه وأنه لا جدوى فيه ؛ولكن الأصح أنه مطلوب لكونه فى ثقافة الخصم ويعد من أدواته وهو يثقف العقل ويميزه وهو ميزان ضابط يفيد عند المناظرة والمجادلة ويدفع بالحقائق أمام الباطل فيقيد الانحراف ، ولكنه مع هذا كله - أى المنطق- لا يعتبر الجاهل به عاجزًا عن المناظرة والمجادلة بل يكفى فيه أن يكون قادرا على استنباط الحقائق الشرعية وتمييزها من بعضها وأن يكون حسن الفهم نافذ البصيرة واسع الإدراك ليتحقق له الغرض من هزيمة الخصم وفرض إرادته العلمية التى لا تتخاذل ولا تتهاون.. بل تسيطر وتهيمن على كل المواقف.

تاسعًا: أن يكون صحيح الاعتقاد:

إن صحة الاعتقاد تجعل القلب مستنيرا بنور الله تعالى حتى يستطيع النفاذ إلى لبِّ هذا الدين الحنيف، ويعرف طريقه إلى الحق حتى يخلَص إليه فيرزق الإخلاص والحكمة ويهتدى إلى أنوار الشريعة ويُلهَمُ إشراقات المقربين ووصل المحبين المخلصين ، أما من فسد اعتقاده وأظلم فؤاده -والعياذ بالله- واندس فى أهل البدع والخرافات وانغمس فى الخطايا والآثام وغلب عليه هواه فهذا يسيطر على تفكيره ما يمنعه من الاستنباط الصحيح مهما كانت قوة عقله وفكره لأن النية ما دامت قد أصابها الاعوجاج فإن الفكر يتبعها فى هذا الاعوجاج بالطبع ولذلك نجد أعلام المسلمين الذين ورثوا العلم جيلا بعد جيل كانوا يشتهرون بالورع والتقوى قبل اشتهارهم بالعلم والفقه ، والإخلاص مبدأ أعظم يقرب الحقائق لطالبيها وراغبيها فتقع فى القلوب دون تعصب أو تنصل، والمجادل على كل حال لا يفرض أن يكون خصمه هو المخطئ دائما - وأنه وحده المحق وعليه اتباع مقولة أهل العلم والدراية: (قولنا صواب يحتمل الخطأ.. وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب) وهذا واقع يربى المجادل على حسن الطلب والاكتراث بالخصم دون استهزاء به أو تحقير من شأنه - فالخصومة الشريفة تجعل الفرد مؤمنًا برسالته فيربيها ويصقلها ويدعمها وقد قام على الحق فلابد وأنه سيبحث عنه فى كل مكان وحيثما وجد ووجد علماؤه وصحة الاعتقاد تخلص

النفس من الرياء والنفاق وتعمق الإيمان فى قلوب البشر لاسيما وأن الجدال رسالة يريد المجادل إرساء قواعدها للدفاع عن الحق وليس غير الحق.

عاشرا وأخيرا: أن يكون ذا همة وحرص:

وهذا شأن من جادل ليرفع بجداله حقا ويمحو به باطلا ويثبت به شريعة فعن شريح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إليه:

(إن جاءك شيء فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه الرجال فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدم وإن شئت أن يتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيرًا لك).

وعن الأوزاعى قال: (كتب عمر بن عبد العزيز أنه: لا رأى لأحد فى كتاب الله وإنما رأى الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رأى لأحد فى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وعن قتادة قال: (حدث ابن سيرين رجلا بحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال الرجل قال فلان: كذا وكذا فقال ابن سيرين: أحدثك عن النبى صلى الله عليه وسلم وتقول: قال فلان كذا وكذا).

فالحرص يمنع المجادل من سرعة التدخل لأن المناظرة قائمة على أساس من الكتاب والسنة والإجماع وهذا فى مقام المناظرة قوة دافعة لإثراء الحوار واختصار الكلام وإيقاف الخصم عند حده وقد روى عن ابن عباس وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس رضي الله عنهم أنهم كانوا يقولون: (ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلنا الله تعالى من ذوى الهمم والحرص).



الفصل الثانى

أدوات الحذر

التهاون والتحريف داء مستمر فى بنى آدم حتى تقوم الساعة وشأن ذلك أن يهدم كل بنيان ويأتى على كل فضيلة وقيمة فيستأصلها من الجذور لاسيما إذا كان من سادة القوم وكبرائهم وأصحاب الكلمة فيهم على حد وصف الله تعالى فى شأن هؤلاء:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم: ٥٩].

وفى هذا عدم اهتمام بإشاعة الدين تعلما وتعليما وعملا والمتهاونون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فتكون رغبة الطبائع على خلاف رغبة الشرائع لذلك وضع علماء الإسلام بعض المحاذير التى تحفظ الدين والشريعة الغراء من الضياع على ما يأتى:

أولاً: التنزه عن الأغراض[1] الفاسدة الحاملة على التأويل الباطل كطلب مرضاة الملوك فى اتباعهم الهوى لقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

ثانيًا: شيوع المنكرات وترك العلماء النهى عنها وهو قوله تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى

---

(١) حجة الله البالغة – العلامة الشيخ أحمد الدهلوى ج١ دار المعرفة من صـ٢٧٤ .

ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [هود: ١١٦].

وقول النبي ﷺ : «لما وقعت بنوا إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». رواه البخاري ومسلم.

ثالثًا: التعمق: وحقيقته أن يأمر الشارع بأمر وينهى عن شيء فيسمعه رجل من أمته ويفهمه حسبما يليق بذهنه فيعدِّى الحكم إلى ما يشاكل الشيء بحسب بعض الوجوه أو بعض أجزاء العلة أو إلى أجزاء الشيء ومظانه ودواعيه وكلما اشتبه عليه الأمر التزم الأشد عند التعارض ويجعله واجبا ويحمل كل ما فعله النبي ﷺ على العبادة والحق إنه فعل أشياء على العادة فيجهر بأن الله تعالى أمر بكذا ونهى عن كذا. وهو على خلاف الشرع من ناحية الواقع.

رابعًا: تقليد غير المعصوم: يعني غير النبي ﷺ الذي ثبتت عصمته وحقيقته: أن يجتهد واحد من علماء الأمة في مسألة فيظن متبعوه أنه على الإصابة قطعا أو غالبًا فيردوا به حديثا صحيحا... وهذا التقليد غير ما اتفقت عليه الأمة المحروسة فإنهم اتفقوا على جواز التقليد للمجتهدين من العلم بأن المجتهد قد يخطئ ويصيب.. ومع الاستشراف لنص النبي ﷺ في المسألة والعزم على أنه إذا ظهر حديث صحيح خلاف ما قلد فيه ترك التقليد واتبع الحديث قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى:

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١].

(إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه).

خامسًا: من المحاذير ترك الأخذ بالسنة وفيه يقول ﷺ: **«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**. رواه البخارى ومسلم[1].

سادسًا: الابتعاد عن الخلط والجدل حيث قال ﷺ: **«ما ضل قول بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»**، إذ الضلال هو الذى تسبب فى الجدل من هذه الناحية وفى الخلط قوله ﷺ لمن أراد الخوض فى علم اليهود: **«أمتهوِّكون أنتم كما تهوَّكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعى»**[2] والمتهوِّكون: المتحيرون والمترددون.

سابعا: الاستحسان وفيه يقول النبى ﷺ محذرا: **«من أحدث من أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»** أى من جاء فى ديننا بشىء لا يتفق مع أصوله فهو مردود عليه... إلا إذا قبل أهل العلم العمل بأحد وجهين:

الأول: الرواية صريحا. **الثاني**: الرواية دلالة.

فإذا استنبطوا وأخبروا بالمستنبطات وعملوا بالشرع فاهتدى الناس بهديهم المتوقف

---

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (١٨٨)، وأحمد، وكنز العمال، وشعب الإيمان للبيهقى.

(٢) حديث حسن: رواه أحمد (١٤٦٢)، وكنز العمال (١ / ١٠٠)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد، انظر مشكاة المصابيح رقم (١٧٧).

على اتباع النبى ﷺ قبل ذلك.

ثامنًا: انتحال غير عقيدة السلف أو عمل دون أعمالهم قال ﷺ: «**لا تجتمع هذه الأمة على الضلالة**»(١) وقوله: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله.. ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»(٢)، من تشديد وتجاوز لحدود الشرع وزعم أن ذلك من الدين.

تاسعًا: ترك الكذب والمراء لقوله ﷺ «**من كذب علىَّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النار**»(٣)، وقوله كذلك: «**من قال فى القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده فى النار**»(٤).

وقوله ﷺ: «**المراء فى القرآن كفر**»(٥) والمراء هو: الجدال الذى لا يبغى الوصول إلى الحق.. ويحرم الجدال فى القرآن بردِّ الحكم المنصوص عليه بشبهة يجدها فى نفسه.. والله أعلم.



(١) انظر: تلخيص الحبير فى تخريج أحاديث (٣/ ٢٩٩).

(٢) حديث صحيح: رواه البزار فى مسنده (٩٤٢٣)، ومجمع الزوائد (٦٠١)، ومشكاة المصابيح للألبانى حديث رقم (٢٤٨).

(٣) حديث صحيح: رواه البخارى (١٢٢٩)، ومسلم (٤)، والطبرانى فى الكبير (٤٩١٥)، انظر صحيح الجامع رقم (٧٤٣٤).

(٤) حديث ضعيف: رواه الترمذى (٢٨٧٦)، والطبرانى فى الكبير (١٦٥٠)، انظر مشكاة المصابيح رقم (٢٣٤)، و السلسلة الضعيفة و الموضوعة (٤/ ٢٦٥)، وضعيف الجامع (٥٧٣٦).

(٥) حديث صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٥)، وأحمد (٧٩٧٦)، والنسائى رقم (٨٠٣٩)، انظر صحيح الجامع (٦٦٨٧).


الباب العاشر
الرأى والرأى الآخر !!

الفصل الأول

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾؟!..

لم تهدأ أحقاد خصوم الإسلام يوما من الأيام ولم يستطع أحد من الخصوم أن يمتنع عن إظهار عدائه وحقده الدفين منذ قديم الزمن وثارت ثائرتهم على القرآن والطعن فيه وكان لابن الراوندى صولات فى هذا الشأن لدرجة وصلت به إلى الزندقة والعياذ بالله وقد تعرض له العالم العلامة الأستاذ مصطفى صادق الرافعى على نحو ما ذكرنا آنفا - وسوف نعرض رأيه ومؤلفاته لنرى ما طبع عليه من حقد وما تطاول به من كلام لا يليق بدين أو قرآن - مما مهد بعد ذلك وحتى الآن للملحدين والطاعنين للنيل من القرآن والسنة - حفظهما الله - وابن الراوندى[1] هو: أبو الحسن أحمد بن إسحاق الراوندى نسبة إلى راوند قرية من قرى قاشان بنواحى أصبهان وكان قد اشتغل بعلم الكلام حتى نبغ فيه وحتى لم يكن فى زمنه أحذق منه بالكلام ولا أعرف بدقيقه وجليله منه وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام وقد انفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه فى كتبهم..

وكان فى أول أمره من الفضلاء فى عصره حسن السيرة جميل المذهب كثير الحياء ثم انسلخ من ذلك كله بأسباب عرضت له ولأن علمه كان أكثر من عقله!.

حكى عن نفسه فقال: مررت بشيخ جالس وبيده مصحف وهو يقرأ: «ولله ميزاب السماوات والأرض» فقلت: وما معنى ميزاب السموات والأرض؟ قال: هذا المطر الذى ترى فقلت: ما يكون التصحيف إلا إذا كان مثلك يقرأ يا هذا إنما هو:

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

---

(١) وضح البرهان: فى مشكلات القرآن للعلاَّمة محمد بن أبى الحسن النيسابورى ت: ٥٥٥هـ تحقيق صفوان عدنان داوودى - دار القلم دمشق - الدار الشامية - بيروت من صـ٦٢

فقال: اللهم غفرانا ، من أربعين سنة أقرؤها وهى فى مصحفى.. وكان هذا قبل انقلابه وزندقته.. أما السبب فى زندقته وما صار إليه أن الحمية والأنفة أخذته بسبب جفاء أصحابه وتنحيتهم إياه من مجالستهم ، وصار يجالس أبا عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازى ويؤلف الكتب له واستغل هذا اليهودى وضعه وجفاء أصحابه له فأغراه بالمال على تأليف الكتب التى تحمل الكفر والطعن فى الدين والقرآن فهذا ديدن اليهود وعاداتهم وقد بلغت مصنفاته نحوًا من مائة وأربعة عشر كتابا منها عدة كتب فى الطعن فى القرآن ومن ذلك كتاب (التاج) وقال المعرِّى عن (التاج): وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلا! وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة: أفٍّ وتفٍّ وجوربٍ وخفٍّ! قيل: وما جورب وخف؟ قال: واديان فى جهنم ، ولابن الراوندى كتاب أسماه: (قضيب الذهب) حاول أن يثبت فيه أن علم الله تعالى بالأشياء محدث وأنه كان غير عالم حتى خلق لنفسه علما – تعالى الله عن ذلك وجلَّت عليته - وقد نقض هذا وغيره عليه أبو الحسين الخياط والجبائى والهمذانى، ويقول المعرِّى: وأما القضيب فمن عمله أخسر صفقة من قضيب ، وخير له من إنشائه لو ركب قضيبا عند عشائه.

وله كتاب (خلق القرآن) وغير ذلك ونذكر الآن بعض الاعتراضات والأقاويل التى ذكرها ابن الراوندى والإجابة عليها.

قال الفخر الرازى: وقد ذكر ابن الراوندى آيات زعم أنها متناقضة وأجاب عنها الشيخ القاضى عبد الجبار الهمذانى فلنذكر بعض ذلك ليستدل على جهل المعترض وركاكة عقله فقد زعم أن قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [الجاثية: ١٧] مناقض لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٦] ، وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [النحل: ١٠٨].

فأجاب الشيخ: بأن المراد بالعلم فى الآية الأولى (القرآن) والأدلة دون العلم نفسه لأنه تعالى أطلق العلم ولم يقيده – وقد تسمى الحجة علما والكتاب علما يقال: عِلْم أبى حنيفة وعِلْم الشافعى وإذا احتمل ذلك زال التناقض[1] ومنها قوله: إن قوله تعالى:

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [الشورى: ٤٤].

يناقض قوله تعالى: ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النحل: ٦٣]

فأجاب الشيخ: بأن قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ ﴾ المراد فى الآخرة عند إذلال الله لهم بالعقوبة وأراد بقوله: ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ فى الدنيا وتقييده بذكر اليوم يدل على ذلك وأيضًا: إن كان المراد فى وقت واحد لم يتناقض لأن المراد فما لهم من ولىٍّ ينفع ويضر، وكون الشيطان لهم وليا لا يقضى أن ينفع ويضر ومنها: ما ادعاه من أن قوله تعالى:

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء: ٧٦] يناقض قوله تعالى:

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٩] وقوله:

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النمل: ٢٤].

زعم أن من يستحوذ عليه وعلى قلبه ويصده عن دينه كيف يكون ضعيفا..؟!

أجاب الشيخ:

إن المراد بأن كيد الشيطان ضعيف أنه لا يقدر على أن يضر وإنما يوسوس ويدعو فقط فإن اتبع لحقت المضرة وإلا فحاله على ما كان فهو بمنزلة فقير يوسوس لغنى فى دفع ماله

---

(١) نهاية الإيجاز: ٣٨٤.

إليه وهو يقدر على الامتناع فإن دفعه إليه فليس ذلك لقوة كيد الفقير لكن لضعف رأى المالك.

ومنها: ما ادعاه المتحير من تناقض قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: ٣٨]

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت: ٩: ١٢].

وزعم أن ذلك إذا عُدَّ زاد على الستة لأنه ذكر أنه خلق الأرض فى يومين وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام وقضاهن سبع سموات فى يومين وذلك يبلغ ثمانية أيام..؟.

أجاب الشيخ: أنه تعالى أراد بقوله: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾.

إلى قوله: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ مع اليومين المتقدمين ولم يرد بذكر الأربعة غير ما تقدم ذكره وهذا كما يقول الفصيح: (سرت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام)، و(جزت إلى الكوفة فى ثلاثة عشر يوما) ولا يريد سوى

العشرة بل يريد مع العشرة ثم قال تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ وأراد سوى الأربعة.

وهذا إذا حصل لم يكن مخالفا لقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قال: ومنها قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾

[النازعات: ٢٧: ٣٠].

فزعم أن الآية الأولى تقتضي أن يكون خلق الأرض من قبل السموات وفي الثانية يوجب أن يكون خلق السموات قبل خلق الأرض؟

أجاب الشيخ: إنه تعالى أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها وقد كان خلقها من قبل وإنما أراد بقوله: (دحاها) أنه بسطها فقد كان تعالى خلقها مبسوطة قبل خلق السماء ثم بسطها بعد خلق السماء يقول المؤلف: وبلغ من جهل ابن الراوندي بأشعار العرب ومحاسن التشبيه أن قال: ما في بَيْض النعام من محاسن الحال حتى يصير موضع تشبيهها به!؟ والعرب تناقلت ذلك والقرآن على لسانهم.

قال الراجز في الجاهلية:

كأن لون البَيضِ في الأدحيِّ ... لونك إلا صفرة الجاديِّ

وقال عروة:

كأنهن وقد حسرن لواغبا ... بَيْض بأكتاف الحطيم مركَّم

وقال الفرزدق:

فجئن إليَّ لم يطمثن قبلي وهن أصح من بَيْض النعام

فجاء المؤلف بثلاثة أبيات تشهد للمعنى وأكد فيه عدم اطلاع ابن الراوندى الواسع على لغة العرب وأشعارها.

وقال القاضى أبو علىّ التنوخى:

كان ابن الراوندى ملازم أهل الإلحاد فإذا عوتب فى ذلك قال: إنما أردت أن أعرف مذاهبهم، ويقال: إن أباه كان يهوديا فأسلم هو.. وكان بعض اليهود يقول للمسلمين: لا يفسدنَّ عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه علينا التوراة(١).. لكن حججه انقلبت عليه وطعنه جاء فى صدره وأفحمه العلماء بأجوبتهم وردودهم.. ويذكر المؤلف ردودا على الطاعنين فى القرآن على اختلافهم ويحكى عن بعض العلماء ردودًا فى ذلك.. فمنه ما قاله أبو عبيدة:

لقينى ملحد مرة فقال: يا أبا عبيدة: ﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: ١: ٢].

وهو هذا الكتاب فأى شيء ذلك من هذا؟ فقلت: إن قبلت الحجة العربية؟ قال: هات.. قلت: قول خفاف بن ندبة:

فإن تك خيلي قد أصيب صحيحها فعمدا على عين تيممت مالكا
أقول له: والرمح يأطر متنه تأمل خفافا إننى أنا ذلكا

وكذلك عند قوله تعالى:

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١].

يقول المؤلف قال بعض الطاعنين: إن صاحب الأجنحة لا يطير لزوال الاعتدال ويكون كالجادل الذى أحد جناحيه مقصوص وأجاب الجاحظ عنه: إنه قريب معقول فى الطيران إذا وُضِعَ على غير هذا الوضع يصير ثلاثة أجنحة وفق تلك الطبيعة ولو كان

(١) تاريخ بغداد: لابن الدمياطى ١٨، ١٩.

الوطواط فى تركيبه كسائر الطير لما طار بلا ريش ويزيد المؤلف على جواب الجاحظ فيقول:

وكل إنسان فإنما ركبته فى رجله،وذوات الأربع ركبها فى أيديها والإنسان وكل سبع فكفه فى يده،الطائر كفه فى رجله ويجوز أن يكون موضع الجناح الثالث بين الجناحين فيكون عونا لهما وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) ﴾ [الزخرف: ٨١].

قال: من عبد: إذا أنف.. فسره بعض علماء البصرة فقال له ملحد: وما يشبه الآنف من العابد؟ فقال: إنما أنزل القرآن على العرب.. وهذا كلامها قال خفاف بن ندبة:

وأعبد أن أسبهم بقومى ... وأترك دارما وبنى رياح

أولئك إن - سببت -كفاء قومى ... وأجدر أن أعاقب بالنجاح

والطعن فى القرآن أمر قديم وفى كل عصر يخرج بعض الزنادقة ليطعن فى القرآن فيهيئ الله تعالى رجالا للرد عن كتابه وتلقيم النابحين حجارة فى أفواههم لتبقى معجزة القرآن الكريم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر: ٩].

ولقد كشف علماء الإسلام زيف وضلال خصوم الإسلام بما يناسب علومهم ودراساتهم ومجالات بحوثهم ولقد تعالت أخيرا أصوات (قبيحة) تطالب بإلغاء السنة والاكتفاء بالقرآن وجدُّوا فى طعن السنة وطالبوا بطرحها من التشريع الإسلامى وقد تصدى لهم العلماء بالرد فقالوا:

السنة هى[١] الأصل الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهى مفتاح القرآن الكريم والنبراس الذى يهتدى به إلى كشف حقائقه والوقوف على دقائقه وقد اتفق الفقهاء على أن كل ما صدر عن النبى ﷺ من قول أو فعل

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى: د/ على محمد قاسم - د/ على محمد الصياد - د/ على على تفاحة - د/ شعبان الكومى فايد ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م من صـ٩٤.

أو تقرير فى شأن من شئون التشريع أو شئون الرئاسة والقضاء ونقل إلينا نقلا متواترا بسند صحيح يكون حجة على المسلمين ومصدرا تشريعيا يستنبط المجتهدون منه الأحكام الشرعية العلمية المتعلقة بأفعال المكلفين وقد استدل الفقهاء على أن السنة هى المصدر الثانى للتشريع بنصوص من القرآن الكريم والسنة المطهرة والإجماع.

أولاً: القرآن الكريم:

تعددت الآيات الكريمات التى تأمر بطاعة الرسول ﷺ وتحث على الاقتداء به فى أقواله وأفعاله، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢].

٣- قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

٤- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١: ٣٢].

٥- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤].

٧- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٨- قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٩٢].

٩- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

فهذه الآيات القرآنية وغيرها كثير جدا فى كتاب الله ﷻ تأمر بطاعة الرسول ﷺ وتقرر أن طاعته ﷺ من طاعة الله وتحذر من مخالفة أمره ﷺ وأن مخالفتها مخالفة لنواهى الله ﷻ.

ثانيا: السنة المطهرة:

وردت أحاديث كثيرة تبين أن السنة واجبة الاتباع منها:

١- ما رواه مالك أنه بلغه أن النبى ﷺ قال: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة رسوله** ﷺ»(١).

٢- عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل

---

(١) حديث صحيح: رواه البزار فى مسنده، وأبو يعلى رقم (١١٤٠)، والبيهقى فى السنن الكبرى، والطبرانى فى الكبير.

بوجهه فوعظنا موعظة بليغة وَجِلَتْ منها القلوب وذرفت منها العيون فقال رجل: يا رسول الله: كأن هذه موعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا؟ فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار»[١].

٣- عن عبد الرحمن بن أبى عوف عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحُمُر الأهلية ولا كل ذى ناب من السباع ولا لُقَطَة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يُقْرُوه «يضيِّفوه» فإن لم يُقْرُوه فله أن يعقبهم بمثل قِرَاه»[٢].

قال الإمام الخطابى: «**أوتيت الكتاب ومثله**» يحتمل وجهين:

أحدهما: أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلوِّ مثل ما أعطى من الظاهر المتلوِّ.

والثانى: أنه أوتى الكتاب وحيا يتلى وأوتى من البيان مثله أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرح ما فى الكتاب فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلوِّ من القرآن.

٤- تحدثت النبوة – بما أوتِيَت من الغيب – على من رد السنة فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «يوشك رجل منكم مُتَّكِئٍ على أريكته يحدِّث بحديث عنى فيقول: بيننا وبينكم كتاب

---

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (١٦٥٢)، وكنز العمال (١ / ١٧٤)، والطبرانى فى الكبير (١٥٠٢١)، انظر مشكاة المصابيح رقم (١٦٥)، والسلسلة الصحيحة (٢٧٣٥).

(٢) متفق عليه وسبق تخريجه.

الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وإن ما حرمه رسول الله ﷺ مثل الذى حرم الله» متفق عليه.

٥- روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ خطب فى حجة الوداع فقال: «إن الشيطان قد يئس أن يُعبَد بأرضكم ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقِّرون من أمركم فاحذروا إنى تركت فيكم ما إن اعتصتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه» رواه الشيخان[١].

وفى رواية: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب فاكتفى بالتحريش فيما بينهم».

فهذه الأحاديث تدل دلالة قاطعة على أن الله أوجب اتباع الرسول ﷺ فيما شرعه وأن السنة هى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم.

ثالثا: الإجماع:

فقد كان صحابة رسول الله ﷺ يمتثلون أوامره ونواهيه ولا يفرقون بين حكم أوحى الله به فى القرآن الكريم، وبين حكم صدر من رسول الله ﷺ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[النجم: ٣: ٤].

وكذلك كان شأنهم بعد وفاته ﷺ يرجعون إلى كتاب الله فى اقتباس الأحكام فإن لم يجدوا الحكم فى الكتاب التمسوه من السنة فقد ورد فى القرآن الكريم نصوص كثيرة جدا فرض الله على الناس فرائضه على سبيل الإجمال ولم يبين كيفية أدائها وذلك كفرائض الصلاة والزكاة والصيام والحج قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ

---

(١) حديث صحيح: رواه الترمذى (١٨٦٠)، وكنز العمال (١/ ١٨٥)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد، انظر السلسلة الصحيحة (١٦:٦).

ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فجاءت سنة رسول الله ﷺ مبينة لهذا الإجماع قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النحل: ٤٤].

فلو لم تكن هذه السنن البيانية حجة على المسلمين واجبة الاتباع، ما أمكن تنفيذ أوامر القرآن وفرائضه.

شبهات والرد عليها:

ورغم هذه الأدلة التى سقناها على حجية السنة واعتبارها المصدر الثانى للتشريع إلا أننا نرى رءوسا تطل بين الفيتة والأخرى ممن ماتت ضمائرهم وأعمى الله بصائرهم ينكرون السنة جملة وتفصيلا وسوف نكتفى بالإشارة إلى بعض هذه الشبه مقتصرين على ما يتوهمون أنه الأقوى ثم نقوم بالرد عليها.

الشبهة الأولى:

قالوا: بأن القرآن الكريم هو مصدر الأحكام الشرعية ويجب الاقتصار عليه وحده مستدلين بمثل قوله تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله: ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فهذه الآيات تبين أن القرآن الكريم قد احتوى على كل الأحكام الشرعية ونص عليها بدلالاته المختلفة وبالتالى فيجب الاقتصار عليه وحده.

ويُرد على هذه الشبهة بعدة أجوبة:

الجواب الأول: أنها شبهة واهية فإن اتباع السنة اتباع للقرآن فقد أمرنا الله باتباع الرسول ﷺ وبين أن طاعته من طاعة الله ﷻ حيث قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠]؟.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: ٤٤].

أما ما ذكروه من آيات فالمراد بها أن القرآن الكريم فيه تبيان لأمور الدين، إما بطريق النص، وإما بطريق الإحالة على السنة، وإلا لتناقضت هذه الآيات مع قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: ٤٤].

وتعالى الله علوا كبيرا عن أن يكون فى القرآن الكريم أى تناقض.

الجواب الثانى: أن المراد من قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ هو إكمال ما يحتاج الناس إليه من أصول الحلال والحرام والقواعد التى تقوم عليها شئون الحياة فى جوانبها المختلفة أما تفصيل هذه الأحكام كالصلاة وكيفيتها والزكاة ومناسك الحج فهو مبين فى السنة وقد تأتى بأحكام مستقلة غير موجودة فى القرآن الكريم كما سيأتى تفصيل ذلك.

الجواب الثالث: لا نسلم أن المراد من لفظ (الكتاب) الوارد فى الآيات الكريمة هو القرآن الكريم وإنما المراد منه اللوح المحفوظ إذ هو الذى سُطِّر فيه كل شىء ودُوِّن فيه ما كان وما يكون.

الجواب الرابع: سلمنا أن المراد من لفظ (الكتاب) هو القرآن الكريم ولكن لا نسلم أن القرآن الكريم قد دل على جميع الأحكام تفصيلا فتناول بنصوصه جميع الجزئيات على سبيل التفصيل وإنما دل عليها بطريق الإجمال فإنه أرشد إلى القواعد العامة وبين العلل والمعانى التى يلزم من اعتبارها جلب النفع والخير للناس ودفع المفسدة عنهم فثبتت بعض الأحكام بنصوص القرآن مباشرة وثبت البعض الآخر بالسنة.

الشبهة الثانية:

قالوا: لو كانت السنة حجة لأمر النبى ﷺ بكتابتها كما أمر بكتابة القرآن الكريم وإنما ثبت عنه النهى عن كتابتها حيث قال: «**لا تكتبوا عنى ومن كتب غير القرآن فليمحُهُ وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب علىَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

ويرد عليها: بأنها شبهة واهية لأن نهيه ﷺ عن كتابة السنة فى بداية الدعوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

---

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (٧٧٠٢).

١- خوفا من التباسها بالقرآن الكريم لاسيما وأن القرآن الكريم كان ينزل منجما آية آية وسورة سورة فمن الجائز جدا أن يلتبس الأمر على كثير من الصحابة فيضعوا الحديث مكان الآية والعكس ولا يخفى ما فى هذا من خلط كبير.

٢- انصراف الناس بالسنة عن القرآن الكريم حتى تكون للقرآن المنزلة الأولى والسنة مؤكدة له أو مبينة أو تأتى بأحكام مستقلة عنه.

٣- أن الكتابة لم تكن شائعة فيهم ولم يتقنها إلا عدد قليل منهم انحصرت همتهم فى كتابة القرآن الكريم والرسائل النبوية إلى الملوك علاوة على أن أدوات الكتابة لم تكن متوافرة بكثرة حيث كانت على قطع متفرقة من الجلد والحجارة والعظام فلو أنهم كلفوا مع ذلك كتابة السنة لوقع الناس فى حرج كبير.

على أنه قد جاء الإذن منه ﷺ بكتابة السنة لمّا كثر عدد الذين يكتبون وتمرست النفوس على قراءة القرآن وأمكن للصحابة تمييز القرآن الكريم عن السنة.

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن الصحابة قالوا له: إنك تكتب عن رسول الله ﷺ كل ما يقول ورسول الله ﷺ قد يغضب فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال: **«اكتبوا عنى فوالذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق»**.

كما جاء الإذن منه ﷺ بالكتابة فقال للصحابة: **«اكتبوا لأبى شاة»** وهو رجل من اليمن يعنى خطبته ﷺ يوم فتح مكة بعد أن قال الرجل: اكتبوا لى يا رسول الله.

أضف إلى ذلك أن بعض الصحابة قد اتخذ صحائف له منها ما هو مشهور كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التى تسمىً بـ (الصادقة) لأنها أخذت من الفم ولم يكن بينه وبين النبى ﷺ واسطة وقد ذكر أهل السير أنها تشتمل على ألف حديث كما اتخذ على بن أبى طالب لنفسه صحيفة أيضا.

روى البخارى عن أبى جحيفة قال: (قلت لعلىٍّ: هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلا كتاب

الله أو فَهْمٌ أعطيَهُ رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة قال: قلت: فما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر) وروى أحمد عن طارق بن شهاب قال: (رأيت عليا على المنبر يخطب فسمعته يقول: والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة فيها فرائض الصدقة) كما روى أحمد عن أبى الطفيل: سئل على رضي الله عنه هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء؟ فقال: ما خصنا إلا ما كان من قراب سيفى هذا فأخرج صحيفة كتب فيها: لعن الله من ذبح لغير الله.

فكل هذا لا يقدح فى نهيه صلى الله عليه وسلم كتابة السنة فى بداية الدعوة ثم صدر الإذن منه صلى الله عليه وسلم بالكتابة لبعض الناس لمَّا زالت أسباب النهى.

الشبهة الثالثة:

قالوا : إن الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها الضعيف الذى لم يثبت عنه والموضوع المكذوب عليه صلى الله عليه وسلم وهذا من شأنه رفع الثقة عن الأحاديث جميعا والاقتصار على القرآن الكريم فقط.

ويرد على هذه الشبهة:

بأنها ساقطة لأن علماء الإسلام الموثوق بهم فى رواية الحديث والدراية بالرواة لم يتركوا شيئا من الأحاديث إلا وبينوا منزلته من القبول والرد وأفردوا لذلك فَنًّا خاصا به سمى (علم مصطلح الحديث) درس فيه تاريخ الرواة ومعرفة الصحيح والمردود منها وبالتالى فليس هناك أدنى شك فى الاحتجاج بالسنة واعتبارها المصدر الثانى للتشريع.

الشبهة الرابعة:

ذهب المستشرقون وعلى رأسهم شيخهم اليهودىّ المجرىّ (جولد تسيهر) إلى أن السنة لم تدون إلا بعد أن اشتد النزاع بين الأمويين وخصومهم من آل البيت والزبير بن العوام على السواء فاخترع كل فريق من الأحاديث ما يدعم به رأيه وما يكون حجة ضد خصمه

واستغل الأمويون - بدهائهم - الإمام الزهري في ذلك ولم يقتصر الأمر على وضع أحاديث سياسية لصالح البيت الأموي بل تعداه في أمور العبادات.

ويرد على هذه الشبهة:

بأن هذا اتهام كاذب للخلفاء الأمويين ولعلماء الإسلام جميعا يناقضه الواقع الذي عرف عنهم فعبد الملك بن مروان: الذي كتب الإمام الزهري السنة في عهده ذكر ابن سعد وغيره من أصحاب السير عنه أنه كان صاحب نسك وتقوى منذ نعومة أظفاره حتى كان الناس يلقبونه بحمامة المسجد وفي عهده تمت الفتوحات الإسلامية العظيمة.

علاوة على أن الإمام الزهري وغيره من العلماء لم يكونوا لعبة في يد حاكم بل عرف عنهم من التقوى والاعتزاز بالإسلام ما يؤكد أن أحدا منهم لم يُتَّخَذْ مطية لهوى سلطان يكتسب به رضاه ويبوء بسخط من الله.

قال سفيان بن عيينة في شأن ابن شهاب الزهري: لم يكن في الناس أحد أعلم بالسنة من الزهري، وقال يحيى بن سعيد القطان: ما بقي عند أحد من العلم ما بقي عند ابن شهاب.

وكان ابن شهاب الزهري أول من سبق إلى تدوين السنة وجمعها بعد أن كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالمدينة أبي بكر بن حزم وإلى ولاته بالأمصار أن يجمعوا سنة رسول الله ﷺ فإن أبا بكر بن حزم لم يجمع إلا جزءًا يسيرًا أما الذي ثابر على الجميع وتوافر عليه وعرف عنه ذلك فهو الزهري.

وقد أجمع علماء الجرح والتعديل على توثيقه وأمانته وجلالة قدره في الحديث وما زعمه (جولد تسيهر) من صلته بالأمويين واستغلاله في وضع أحاديث موافقة لأهوائهم فمحض افتراء لا يليق برجل كالزهري في أمانته وورعه فإذا اتصل بالخلفاء أو اتصلوا به فلا يؤثر هذا الاتصال عليه إلا بالقدر الذي يقوم به نحوهم من النصح في الدين والتذكير بحقوق الأمة عليهم وما ألقاه الله على عاتقهم من واجبات لرعيتهم وما يقوم به كذلك من تأديب لأولادهم حتى يكونوا أسوة حسنة لغيرهم.

الشبهة الخامسة:

هذه الشبهة خاصة بالطعن في أحد الصحابة وكثرة روايته للحديث مع كونه أميا وهو الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه فقد تحامل بعض الكتاب ولا سيما المحدثين منهم كأحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) وأبي رية في كتابه: (أضواء على السنة المحمدية) وقالا: إنه أكثر الصحابة حديثا ولم يكن يكتب بل كان يحدث من ذاكرته وأنه لم يكن يقتصر على ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان يحدث عنه بما سمعه من غيره وأن بعض الصحابة قد انتقده وشك في صدقه وأنه كان محتقرا متهما في إسلامه متشيعا لبني أمية.

وترد هذه الادعاءات:

بأن كثرة روايات أبي هريرة ترجع إلى ما آل إليه أمره من قوة الذاكرة فقد كان في بداية إسلامه – كما روى أئمة الحديث – سيء الحفظ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: «افتح كساءك» فبسطه ثم قال له: «ضمَّه إلى صدرك» فضمه فما نسي حديثا بعده قط.

قال ابن حجر بعد سياقه للحديث: (والحديث المذكور من علامات النبوة فإن أبا هريرة كان أحفظ الناس للأحاديث النبوية في عصره).

أضف إلى ذلك أن أبا هريرة كان أكثر الصحابة ملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاطلع على ما لم يطلع عليه غيره من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله.

قال الإمام الشافعي فيه: (أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره) وقال الحاكم: (كان من أحفظ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وألزمهم له صحبة).

وأما كونه لم يكن يكتب الحديث بل كان يحدث من ذاكرته فذلك شأن عامة الصحابة إلا قليلا منهم كعبد الله بن عمرو بن العاص ممن كان يكتب لنفسه فإن العرب قد استعاضت عن الكتابة في السطور بالحفظ في الصدور.

وأما أنه كان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعه من غيره فهذا لم ينفرد به أبو هريرة بل

شاركه فيه صغار الصحابة ومن تأخر إسلامه فإنهم أسندوا إلى رسول الله ﷺ ما سمعوه من صحابته ولم يجدوا حرجا فى ذلك لأن الصحابة كلهم عدول ولذا فقد ذهب العلماء إلى صحة الاحتجاج بمرسل الصحابى وأنه يأخذ حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ.

وأما ما روى من أن بعض الصحابة قد انتقده وشك فى صدقه فإنه لم يصح شىء من ذلك وقد أجمع السلف على تعديل الصحابة ولم يعرف عن أحد منهم أنه كان يُكذِّب الآخر أو يشك فى صدقه والذى صح فى ذلك أنه إن دل على شىء فإنما يدل على التعجب من كثرة ما رواه أبو هريرة من أحاديث والتعجب من الأمر لا يكون تكذيبا له أو تشكيكا فى صحته.

روى مسلم فى صحيحة أن أبا هريرة قال: (إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ والله الموعد كنت رجلا مسكينا أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطنى وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق (البيع والشراء) وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم).

وأما ما ذكره أبورية من أنه كان محتقرًا اختلفوا فى اسمه، متهما فى إسلامه متشيعا لبنى أمية فإنه محض افتراء وتشويه للحقائق فإن الاختلاف فى اسم الرجل لا يحقر من شأنه فالمرء يقدر بعلمه لا باسمه ولقبه وقد اختلف المؤرخون فى أسماء كثيرة من الصحابة ولم يغض ذلك من شأنهم ولم يحط من قدرهم.

وكان إسلام أبى هريرة إسلاما خالصا لله كإسلام سائر الصحابة حيث لازم رسول الله ﷺ وانقطع للعلم ولا يضيره أنه كان فقيرا أو أنه كان من أهل الصفة الذين يأوون إلى المسجد حيث لا مال لهم ولا أهل فى المدينة فقد كان هؤلاء من كرام الصحابة.

وأما ما قيل من تشيعه لبنى أميه فإن كل ما ورد فى هذا الموضوع لم يرد فى كتب الأخبار الموثوق بها وإنما ورد فى كتب الأدب وكتب الشيعة التى تتعصب لآل البيت وتحمل على كثير من الصحابة، والثابت الصحيح فى هذا الأمر أن أبا هريرة لم يشترك فى الفتنة بين سيدنا على ومعاوية ولم يمسه شررها من قريب أو من بعيد.

الانتقاء ووسائل التضليل :

هل ما زال التاريخ يعيد نفسه؟ أعتقد أن هذا هو الحاصل فإذا كان الإسلام قد ووجه فى مبتدئه بصلف أبى جهل وغطرسة الوليد ومكر اليهود من بنى قينقاع والنضير وقريظة ومحاولات المنافقين من إثارة للفتن وبلبلة للعقول وما لاحق الإسلام أيضا من مواجهات - بعد ذلك على يد أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ثم همجية التتار وسعار الصليبيين الأوربيين ثم ما نراه اليوم من مواجهات خطيرة أيضا تشوه الإسلام وتزيف الحقائق وتدبر المكائد باستمرار ضد المسلمين من دول معروفة ليجعلنا نتمسك بعقيدتنا وديننا ونذود عن حمى إسلامنا بأرواحنا فكما كان يصنع أبو جهل فى صدر الإسلام من تخويف سادات العرب من الإسلام إلى الانتقاء المبتور فيجعل من قيمة المساواة التى يدعوا إليها الإسلام قيمة تسقط عن ذوى الشرف شرفهم وتدعوا إلى مؤازرة الفقراء لفقرهم حتى أصبح يجرى على ألسنة الكثيرين أن الإسلام يدعو إلى عدم احترام الأشراف ويتملق الفقراء والعبيد والمستضعفين.. كما كان يصنع أبو جهل وأمثاله يصنع اليوم أولئك الداعون إلى مناهضة الإسلام بشعارات مضللة وإطلاقات تافهة وتجنيد - خونة - يتملقونهم ويقدمون لهم أنفسهم قرابين!!!

فلقد أثارت إحدى الأمريكيات وهى ناظرة بالمدارس الثانوية حفيظة المسلمين حينما ادعت أنها تحولت عن الإسلام إلى المسيحية لهذه الأسباب :

الأول: لأنها وجدت أن القرآن كرم العذراء مريم وفضلها على نساء العالمين وهى تصدق القرآن وتنجذب إلى ابنها المسيح عليه السلام ؟! والآية التى تفضل السيدة مريم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

والـرد هــو :

أنها إذا صدقت بهذا المنزل فى القرآن أفليس الإيمان بما أنزل عليه القرآن وهو محمد ﷺ من باب أولى ؟! خاصة وأنه جاء بما أكد الإيمان بجميع الأنبياء والرسل حيث :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الثانى: وأنها وجدت أن المعجزات التى قدمها السيد المسيح عليه السلام والتى عرفتها من القرآن معجزات لم يأت بها أى نبى آخر! ومن أجل تلك المعجزات المتفردة تحولت عن الإسلام؟!.

والـرد هــو :

أنها كشفت انتقائيتها الضالة المضلة فتكون كمن يتلقى قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾[النساء: ٤٣] .

فينتقى منه ما يوافق هواه فيقول: إن القرآن ينهى المؤمنين عن الصلاة ؛ لأن القرآن ذاته والذى تصدقه أثبت المعجزات العظيمة والتى تفوق الحصر والعدد ولا حول ولا قوة إلا بالله؟! وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[البقرة: ٨٥].

الثالث: وأنها وجدت أن الإسلام لا يحترم مشاعر المرأة وأباح تعدد الزوجات بينما المسيحية تحترم تلك المشاعر وهذا الرباط المقدس، ولا تسمح بتعدد الزوجات؟!.

والرد هو:

أن الإسلام أباح ذلك لمصالح عليا وحكم بالغة وحفظ للأعراض والأنساب والنوع وتأكيد للتوازن الإنساني وشرط؛ لذلك شرطا بقوله:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء: ٣].

وَحَثَّ على العدل المطلق أو الممكن يقول:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) ﴾ [النساء: ١٢٩].

وخير للمرأة في أشد الحالات أن يكون لها ربع رجل خير من أن تكون مشاعا للرجال.

الرابع: وأنها وجدت أن الإسلام منح الرجل حق التطليق للمرأة وفي هذا إهدار لكرامتها..؟!.

والرد هو:

أنها لم تعرف شريعة الإسلام ولكنها اعتمدت على افتراءات المبشرين والمستشرقين والمتعصبين ولم تعرف أن الإسلام أحاط الزوجة بسياج الرحمة وأحاط الأسرة بكامل العناية وجعل الطلاق آخر الحلول عند تعسرها وأنه أبغض الحلال إلى الله عز وجل قال تعالى:

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾ [النساء: ١٣٠].

الخامس: وأنها وجدت أن الإسلام يجعل للرجل ضعف ما للأنثى فى الميراث مما يعد إجحافا بالمرأة؟!.

والرد هو:

ألم يكن فى إدراك المرتدة أن تفكر قليلا فى الحكمة من ذلك لتعلم أن الرجل هو المسئول عن المرأة من كل الوجوه ومنها وجه الإنفاق ولو أنه ورث من أبيه مثلا ستة آلاف جنيه وله أخت شقيقة فأخذ ضعفها وهو أربعة آلاف جنيه وأخذت هى ألفى جنيه وأراد هو أن يتزوج أفليس هو الذى سينفق على زواجه من هذا المال على من ارتضاها - أما إذا زُوِّجت أخته أفليس زوجها هو الذى سينفق عليها من ماله ويبقى لها كامل الميراث - عجبا؟!.

السادس: وأنها وجدت أن الإسلام (حقر) من شأن المرأة فجعل شهادتها نصف شهادة الرجل؟!.

والرد هو:

أن هذا رحمة لها إذ أن الشهادة تتطلب المشاهدة والمعاينة وهذا يتاح للرجل ويشق على المرأة وأيضا فإنها تحيض وتحمل وترضع مما يتسبب فى إضعاف قوتها وتحملها ما لا تطيق فعافاها الإسلام من هذا الجهد المضنى؟! مع أن الإسلام حفظ لها حق الشهادة بما يتناسب مع حالها فقال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

السابع: وأنها وجدت: أن القرآن يحث على الغزوات وقتل البشر لمجرد عدم انتمائهم إلى الإسلام حتى انتشر الإسلام بحد السيف أما المسيحية فتدعو إلى التسامح والمحبة حتى إن بطرس الرسول عندما حاول رفع سيفه للدفاع عن المسيح قبل صلبه منعه المسيح ودعاه إلى التسامح؟!.

والـرد هـو:

أنه ليتها قبل ترديد هذه الأكاذيب والشبهات راجعت بعض ما كتبه المنصفون من مفكرى الغرب والشرق المسيحيين فى هذا الموضوع لتعرف أن الإسلام حث على الجهاد للدفاع عن الدين والنفس حيث قال تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [الحج: ٤٠]

أين ما قيل عن نشر الإسلام بحد السيف والقرآن يقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٦١].

وبلغ بها الأمر أن سوغت لنفسها اتهام الإسلام بفرض الجزية على غير المسلمين بينما لا يفرضها على المسلمين: - وغرقت بذلك فى بحار جهلها وترديها -ولو أدركت لعلمت أن الجزية كالضريبة التى تتعامل بها الدول لحماية (الأقليات) التى تعيش فى كنفها وهى أمور سائدة ولها شروطها وظروفها وأحكامها؟! ثم زعمت: أن حديث الجنة يكثر عن الجنس والحور والغلمان؟! وجهلت - ولها عذرها - أن هذا من النعيم الذى فضل الله به من رضى عنهم ورضوا عنه غير كثير ممن ينتظر المطيعين فى الجنات!! وما ينتظره أمثالها من العذاب فى النار؟!.



الفصل الثانى

تعليـــق عــام

عندما نراجع ما كتبه الاستشراق عامة نجد أن هناك إجماعًا على الوقوف فى وجه القرآن الكريم وإنكار مصدره الربانى والقول بأنه من عمل محمد ﷺ ويجىء هذا الرأى تعصبا ضد القرآن ونبيه أو عجزا عن فهم الوحى فى تقدير الباحثين الذين يعتمدون النظرية المادية أو فى التشابه مع موقف الفكر المسيحى الذى يرى أن الإنجيل ليس كتابا من السماء وإنما هو من عمل الرسل والشك فى إلهية القرآن هو ما ردده المستشرقون وتأثر به كثير من الكتاب والباحثين العرب أمثال طه حسين، وزكى مبارك، وغيرهما، ثم هم يذهبون إلى القول بأن النبى استقى مادة القرآن، ولا سيما قصصه من الأحبار والرهبان الذين كان يلقاهم أو يتصل بهم فى مكة؛ ولكن هذه الشبهات سرعان ما تتبدد عندما نقارن بين روايات التوراة والإنجيل ورواية القرآن لقصة من القصص حيث يبدو عمق الخلاف نجد فى القرآن صياغة على نسق عال من البيان والحكمة وبيانات أعمق وأوسع هى فارق بين البيان الربانى وبين القصص البشرى.

أولاً: القرآن يتميز بالصدق المطلق ويتميز بالتماس العبرة والبعد عن التفصيلات الأسطورية ويرتفع عن سذاجة العرض إلى قدر من الحكمة يتفق مع النظْم القرآنى الذى بدأ به دخول البشرية فى عصر الرشد الفكرى وعصر الرسالة الخالدة وما يردده المستشرقون ليس جديدا فقد ردده فى كل عصر خصوم الإسلام وقيل فى عهد النبى ﷺ نفسه عرض له القرآن وأشار إليه وكشف زيفه، وكان مشركوا مكة يزعمون أن القصص الذى جاء بها القرآن إنما تعلمها محمد من نصرانى أعجمى اللسان كان بمكة وقد رد القرآن على زعمهم فى سورة النحل.. ويردد هذا المعنى (جولد تسيهر) المستشرق اليهودى (وبلاشير) فى كتابه (معضلة محمد) وغيرهم وجميعهم يشيرون إلى ما جاء فى العهد القديم أو الإنجيل ويشيرون

إلى رحلات النبى ﷺ إلى الشام وغيرها ويردون إليها ما ورد فى القرآن من قصص.

ثانيًا: حاول (جولد تسيهر ، ونولدكه) الادعاء بأن القرآن حُرِّف بعد وفاة محمد ﷺ فيدعون أن اسم الرسول ﷺ قثم أو قثامة ثم أبدل وصار محمدا لتيسير وضع الآية: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

ولقد كان للرسول ﷺ أسماء كثيرة ولقد التقط هذا الاسم مما جاء فى الروايات التى تروى عن محاولة جده عبد المطلب فى إطلاق اسم قثم عليه قبل اختيار اسم (محمد) وتشير روايات المستشرقين المبطلة إلى ما كان يجهد له النبى ﷺ فى حالة الوحى فيصورون هذا بأنه نوبات من الصرع فيقولون: أنه كان عليه الصلاة والسلام يفقد وعيه ويسيل منه العرق وتعتريه التشنجات وتخرج منه الرغوة فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه وتلا على أتباعه ما يزعم أنه وحى من الله.

ولا ريب أن مسألة الاتصال البشرى فى الرسول بالملائكى فى جبريل إبان الوحى من الأمور الخطيرة التى تحدث عنها العلماء والباحثون والتى يعجز عنها مفهوم العلم المادى فإذا أضيف إلى ذلك التعصب والتحيز والتماس العيب للبرءاء كانت على هذه الصورة التى يرددها بعض متعصبى المستشرقين.

ثالثًا: ذهب بعضهم إلى البحث عن الحروف المفردة فى أوائل بعض سور القرآن وقال نولدكه: إنها اختصارات لأسماء مالكى النسخ التى استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن فى مصحف واحد وهو استنتاج باطل وساذج وذهب أدوارد جوستر إلى أن هذه الحروف المقطعة ليست إلا اختصارات للأسماء القديمة للسور ولا ريب أنها لو كانت أسماء السور لوجب أن توضع قبل البسملة لا بعدها ولو كانت كذلك لعرضها المفسرون الأوائل وأشاروا إليها وواضح أن المحاولة ترمى كلها إلى هدف واحد هو اعتبار هذه الحروف المقطعة ليست من الوحى وأنها عمل متأخر عن زمن الرسول والواقع غير ذلك تماما وأن

هذه الحروف هى من صلب القرآن الكريم وأن هذه الحروف قد وردت على لسان النبى ﷺ ومن صميم الوحى وقد ادعى لويس جارديه والأب قنواتى فى كتابهما (فلسفة الفكر الدينى بين المسيحية والإسلام) أن عثمان بن عفان أقبل إلى القرآن فى خلافته فقسمه إلى سور وآيات ورتب السور وراء بعضها حسب طولها فأطولها أولاً ثم ما دونها طولا وهكذا وهذا القول ينسب إلى سيدنا عثمان ما ليس واردا بالتحقيق ؛ لأن ترتيب سور القرآن الكريم أمر توقيفى تم فى عهد النبى ﷺ ولم يحدث تغيير له أو تبديل له من بعد ولقد حاول بعض المستشرقين ترتيب القرآن ترتيبا آخر يختلف عن الترتيب القرآنى الأصيل ومنهم وليم موير، وويل ورودويل وقد باءت محاولتهم بالفشل وهناك من حاول أن يشكك فى لغة القرآن ذاتها وحاول أن يرميها بأنها لا تتميز بالعصمة واستند فى ذلك إلى بعض روايات حاول استخراجها من الروايات الضعيفة حاول بها إثارة الشبهة بأن هناك فقرات لم يتفق أصحاب النبى ﷺ فيما بينهم عليها ولا ريب أن هذه مماحلات باطلة لا يعتد بها.

رابعًا: هناك محاولة القول بأن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل وإنما هو محاولة للإصلاح اتجه إليها النبى نتيجة لما رآه من فساد النظام الطبقى عند قومه فى عصره وأنه من أجل ذلك لجأ إلى التخويف بيوم القيامة لكى يرغِّب المعارضين فى الإصلاح ومن ذلك الحديث عن المطففين والهمزة واللمزة ونهيه عن قهر اليتيم ونهر السائل وأن محمدا قد تأثر بالوضع الاجتماعى فى مكة تأثرا شديدا ولا ريب أن هذه المحاولة باطلة فى أساسها إذ أن هذا النظام الكامل الجامع الذى جاء به القرآن الكريم وحيا من الله إلى رسوله محمد ﷺ حين يدرس دراسة عميقة فإن الباحث المنصف يجد فيه منهجا متكاملا جامعا ربانى المصدر بما لا يقدر بشر على تنسيقه على هذا النحو وهو فى قدرته على البقاء غضا طريًا مع تغير الأزمنة والبيئات وعطائه المتصل فى كل عصر وبيئة وعدم اصطدامه بالمتغيرات والتحولات ليؤكد كذب الادعاء بأنه من صنع بشر ومهما قال المستشرقون فى تأثر النبى ﷺ بتعاليم اليهود والنصارى وهو ما لم يحدث لسبب أساسىٍّ هو أن النبى ﷺ كان لا يعرف القراءة

والكتابة فإن التوراة والإنجيل لم يرد فى أحدهما مثل هذا النظام الذى قدمه القرآن وأن القرآن الكريم فى مفهومه للتوحيد الخالص يختلف معهما فضلا عما قدمه من مناهج: منهج المعرفة، ومنهج السنن الكونية وسنن الحضارات والأمم فإن ذلك كله لا يوجد منه شيء فى كلا الكتابين المدعى أن الرسول محمدًا ﷺ قد اطلع عليهما.

خامسًا: فساد القول بأن القرآن أسير السجع والقافية كما يقول(لويس مارسيه) فإن فى القرآن أساليب متعددة وأسلوب السجع واحد منها والقرآن له طابع خاص معجز مختلف أشد الاختلاف عن التأثر بسجع الكهان فى الجاهلية ويختلف عن الشعر كلية حتى قيل عنه: (والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة).

ثم كانت ترجمة القرآن من خيوط المخطط الذى بدأه الغرب المسيحى بعد الحروب الصليبية تحقيقا لتوصية (لويس التاسع) وفى محاولة لتحطيم الرأى العام الذى أخذ يتكون فى أوربا نتيجة لمقولة العائدين من المعارك فى الشرق والذين تحدثوا عن سماحة الإسلام فى التعامل مع الغزاة وعظمة الإسلام فى الأداء الحضارى مما أزعج الكنيسة ودفعها إلى العمل على مقاومة ذلك عن طريق ترجمة القرآن وتفسيره على النحو الذى يثير التكذيب لرسوله والتشكيك فى سلامته بقول أحد الباحثين أنه بعد الغارة الصليبية الأولى رأى رجال الكنيسة أن استيلاء الأوربيين على البلاد المقدسة لم يأت بالنصر الحاسم ولم يؤد إلى اعتناق المسلمين للمسيحية بل على العكس قد نتج عنه أن تركت حضارة المسلمين ومقوماتهم وطرق معيشتهم تأثيرا ملموسا فى الصليبيين وعند ذلك قامت الأصوات تدعو إلى ضرورة استخدام الوسائل الفكرية فى محاربة الإسلام وفى مقدمة هؤلاء بطرس المحترم سنة ١٧٥٦ الذى أوفد إلى أسبانيا وسنحت له الفرص للاطلاع على المناقشات بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا الذين يرون أنه لا سبيل إلى مكافحة العقيدة المحمدية إلا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومن أجل معرفة آراء الخصم جيدا تقرر ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية وتعد أول طبعة لنص القرآن تلك التى نشرها (باجانيتى) فى البندقية عام ١٥٢٠ ، وقد أحرقت جميع نسخها فى الحال بأمر من البابا بولس الثالث ثم أصدر البابا إسكندر الرابع

أمرا بمنع طبع نص القرآن وترجمته وحتى عام ١٦٦٧ لم يجسر القس الألمانى إبراهيم هيكلمان على طبع ترجمته التى نشرت ١٦٩٤ والتى قال فى مقدمتها: إنه من الضرورى أن نعرف القرآن معرفة دقيقة إذا أردنا مكافحته وتمهيد السبيل لانتشار المسيحية فى الشرق وهكذا نجد أن المنطلق فى ترجمة القرآن كان لحساب التبشير والاستشراق على أساس إعطاء الغربيين القدرة للتعرف على الجوانب التى يستطيعون منها مهاجمة الإسلام ومجادلة المسلمين. ومن هنا نجد أن جميع المستشرقين الذين كتبوا بعد ذلك أبحاثهم اعتمدوا هذه الوجهة وهذه الطريقة وكانت منطلقاتهم جميعا الإدعاء بنصرانية الأصل أو يهودية الأصل الذى جاء منه القرآن وماذا اقتبس محمد من التعاليم اليهودية وأن الإسلام من بنات أفكار محمد وأن القرآن من تصميم محمد هكذا نجد كتابات (بوهل) عن مادة محمد فى دائرة المعارف الإسلامية (وتوينى) فى بحث التاريخ (ووارنر وجايجر وبورى) كلهم يجرون فى طريق واحد لا يصدر عن أسلوب علمى؛ ولكن عن هوى وتعصب قوامه الزعم بأن القرآن من تأليف محمد وأن الرسول أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بهما ويقول بروكلمان: إن النبوة كانت أمرا يتوقعه الرسول والذى كان يكلمه هو صديق له. واتفاق المستشرقين فى ذلك كله ليس عفويا بل هو استنتاج متفق عليه على حد تعبير محمد أسد حين يقول: يظهر من بحوثهم وكأن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع من البحث العلمى ، بل أنه متهم يقف أمام قضاته ، وقد رد مفكرو الإسلام على هذه الشبهات جميعا وزيفوها ومما قالوا: أنه لو كانت التوراة والإنجيل مصادر للقرآن كما يزعمون لكان اليهود أعرف الناس بهذا وهم من هم خبثا وحقدا على كل نبى ورسول ولقد كانت صداقتهم بالمشركين فرصة لمساعدتهم فى الطعن بوحى القرآن وبيان مشابهته للتوراة لو كان ذلك به أدنى ذرة من الصحة بل لقد شهد بعض كتاب الغرب بفساد رأى الاستشراق يقول العالم أرتست فى كتابه (الإسلام والمسيحية الحقيقية): أن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الأناجيل ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله إن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين المسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء (بولس) ذلك المارق اليهودى المسيحى وشرحه

الصحف المقدسة على طريق التجسيم وأن (بولس) هو واضع ذلك المزيج من القصص والأحاديث المتعارضة ومن هنا فإن هناك اختلافا أساسيا من حيث الأسلوب لأن لكل إنجيل كاتبا (لوقا - متّى - يوحنا - مرقص - برنابا) ومن هنا جاء القرآن الكريم مخالفا لهذه الأناجيل والتوراة مادة وأسلوبًا.

أما الذين يدَّعون بأن القرآن مصدرًا من الإنجيل والتوراة فإنهم يجهلون ما أورده القرآن الكريم من أصول جديدة لم ترد فى الكتابين ومن تفصيلات فى بعض الأحداث لم يعرفها اليهود والنصارى فقد أخبر القرآن الكريم بأشياء ما كان يعلمها أحد حتى أهل الكتاب أنفسهم مع أنها تتعلق بصميم مسائل دينهم فهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن كفالة زكريا للسيدة مريم بعد ولادتها كذلك فقد أخبر القرآن الكريم بأشياء كثيرة تحققت تحققا تاما بعد الإخبار بها منها إخباره عن انتصار الروم بعد انخذالهم وكان الفرس قد غلبوا الروم عام ٦١٠ وأن دولة الروم كانت مختلة مضطربة بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلبة ومع ذلك فقد أخبر القرآن الكريم بانتصار الروم فى بضع سنين - والبضع ما بين الثلاث والتسع - كذلك فإن القرآن الكريم أخبر بأمور ما عرفت إلا فى العصر الحديث وما كان أحد يعرفها أو يؤمن بها إلا المسلمون ولم يرد بها أى إشارة من علم فى التوراة أو الإنجيل ومن ذلك إخباره بانخفاض الضغط الجوى فى أعالى الجو:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وكذلك الإخبار عن اهتزاز الأرض عند نزول المطر عليها:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج: ٥]

وفى القرآن الكريم أمور لا يمكن أن تنسب إلى الرسول ﷺ ؛ لأنها تحوى معاتبته

على تصرف من التصرفات وما كان للرسول أن يكتب القرآن ثم يعاتب نفسه وذلك فى أمر إطلاق أسرى بدر وفى مسألة الأعمى وفى مسألة الصلاة على المنافقين وفى مسألة زينب بنت جحش أما الزعم بأن النبى ﷺ أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بأسلوبهما فأبسط الرد عليه أن ما فى القرآن الكريم مخالف للتوراة والإنجيل مخالفة تامة وهناك أمور فيها مخالفة جوهرية وذلك شأن مريم وعيسى ومعارضة القرآن للتثليث والصلب والخطيئة أما الزعم بأن النبوة أمر كان يتوقعه الرسول ﷺ ويرغب فيه وبأن النبى كان له صدِّيق يكلمه فإن الأخبار الثابتة الصحيحة لم ترد مطلقا بأن النبى كان يرجو أن يكون النبى المنتظر ولو كان لدوَّنه المحدثون والمؤرخون كما دونوا عن أمية بن أبى الصلت بل لقد صرح القرآن الكريم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [القصص: ٨٦].

وقد شهد أعداؤه جميعا له بالصدق وخاصة أبو جهل ولو كان شيء من ذلك صحيحا لكان كفار قريش أدرى به من (بروكلمان) ومن شايعه وكان يكون من أكبر الحجج بين يد المشركين والمنافقين واليهود كذلك فقد برأ القرآن الكريم الرسول من أن يكون له من يعلمه:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣].

كذلك فقد كشف الباحثون مقطع الأمر في قضية المفردات الأجنبية التي التقطها المستشرقون ليلمزوا القرآن بأن عربيته ليست كاملة فهذه الكلمات التي تبدو أجنبية وهي ليست كذلك إنما جاءت عن طريق الاشتراك في أصل اللغات العربية القديمة أو اتصلت عن طريق النقل والتعريف بالتجارة والأسفار والمجاورة واستعملت في اللغة استعمالا جاريا وفق قوانينها ولهذا استعملها القرآن الكريم وخاطب بها ربنا العظيم عباده بلسانهم لأنه لا يعقل أن يستعمل القرآن الكريم كلمات غير عربية وغير مفهومة عند العرب ثم يخاطبهم القرآن بها ويسميه عربيا مبينا ليكلفهم بعد هذا كله شيئا لا يفهمونه.




الباب الحادي عشر
الى من يهمه الأمر..

الفصل الأول

حتمية الدفاع!!.

إن الهجوم الشرس والاعتداء الظالم على الإسلام والمسلمين من قبل أعدائه لم يعد قصرًا على اليهود وشركائهم ولكنه تعدى إلى الملحدين المتأسلمين الذين شايعوا خصوم الإسلام وقدموا لهم كل العون والمدد فطعنوا فى عقائده وشرائعه وأحكامه ورموزه وطعنوا كالعادة فى القرآن الكريم وأعلن بعضهم أن الالتزام بالآيات الصريحة يؤدى إلى الظلم والفوضى والفساد وأن الخروج عليها ومخالفتها أمر ضرورى؟ كما أعلنوا طعنهم فى السنة وزعموا أنها لم تعد تصلح لشيء وأن الرسول ﷺ على حد قولهم لم يثبت عنه سوى ستة عشر حديثا فقط!! وأن كل كتب السنة بما فيها البخارى ومسلم مزورة ومكذوبة ولا يصح منها شيء؟

وبالتالى تم توجيه الطعن للشريعة الإسلامية والطعن فى الصحابة رضوان الله عليهم وقال أحدهم بكل بذاءة وصلف : إن أبا بكر من وُضَّاع الحديث الذين لا دين لهم ولا خلق! وأن عبد الله بن عباس قد سرق أموال المسلمين من بيت المال!! وعمل الطاعنون بجدية على تزوير التاريخ وتغييره كذبا وبهتانا لصالح مخططاتهم الشريرة والمعلنة وغرضهم من ذلك تقويض الدين الإسلامى كله عن طريق تشويه صورته وتدعيم الاتجاهات المنحرفة عنه؟! وقالوا: إن التاريخ الإسلامى ما هو إلا أوهام ويجب تحريره من تلك المقدسات غير المقدسة؟! وأن التاريخ الإسلامى يتنافى مع موجبات العقيدة الإسلامية؟ وأن التنفيذ العملي لقيام المجتمع الإسلامى كان يوجد بينه وبين العقيدة الإسلامية تناقضات كثيرة؟!.

ماذا يبقى إذن ؟!..

أصبح من المحتم - أن ندافع نحن المسلمين - عن ديننا وأن نُجمِع أمرنا للتصدى والدفع؟ فلقد بات الأمر واضحا والنوايا واضحة؟ وذاكرة التاريخ لا تنسى صحابة

رسول الله ﷺ الذين ذادوا عن حمى الإسلام وصيانته؟ ذاكرة التاريخ لا تنسى التابعين الذين ذبوا أعداء الإسلام ؟ ذاكرة التاريخ لا تنسى ذوى الهمم العالية والقيادات الراشدة المؤمنة الواعية!! يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الممتحنة: ١٣].

لم تعد الشعارات وحدها تكفى لحماية الأمة بل إن النزول إلى الميدان ومواجهة الواقع والتمسك بالشعائر وإبراز السلوكيات الإسلامية وتجميع القوى ودفع الطاقات وبذل المهج لهو الدافع الأول لإسكات (الملاحدة وأعوانهم) فليس فى القرآن الكريم آية واحدة فيها ذكر الإيمان إلا وأشار إلى العمل ، وهو فى الإسلام يعنى كل شىء يقوم بالحياة وتقوم به الحياة فهو حركة وتفاعل ، هو قوة وعلم ، وهو جهاد ونضال، وهو البحث عن الحق؟!

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [البقرة: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

[التوبة: ١١١]

وقَالَ تعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [هود: ٢٣].

وقَالَ تعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩].

وقَالَ تعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقَالَ تعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقَالَ تعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين: ٦]

بل إن الله عز وجل حفز المؤمنين إلى التمسك بإيمانهم حتى يكونوا أهلا لاستحقاق الدفاع عنهم فقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحج: ٣٨].

ولقد عرف أعداء الإسلام أن القوة الدافعة والحجة الدامغة لنصرة المؤمنين هو الإيمان ذاته وكونه من أهم الأسلحة التى حررت الإنسان من عبودية العباد للعباد إلى عبوديتهم لرب العباد..! والصراع بين الإسلام والكفر يعنى بين الحق والباطل وهو الحقيقة الأبدية فى المواجهة والحقيقة الأزلية التى لم تتغير ولن تتغير إلى الأبد مهما تغيرت الشعارات والأقنعة إن الحقيقة هى الإشكالية التى غلّطت البعض وتغلّط بها البعض مما جعلهم يفصلون بين ما

يسمَّى بـ : (المراجعة والمواجهة) وتولد عن هذه المغالطة مذاهب وأفكار زادت فى تعتيم الحقيقة ويظهر أن التحقيب الملائم لتاريخ نزول الإسلام ومن ثم لتاريخ جذور المواجهة – حسب السياق القرآنى هو التحقيب الثلاثى البارز.

الحقبة الأولى: حقبة الإسلام الفردى وتبتدئ بنزول آدم عليه السلام إلى الأرض وانتقال الرسالة منه إلى أبنائه وأحفاده من بعده.

الحقبة الثانية: حقبة الإسلام القومى وفيها بعث عدد من الرسل إلى أقوامهم فأرسل نوح إلى قومه.. وهود إلى قومه.. وشعيب إلى قومه.. وإبراهيم إلى قومه.. وموسى إلى قومه.. وهكذا.

الحقبة الثالثة: حقبة الإسلام العالمى وهى التى أُرسل فيها محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالمين كافة.. فكان آخر الرسل وخاتم النبيين.

ما تميزت به كل حقبة :

١- تميزت حقبة الإسلام الفردى بظهور العصيان والتمرد على أوامر الله عز وجل كما شخصها النقاش الذى دار بين ابنىّ آدم عليه السلام (هابيل وقابيل) عندما خاطب المؤمن منهما أخاه العاصى بقوله: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة: ٢٨].

فالمؤمن منهما لم يكن ضعيفا وإنما كان خائفا من الله رب العالمين فالخوف هو الذى منعه من الظلم ومن عصيان ربه فاختار أن يموت قتيلا بدل أن يعصى الله ويعتدى على نفس بالقتل، هذا المشهد العجيب والمثل الرائع فى الخشية من الله يحدد لنا أن المواجهة بدأت بالعصيان.

٢- تميزت حقبة الإسلام القومى بالتطور التالى:

* ظهور الكفر صراحة على شكل قوة مذهبية (إيديولوجية) منظمة (لها قيادة) ومواجهته للرسل والمؤمنين الأولين والإعلان عن عدائه الشديد لهم.

تدخل الحق سبحانه مباشرة وبدون واسطة بشرية لتدمير وإبادة سلطة الكفر وقوته وتنظيمه (فمنهم من أباده بالطوفان ومنهم من أباده بريح صرصر ومنهم من أباده بالرجفة... إلخ).

* ظهور بوادر قوة بشرية فى شكل تنظيم إسلامى ومواجهتها للقوة الكافرة (التنظيم الكافر) لأول مرة فى التاريخ وهى القوة أو التنظيم الذى قاده طالوت ضد تنظيم جالوت، ويشير هذا الحدث الأول للمواجهة بين التنظيمين أن التنظيم الإسلامى كان أتقن بناء وأحكم تنظيما ويشير إلى عنصر القوة فى هذا البناء والتنظيم فى وقته وهى عناصر: العلم والقوة البدنية (المادية) والقوة المالية والتشبع بالإيمان ثم الطاعة ثم التوكل ثم الصبر هى العناصر السبعة التى كونت مُركَّبَ القوة وأسقط القرآن ببراعة هائلة عنصر الكم العددى فلم يحسبه من عناصر القوة مطلقا عندما أشار عز وجل بقوله:

﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فتبين أن طالوت كان على رأس تنظيم قليل العدد وجالوت كان على رأس تنظيم (جيش) كثير العدد هذا إلى جانب عنصر التخطيط فى المعركة الذى هو طبعا من أهم عناصر القوة وبذلك انتصر طالوت بقلته على جالوت بكثرته وكان الحاسم فى هذا النصر هو التفوق بعناصر القوة الحقيقية وليس بالحكم العددى لهذا نرى طالوت يجرى آخر اختبارًا على تنظيمه ويقوم بمراجعته قبل الدخول فى المعركة مع الخصم عندما اختبرهم بالنهر ومنعهم من الارتواء منه إلى حد الكفاية ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ وكان هذا الاختبار بالنهر أمرا ربانيا ولذلك معناه الكبير فى تنبيه القرآن الكريم لنا إلى

معرفة عناصر القوة والعمل بها واختبار هذه القوة.

كانت هذه مرحلة تمهيدية لظهور العالمية الإسلامية التى تغير معها قانون المواجهة بين الإسلام والكفر حيث لم يعد يستند على تدخل القوة الربانية وحدها اتكالا دون الأخذ بالأسباب الدافعة لهذه القوة والمنظمة لها وأصبح يستند على القوة البشرية المؤمنة المنظمة ولعل ذلك يرتبط بقانون العالمية الإسلامية نفسها و(بقانون التطور فى نفس الوقت) وفى إطار هذا المتغير الجديد الذى أصبحت فيه مسؤولية إخضاع الكفر على كاهل المسلمين تحدد قانون العمل بمبدإ إنشاء الأمة التنظيم عند مجىء العالمية الإسلامية لأنه من غير المعقول أن تكون أمة رسالية وتكون أمة قائمة على مبدأ التشتيت الفردية فالإسلام نظام التنظيم ومن عرفه غير ذلك فقد جهله.

٣- تميزت الحقبة الثالثة : من تاريخ نزول الإسلام بمجىء العالمية الإسلامية واختار الله عز وجل هذه العالمية:

(أ) الإسلامُ دينا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٧]
والآيات كثيرة.

(ب) ومحمدٌ نبيا ورسولا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ ﴾ [النساء: ٧٩] والآيات كثيرة.

(ج) القرآنُ الكريمُ كتابا: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ٢].

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [هود: ١٧].

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾

[الفرقان: ١] والآيات كثيرة.

كما تميزت الحقبة العالمية هذه بإعلان القرآن الكريم عن تنظيم بشرى إسلامى لأول مرة فى التاريخ يتحمل مسؤولية نقل رسالة الإسلام إلى الناس كافة فى جميع العصور:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج: ٧٨].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويحدد القرآن الكريم الصفة التنظيمية الحركية صراحة فى المرحلة التى كان يتأسس فيها هذا التنظيم فيقول عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ويحدد بعد ذلك مباشرة أن الإيمان الحق هو الذى يتجلىَّ فى الصورة التنظيمية الحركية النضالية فيقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

هكذا تحدد هذه الآيات الكريمة بوضوح كامل العناصر التى يقوم عليها هذا التنظيم الإسلامى الجديد إنها: الإيمان – الهجرة – الإيواء – النصرة – الجهاد بالمال – الجهاد بالنفس. ويشير قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٢].

إلى مضمون التنظيم وعلاقته كسنة ربانية بالنصرة باعتباره شرطا أساسيا فى تحقيق النصر، وبالتالى يقدم لنا القرآن الكريم التنظيم كشرط قانونى فى النصر وبينها بالنتيجة إلى ضرورة العلم بذلك كما يبينها أحيانا إلى أن المسلمين لا يجب عليهم أن يدخلوا فى المواجهة مع الكفر حتى يصبح عددهم عُشْرُ التنظيم الكافر على الأقل:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦٥]

أما إذا أصبحوا يكوِّنون نسبة بالنصف فتلك نسبة مريحة تفرض عليهم التصرف وفق هذه النسبة.

وينبه القرآن الكريم كذلك أن البذل (الجهاد بالمال) فى المرحلة التأسيسية للتنظيم والتى هى أصعب مرحلة فى المواجهة أى فى المرحلة ما قبل النصر (الفتح) ما قبل الاستخلاف: هو البذل الحقيقى المطلوب؛ لذلك استحق صاحبه أعظم درجة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ﴾ [الحديد: ١٠].

كل هذا وغيره يؤكد أن العالمية الإسلامية تأسست على قانون جديد هو قانون الأمة التنظيم باعتبارها تأسست منذ البداية أمة رسالية مسؤولة عن نقل الإسلام إلى شعوب العالم (كما أنها مسؤولة عن حماية هذا الإسلام) وأن قانون التنظيم الذى نشأت عليه هو قانون أبدى ما دام على الكرة الأرضية كافر واحد وما دام يحدث فى المجتمع الإسلامى غفلة تسيطر فيها الشهوات والغرائز على المبادئ وتصيب الإسلام بالتدمير.

(٥) تميزت هذه الحقبة كذلك بتأسيس العالمية الإسلامية على مبدأ (القوة) (التطور بالقوة) فالقوة مبدأ وتطويرها مبدأ يقول عز وجل:

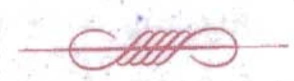
﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالإعداد والاستطاعة يتطوران فالتطور بالقوة مبدأ وهو يحمل مضمونا بأن تنظيم الكفر سيتطور فى القوة وبالقوة فجاء مبدأ التطور بالقوة فى صيغة الأمر ليكون التطور بالقوة واجبا حتى لا يحدث خلل فى التوازن وينعكس ذلك على وضعية الإسلام وعلى نقله إلى العالم فمبدأ القوة ومبدأ تطور القوة ركن من الأركان التى تأسست عليها العالمية الإسلامية.

انطلاقا من هذه المبادئ الخمسة التى تأسست عليها العالمية الإسلامية وقعت المواجهة واستمرت إلى الآن وستستمر مصداقا لقوله عز وجل:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

وعلى الأمة أن تظل فى صحوتها من حتمية الدفاع.



الفصل الثانى

القادمون من الخلف؟!

فى مطلع القرن العشرين ازداد خروج وانتشار رؤساء جنود التنفيذ ورؤساء القوافل فى كل مكان توجد فيه كثافة سكانية مسلمة يركزون على الأماكن التى يفشو فيها الفقر والجهل لعل صيدهم يكثر وسط هذه العوامل المشجعة وعقدت مؤتمرات التنسيق المحلية والعالمية وكانت بمثابة غرفات عمل عسكرى لتدبير الأمور وقد عقد فى مدينة (جلين ايرى) فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٨ م مؤتمر تنصيرى موسع يحمل عنوان: (التنصير خطة لغزو العالم الإسلامى).

وجاء فى وصف المؤتمر قول بعضهم: (انتهى هذا المؤتمر بعد أن امتلأت قلوب الملايين بروح الأمل وشجعهم على السير قدما نحو هدفهم الأكبر وهو العمل على تنصير ٧٤٠ مليون مسلم – وقتها–) ولما لم يفتتن المسلمون بدعاوى المبشرين والمنصرين صدرت الأوامر إلى جنود التنصير تقول: (استمروا فى عملكم ضد المسلمين وليس بلازم عليكم أن تخرجوا المسلم من دينه إلى النصرانية ولكن يكفى أن تجعلوه مشغولا عن دينه حتى يصبح بلا دين..؟!).

وأعداء الإسلام يذهبون إلى جميع المواقع البشرية المسلمة فى العالم لتحقيق كل المكاسب المتاحة: الدين والإباحة والثروات والفتن! ومن المعروف أن أعمال التنصير لا يقوم بها أفراد ولا منظمات دينية فقط بل تسهم فى تمويلها الحكومات الغربية..!

والغرب الصليبى يُركز دائما على جذب انتباه الشرق الإسلامى لبحوث يسميها تصورية تتمثل فى:

١ – الكتاب المقدس والثقافة.

٢- إبلاغ الكتاب المقدس إلى المسلمين.

٣- استمالة المسلم إلى النصرانية عن طريق سيرة المسيح.

٤- كنائس مقدسة لمن يتم تنصيره من المسلمين.

٥- صراع القوة فى عملية تنصير المسلمين.

٦- الظرفية والتحول من الإسلام إلى النصرانية.

٧- مقارنة بين وضع الإسلام والنصرانية فى تركيا.

٨- منطلقات لاهوتية جديدة فى عملية تنصير المسلمين.

٩- تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب الإسلامية.

١٠- تدعيم ثقافة المسلم المنصَّر.

١١- وسائل الإعلام الموجه للمسلمين.

١٢- الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين.

١٣- تطوير أدوات جديدة تساعد على تنصير المسلمين.

١٤- بناء شبكة من مراكز الأبحاث واستراتيجية للتخطيط.

١٥- كيفية الوصول إلى الذين لم يصلوا إليهم من الشعوب الإسلامية.

وما زال الغرب الصليبى يقوم بهذه الأعمال التخريبية ويحفر لنا قبورنا وإذا التمسنا لنا عذرا فى الإحجام عن الدفع بالقوة.. فلا عذر لنا أن نقف أمواتا أمام هجمات التنصير العاصفة..؟!!

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ

إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١١٩: ١٢٠].

وقال عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا عن الغرب الصليبى فماذا عن منفذى المؤتمر المشبوه من العرب والمنعقد فى القاهرة كنانة الله فى أرضه فى شهر يوليو ٢٠٠٣م وحمل عنوان: (نحو خطاب ثقافى جديد من تحديات الحاضر إلى آفاق المستقبل] حول هذا المؤتمر المشبوه كتب الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعنى مقالا بالغ الأثر فنَّد فيه النوايا وقرأ الأحداث قراءة متأنية وعلمية أقف فيه عند بعض النقاط الهامة والتى يحاولون من خلالها هدم الإسلام كتب يقول: (تلك الخدعة أن المؤتمر يحمل عنوانا هو: تجديد خطاب ثقافى ثم تحولت كل واقعياته إلى: نحو تجديد الخطاب الدينى وليس الثقافى ولم يلتزموا بحرفية العنوان (الثقافى) موضوع الخدعة وقاموا بحصر معنى الدين فى الدين الإسلامى وحده وفى هذا كثير من المكر السيىء الذى يحاك ضد الإسلام ومعناه مرة أخرى أنهم وصلوا لأهدافهم الخبيثة بتأشيرة دخول مزورة!!

أو كما جاء فى الحديث الشريف: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وأجمل الأستاذ الجليل ما حاولوه وكرَّسوه للوصول إلى أهدافهم القذرة فيما يأتى :

أولا: السخرية من الوحى (القرآن) :

والذى تولىَّ كبره فى هذا الموضوع قسيس سورى سابق يعمل شاعرا تظاهر بدخول الإسلام ودعا إلى: إعادة تفسير القرآن على منهج حداثى تفقد فيه مفردات اللغة وتراكيبها دلالاتها الوضعية والمجازية ولا يستقر معنى واحدًا للكلمة.. بل لكل إنسان أن يفهم من المفرد أو من التركيب ما شاء من المعنى.. وله أن يفهم معنى كلمة الآن ثم يفهم منها معنى

آخر غدا..؟! انظر كيف تجرأ هذا المخلوق على الخالق وسخر من قرآنه ووصفه بأنه يخلو من كل أنماط المعرفة – ثم دعا كذلك.. إلى إعادة النظر فى الدين أصلا؟ ليتاح له التحرر من سلطانه ويتمكن من الإبداع والانفتاح على العالم المتحضر فالقرآن عنده وعند الداعين إليه وعند أعضاء المؤتمر يخلو من المعرفة..؟!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف: ٥].

ثانيا: فصل الدين عن الدولة:

ومقترح هذه الفكرة – الملعونة – أحد العلمانيين وهذا قولٌ كثيرًا ما تردد على ألسنة – أمثالهم – واعتبر هذا بالطبع هذيانا وتخبطا ولم يرقَ من قريب أو بعيد إلى أى مستوى من مستويات الإقناع أو الاحترام وقد أغلق هذا الباب: ويحار الإنسان كثيرا أمام هذا التبجح واللادينية التى ولَّدتها الأحقاد على الإسلام والمسلمين.

ثالثا: إلغاء السنة والفقه:

وطعنوا فى الحديث النبوى والسنة وطالبوا بإلغائها وكذلك طالبوا بإلغاء المذاهب الفقهية الكبرى الأربعة واقترحوا أخذ الأحكام مباشرة من القرآن وحده.. وأسهم أحد الأعضاء بسهم وافر فى هذا المؤتمر وادعى قدرته على الاستنباط واستخراج الأحكام من القرآن مباشرة.. هكذا..!! ورأوا أن محو الفقه الإسلامى ضرورى لتحرير الدعوة الإسلامية من الحلال والحرام.. وكفى؟!.

رابعا: إلغاء المؤسسات الدينية:

كما دعوا إلى إلغاء المؤسسات الدينية كالأزهر والهيئات التابعة له والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وربما وزارة الأوقاف نفسها لأنها مؤسسة وربما أيضا المساجد لأنها

روافد دينية واقترحوا أن يحل محلها جميعا هيئة مدنية خالية من علماء الدين تتولى أمور الفتوى..؟!.

خامسا: إلغاء اللغة العربية:

وقد بلغ الحقد مداه عندهم فطالبوا بإلغاء اللغة العربية وإحراق المعاجم اللغوية القديمة على أن يقوموا هم بكتابة لغة جديدة تحل محلها - وهذا بالطبع ينسحب على كل التراث الإسلامى ولا عجب: فقد حكموا على القرآن الكريم - أصلا - بأنه لم يعد صالحا لإدارة الحياة لأنه (منتهٍ)..!! بئست الفكرة وأخرس الله لسان صاحبها صاحب مقولة: إن السماء ليس لها سلطان على الأرض وطالبوا بأمور أخرى مثل: إلغاء التعليم الدينى الإسلامى وإلغاء جميع المؤسسات الدينية والخيرية على نحو سافر ومقيت..؟!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

إن هؤلاء القادمين من الخلف والذين يتذرعون بذرائع واهية وحقيرة لم يتحقق لهم - أى هدف حتى الآن ولن يتحقق:

﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ﴾ [هود: ١٠٨].

يقول أحد المارقين: (إن أعظم عقبة فى سبيل تحقيق وحدتنا القومية وفلاحنا القومى هى تعلق المؤسسات الدينية بالسلطة الزمنية وتشبث المراجع الدينية بوجوب كونها مراجع السيادة فى الدولة وقبضتها على زمام سلطاتها أو بعض سلطاتها على الأقل والحقيقة أن معارك التحرر البشرى الكبرى كانت تلك التى قامت بين مصالح الأمم ومصالح المؤسسات الدينية المتشبثة بمبدأ الحق الإلهى والشرع الإلهى فى حكم الشعوب والقضاء فيها وهو مبدأ خطر استعبد الشعوب للمؤسسات الدينية استعبادا أرهقها هذه هى الوجهة الدنيا من الدين ، هى الوجهة التى كان الدين ولا يزال يصلح لها حين كان الإنسان لا يزال

في طور بربريته أو قريبا منها أما في عصرنا الثقافي فإنه لم يعد يصلح).

لقد رصد القرآن الكريم حركات هؤلاء جميعا - رصدا كاملا - وأحاط بما يدور في ضمائرهم إحاطة جعلتهم في حالة من - اليأس الشديد - بسبب عالمية القرآن الكريم وعالمية الرسالة المحمدية الخالدة!.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٣٢) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة: ٣٢: ٣٣].

وقال ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب - وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء - أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا.. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1].

إن العواصف الهوجاء التي يجتاح الآن كل ما يحمل اسم الإسلام والمسلمين لم يعد أمرا خافيا على ذي لب وعلم!.

ولم يعد الجدال مع الملاحدة وخدمهم - ترفًا - أخلاقيا وكلاميا..؟ بل إنه أصبح فرضا دينيا ملزما لتحرير القيم والفضائل ثم سيطرة الملاحدة ومحاولاتهم الجادة لتقديم الإسلام كقربان يحققون به أغراضهم وغاياتهم المقيتة! لقد جر علينا - جهلنا - بقيمنا وقدراتنا

---

(١) حديث صحيح: رواه البخاري (٧٩)، انظر حديث رقم (٥٨٥٥) في صحيح الجامع.

الويل وزعم الزاعمون من كل حدب وصوب - ماديين وعلمانيين وحاقدين - أن القرآن الكريم والسنة لم يصبحا ملاذا يلوذ به طالبوا الحياة الدنيا.!

واجتمعوا وللأسف في خندق واحد تحت راية الشيطان! القادمون من الخلف قدموا بالمال وبالفكر وبالخيانة وجندوا كل مرتد وكل حاقد وكل مهين؟! ولا حل لنا إلا بالعودة إلى منهج الله ورسوله فهما الملاذ الذي يلوذ به المؤمنون ويقبل عليه الموحدون وهما الطريق الوحيد للنجاة..! أقول لم يعد الجدل كلمة ورأيا بل أضحى علما وضرورة قصوى لصد هذا الهجوم الضاري على الإسلام واكتساح هذه الفلول الضالة من المرتزقة والمتاجرين بكل قيمة وشرف ودين؟!

وحتى نوقف - نحن المسلمين - زحف هجوم القادمين من الخلف فعلينا أن نحفظ القرآن الكريم وأن نحفظ السنة ونقيم الشريعة كما أراد الله لها أن تكون! لقد واجه المسلمون قديما وحديثا كل التحديات وقمعوا كل الفتن وأزهقوا كل باطل فقد واجهوا الصليبيين بعد أن اندفعت حملتهم الأولى واستطاعت دخول بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ ١٠٩٩ ميلادية.

وواجهوا التتار عام ٦٥٨ هـ ١٢٦٠م مما تسبب في انحسار الموجة التتارية.. وواجهوا الصهيونية في عصرنا الحديث عام ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٣م وما كان ذلك إلا بدوافع إيمانية ويقينية وعملية استنبطت من القرآن الكريم والسنة المطهرة .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الحج: ٦٨].

ويقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٥] .

ويأتى بعد ذلك تحذير النبى ﷺ لنا من السلبية والتسليم فيقول: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها قلنا: أو من قلة بنا يومئذ؟ قال أنتم يؤمئذ كثير ولكن تكونون كغثاء السيل – ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن – قلنا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت**»(١)، وفى رواية أخرى: «حب الدنيا وكراهية الموت» فالقرآن يرفع الأمم ويرقيها هذا هو الحق ولا حق سواه..!!

يقول الله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)** ﴾ [القصص: ٨٣: ٨٨].

ويقول تعالى: ﴿ **لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)** ﴾ [آل عمران: ٢٨]. والله أعلم.

---

(١) حديث صحيح: رواه أحمد فى مسنده (٢٢٤٥٠)، البيهقى فى شعب الإيمان (٩٨٨٧) الطيالسى فى مسنده حديث رقم (٩٩٢)، انظر حديث رقم (٨١٨٣) فى صحيح الجامع.


الخاتمة

من خلال عرضنا لموضوع:

[الإعجاز الجدلى فى القرآن الكريم]

تحقق لنا الوقوف على كثير من الحقائق والمفاهيم والتى أسفر أعداء الدين فيها عن وجوههم القبيحة وألسنتهم البذيئة ومنطقهم الحاقد، وطفا ذلك على سطح الواقع فى كل المواقع رغم أنهم لبسوا مسوك الضأن من اللين وهذا تصوير للبعد النفسى والأخلاقى لهم سنعرضه من خلال سرد بعض الافتراءات والرد عليها فقد كتب أحد سدنتهم يقول فى إحدى رسائله:

(لم يقتصر[1] القرآن على الأمر بحسن مجادلة أهل الكتاب بل أكثر من هذا: إنه وضع القراء فى مركز الإفتاء فى الدين فقال:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[يونس: ٩٤].

وقال أيضًا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الأنبياء: ٧].

وللرد على ذلك نقول: لقد جوز صاحب الرسالة على الرسول ﷺ الشك فى دينه وجعل الذى يزيل شكه ويشفيه منه هم أهل الكتاب كما جوز أن يكون القرآن غير وافٍ لشئون المسلمين وإن صاحب الرسالة قد جاء بكبرى الكبائر حيث ادعى أن نبينا محمدًا ﷺ كان يتلقى دينه عن الله وعن جماعة أهل الكتاب وأن أهل الكتاب كانوا له بمثابة دار الإفتاء ومجلس التشريع الذى يسانده ويفتيه فيما احتاجوا إليه من أمور الدين ومعدلاته

---

(١) رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم – د/ محمد جمعة عبد الله – جامعة أم القرى بمكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م من صـ ١٥٨ وما بعدها بتصرف.

﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور: ١٦].

وقبل التعرض للآيتين اللتين جاء بهما ظانًا أن فيهما دليلا على ما ادعاه نسوق هذه الحقائق الدامغة والقاطعة لهذا الادعاء بأن الرسول ﷺ لم يستفت أحدًا من أهل الكتاب فى أمر دينه فقد كان على بينة من ربه ويقين من أمره فنقول:

أولاً: إن الله لا يختار رسله ارتجالا وإنما يختارهم على علم بأهليتهم للرسالة والقيام بأعبائها كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فهم فى الذروة علما بشئون الرسالة ودينا وخلقا وكمالا فى جميع نواحيهم.

ثانيًا: رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - معصومون من التلبس بأى أمر يتنافى مع قداسة الرسالة لأنهم القدوة الحسنة والمثل العليا لأممهم.

ثالثًا: رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - يتلقون أمور دينهم وما يبلغونه لأممهم عن الله وحده ولا يتلقون شيئا من ذلك عن أحد من البشر ويبلغونه كما أوحاه الله إليهم.

رابعًا: ومن المقطوع به أن الرسول ﷺ لم يستفت أحدا من أهل الكتاب فى شئون دينه وإنما كان يتلقى تعليماته عن الله وحده كما قال تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [النجم: ٣: ٥].

وهذا شأنه وشأن غيره من الرسل جميعا قال تعالى:

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣]

والأولى بإفتاء الرسول ﷺ فى شئون دينه هو جبريل الأمين عليه السلام عن رب العالمين، فضلا عن أن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا وغيروا فى كتبهم قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

خامسًا: تعهد الله تعالى لرسوله ﷺ بجمع القرآن فى قلبه وبيانه فقال:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة: ١٦: ١٩].

كما أنه تشريع شامل قال الله تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩].

سادسًا: أخبرنا الله تعالى أن أهل الكتاب الذين لم يسلموا يحبون الشر للمسلمين ويكرهون الخير لهم فقال تعالى:

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾[البقرة: ١٠٥].

فكيف نستفتيهم إذن؟.

سابعًا: كيف يكون الاستفتاء وهم يعملون على تكفيرنا بغيا علينا وحسدا لنا قال الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟

وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾

[البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وقال: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثامنًا: أثبت القرآن أن أهل الكتاب قد ضلوا طريق الحق ويسعون إلى إضلالنا لنكون مثلهم قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء: ٤٤، ٤٥].

كيف بعد ذلك يدعون أن الله تعالى أمرنا باستفتائهم كما أن أهل الكتاب أنفسهم اختلفوا فيما بينهم في كتابهم اختلافا بينا تبعا لأهوائهم وأنهم كانوا في شك شديد قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكّٖ مِّنْهُ مُرِيبٖ ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود: ١١٠].

تاسعًا: ثبت أن أهل الكتاب كذبوا على رسول الله ﷺ وكذبوا أمامه فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال:

أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت - وكان قد أنكر عليهم إسلامه - فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فِيَّ ما ليس فى فأرسل نبى الله ﷺ إليهم فأقبلوا فدخلوا عليه فقال لهم ﷺ: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون إنى رسول الله حقا وأنى جئتكم بحق فأسلموا»، قالوا: ما نعلمه! قال: «فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاش لله ما كان ليسلم، قال: (ثلاثًا)، قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق، فقالوا له: كذبت فأخرجهم رسول الله ﷺ - رواه البخارى فى إسلام عبد الله بن سلام(1).

وقد نهانا رسول الله ﷺ عن سؤال أهل الكتاب فى شىء من أمور الدين فقال ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسىٰ بين أظهركم ما حل له إلا اتباعى»(1).

عاشرًا: بين لنا الله تعالى أن فى القرآن ما يغنينا عن غيره من الكتب فعن ابن جرير وابن أبى حاتم والدارمى فى مسنده من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبى ﷺ: «كفى بقول الضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم»

فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ

(1) صحيح البخارى فى (٥/ ١٦٣).

(1) رواه أحمد والبزار واللفظ له عن جابر - المنار ١٠/ ١٠٤.

فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وأيضًا ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله - أى أقرب نزولا لأنه أنزل بعد التوراة والإنجيل - تقرءونه لم يشب - أى لم يخلط بغيره - وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: (هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم من مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم. رواه البخارى فى ٤ ص١٥ وفى ٩ص١٩٩.. هذا ما أردنا أن نختم به كتابنا وصدق الله العظيم حيث يقول:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

[الرعد: ١٣].

تم الكتاب ولله الحمد والمنة.

قائمة المراجع

الرقم	المرجع	المؤلف
١	القرآن الكريم	
٢	السنة النبوية المطهرة	
٣	دائرة معارف القرن العشرين	د/محمد فريد وجدى
٤	مقدمات العلوم والمناهج	الأستاذ / أنور الجندى
٥	علم الإنسان	فوزية رمضان أيوب
٦	أحكام الجان	الإمام/ بدر الدين أبى عبد الله الشبلى
٧	الجامع لأحكام القرآن	أبى عبد الله محمد الأنصارى القرطبى
٨	حاشية الجمل	سليمان بن عمر العجيلى / الجمل
٩	تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس	لأبى طاهر بن يعقوب الفيروزابادى
١٠	مختصر الطبرى	أبو يحيى التجيبى الأندلسى
١١	حجة الله البالغة	العلامة الدهلوى
١٢	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن	محمد فؤاد عبد الباقى
١٣	البرهان فى علوم القرآن	الزركشى
١٤	الوعى الإسلامى	العدد ٤٥٧ عام ٢٠٠٢
١٥	القاموس المحيط	للفيروزابادى
١٦	الإتقان فى علوم القرآن	للسيوطى

١٧	تاريخ الجدل	الإمام/ محمد أبو زهرة
١٨	روح المعانى	للألوسى
١٩	التفسير الكبير	الفخر الرازى
٢٠	فى ظلال القرآن	الشهيد /سيد قطب
٢١	السيرة السلفية	للشوكانى
٢٢	الخـــوارج	د/ عبد القادر البحراوى
٢٣	صون المنطق والكلام	جلال الدين السيوطى
٢٤	مجلة منار الإسلام	العدد ٣٤٣ عام ٢٠٠٣
٢٥	التبيان فى تفسير القرآن	للإمام/ الطوسى
٢٦	الطبيعة فى القرآن الكريم	د/ كاصد الزيدى
٢٧	التصوير الفنى فى القرآن	الشهيد /سيد قطب
٢٨	تاريخ المذاهب الإسلامية	الإمام/ محمد أبو زهرة
٢٩	مذاهب فكرية معاصرة	الأستاذ/ محمد قطب
٣٠	ركائز الإيمان	الشيخ/ محمد الغزالى
٣١	مجلة الإسلام وطن	العدد ٢٠٣
٣٢	وضح البرهان فى مشكلات القرآن	النيسابورى
٣٣	نهاية الإعجاز	الرازى
٣٤	تاريخ التشريع الإسلامى	د/ محمد على قاسم
٣٥	رد افتراءات المبشرين	د/ محمد جمعه عبد الله
٣٦	أصول التشريع الإسلامى	الشيخ/ على حسب الله

٣٧	ترجمات معانى القرآن الكريم	جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
٣٨	المصحف المرتل	د/ لبيب السعيد
٣٩	إعجاز القرآن	الأستاذ / مصطفى صادق الرافعى
٤٠	مقالات من مجلات الأزهر	كبار علماء الأزهر
٤١	إحياء علوم الدين	حجة الله الغزالى
٤٢	أحكام القرآن	لابن العربى
٤٣	حول إعجاز القرآن	د/ على العمارى
٤٤	الحيوان	للجاحظ
٤٥	ميثاق النبيين	عبد الوهاب عطية
٤٦	الكتاب المقدس	دار الكتاب المقدس
٤٧	إظهار الحق	رحمت الله الهندى
٤٨	المسيحية الحقة كما جاء بها المسيح	علاء بكر
٤٩	القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم	د/ موريس بوكاى
٥٠	اقتباسات كتاب الأناجيل من التوراة	د/ أحمد حجازى السقا
٥١	إنجيل برنابا	د/ خليل سعادة / مترجم
٥٢	مجلة الوعى الإسلامي	العدد ٤١٢ / ٢٠٠٠م
٥٣	الملل والنحل	للشهرستانى
٥٤	ضحى الإسلام	أحمد أمين
٥٥	إعجاز القرآن	رسالة دكتوراه بأصول الدين
٥٦	(الله) ونشأة العقيدة الإلهية	الأستاذ / عباس محمود العقاد

٥٧	فتح المجيد شرح كتاب التوحيد	لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
٥٨	إعلام الموقعين عن رب العالمين	ابن قيم الجوزية
٥٩	لسان العرب	لابن منظور
٦٠	المفردات فى غريب القرآن	للراغب الأصفهانى
٦١	أصول الدين	دار الكتب العلمية
٦٢	مقالات الإسلاميين	للأشعرى
٦٣	شرح الأصول الخمسة	رسالة
٦٤	الإنصاف	الباقلانى
٦٥	الاقتصاد فى الاعتقاد	حجة الإسلام الغزالى
٦٦	مفاتيح الغيب	للرازى
٦٧	شرح السنة	للبغوى
٦٨	الشفا بتعريف حقوق المصطفى	القاضي عياض
٦٩	تفسير البيضاوى	للإمام البيضاوى
٧٠	تفسير ابن كثير	للحافظ ابن كثير
٧١	تفسير أبى السعود	للعلامة أبى السعود
٧٢	الفِصَلُ فى الملل والنحل	ابن حزم الظاهرى



الفهرس


تم بحمد الله